المنتقى

في تهذيب كتاب

جَنَّةِ الرِّضا

في التسليم لما قدَّر الله وقضى

للقاضي الفقيه الوزير الأديب أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي

المتوفى سنة ٨٥٧ هـ

تهذيب

أبي عماد السخاوي

عضو مجلس التحقيق العلمي بدار الفتح

دار الفتح

الشارقة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ ــ١٩٩٧م

موافقة وزارة الإعلام والثقافة

رقم: أ ع ش ٢٣٣٠

بتاريخ : ١٧/١٢/١٩٩٥م

الناشر

دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف المطبعة: ٣٢٢٣٠٨ـ ٠٦ـ هاتف المكتبة : ٣٢٦٠١٨ ـ ٠٦

فاكس:رقم : ٣٢٦٨٣٨ ـ٠٦ص. ب :٢٣٤٢٤ الشارقة ـ إ.ع.م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضل عفوه تُقال العثرات، وبكريم جوده تهون المصائب والويلات.

وأشهد أن لا إله إلا اللّه الواحد الفرد الصمد، لا إله غيره ولا ربّ سواه، يسمع أنّات المعذبين، وصيحات المكروبين، فيَمُنّ على صابرهم بموفور المنن، وأمّا قانطهم فلا حظ له إلا ويلات المحن، وسيجري عليه القضاء ولا فضل له ولا كرامة إلا مزيد الفتن.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله رحمة للعباد، ونقمة على الكفرة من أهل البلاد، فدعى إلى الجنة، وأرشد إلى اتباع السنة، وجعل أعلاهم منزلة أعظمهم صبراً، فمن استرجع في مصيبته واحتسبها نال أجراً،فكانت أمته خير أمة أخرجت للناس؛ إذا ابتلوا بنعمة شكروا، وإذا أصابتهم محنة صبروا، وعلموا أن ربهم أرحم من أن يهلكهم وإنما كان الابتلاء ليمحصهم، وكان في ذلك الأنبياء لهم قدوة وفي إمامهم صلّى اللّه عليه وعلى آله وأصحابه وسلم لهم أسوة...

أما بعد ، فإن أحوال العباد بين نعم من اللّه تترادف توجب الشكر ولا يتحقق إلا بصرفها في طاعة اللّه، واستشعار فضله، واللهج بشكره والتحدث بها بلا افتخار ولا علو على عباد اللّه فمن أدى حقها فله منها المزيد، إلى أن ينزل رحله في جنة وخلود. والحال الثانية مصائب يُبتلى بها العبد يتعيّن فيها الصبر الذي يتحقق بالتسليم بقضاء اللّه، والرضا واطمئنان القلب بقدره، ومنع التسخط وعدم تلفظ العبد بما يسخط اللّه عليه وكفُّ الجوارح عن المعصية من شق الجيوب ولطم

الخدود، والحذر من التشكي إلى المخلوق، والأمل في اللّه لرفع ذلك البلاء، وسكون القلب إلى أن ما أصابك لم يكن لِيُخطئك من القضاء، فإذا علم أن ذلك من عند اللّه اطمأن فهو أرحم بنا من أنفسنا واستيقن أن ذلك خير له بنص حديث المصطفى ﷺ: **«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»**(١) . وأما الثالثة: فهي حال الغفلة فقيدها الذكر قال تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون**﴾ [الأعراف: ٢٠١]. أما الرابعة: فهي حال المذنب فلا نجاة له إلا بالتوبة والاستغفار.

واعلم أن اللّه تعالى جعل الموت على جميع العباد حتمٌ، فهو النهاية المنتظرة، والعاقبة المُعتبَرة، ولنا في قضائه في الناس عبرة، فقضى على الصحيح بالسقم، وعافى السقيم من الألم، ورتب على ذلك التقسيم، فكان من العباد طائع وأثيم، فلا مفر لكل واحد من الموت ولا أمان، لقوله تعالى : ﴿**كل من عليها فان**﴾ [الرحمن: ٢٦] وسوّى في ذلك بين طوائف العباد، فلا فرق بين عبد وحر، وشريف ووضيع، وصغير وكبير، وغني وفقير، وكل ذلك بتقدير العليم الخبير.

فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها ثم تمنَّى على اللّه الأماني، والحازم من بادر بالعمل قبل فوات الأوانِ، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر فذاك علامة الإيمانِ، والمؤمن من استيقن بصبره حصول الأجر على المصاب والضر في الدارين.

والمصائب على اختلافها من موت وغيره، لا يسلم منها أحد، فالصابر فيها هو الفائز ببشارة الجنة، فلبعض السلف قول بليغ: "لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس". و لله در الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) وغيره عن صهيب رضي الله عنه

المرء رهن مصائبٍ ما تنقضي حتى يوسَّدَ جسمُه في رمسه
فمُؤجَّلٌ يلْقَى الردَى في غيره ومُعجَّلٌ يلقى الردى في نفسه

فكل مُفارَقٌ أو مفارِق، وفاقد أو مفقود، فلابد من الرحيل إلى الجليل للمحاسبة على الكثير والقليل.

ومن باب التذكرة والتسلي ومد يد السلوان لأهل المصائب والأحزان، كان هذا الكتاب لمؤلفه أبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي الأندلسي رحمه اللّه الذي عاصر فترة الاضطرابات التي سبقت سقوط الأندلس حيث أصيب من المصائب بألوان شتى فكان كتابه كبلسم يشفي غليل القلوب وجزع النفوس، فهو صادر من قلب كسير غير جزع، ونفس صابرة محتسبة، فكتبه لإخوانه في المصائب وقسّمه على نسق فريد غير مسبوق، فبعد مقدمة مستفيضة مملوءة رقة وعذوبة، أورد صوراً للمصائب التي تلحق بالإنسان وجعل أقسام تلك الصورة إما في النفس أو في المقتنيات العزيزة ولكل واحدة منهما صوراً إما أن تكون واقعة في الحال أو محتملة الوقوع، فإن وقعت فذَكَرَ الحال المتبع لتجاوزها وإن كانت احتمالية ذكر ما يلزم عمله لذلك، ثم إن وقعت فهي إما أن تكون مرجوة الزوال أم غير مرجوة، ثم أورد بعد كل صورة من الست حكايات وقصص لتكون أبلغ في التسلية وأعظم في المعاونة على تجاوز المحنة ثم يعقب ذلك بذكر حاله وما نزل به كخاتمة لكل صورة.

عملنا في الكتاب:

ولما كانت دار الفتح قد آلت على نفسها العمل على تحبيب القراءة في نفوس العامة أن تصدر المواد المتنوعة في موضوعاتها كان هذا الكتاب الذي اختير لكونه من الأدب الرفيع الهادف الذي يمس حياة كل إنسان ويتشوق الناس لقراءتها فآلينا أن نخرجه في حلة قشيبة وبذلنا جهدنا على أن ننفي ما فيه من الزلل والخطأ والإسهاب حتى نقرب الكتاب وتسهل قراءته على كافة فئات الناس، ولما كان

موضوع الكتاب يمس كل الناس فلا يخلو من لم تصبه مصيبة أو تلم به بلوى فكما أشرنا أردنا أن نبسط الكتاب ليكون مواساة للمكروبين وتسلية للمنكوبين فقمنا بضبط النصوص، بما يسهّل تناولها من قبل القارئ مع وضع عناوين جانبية تقرب المعاني وعزونا الآيات والأحاديث مع شرح لبعض الغرائب مع التعليق على بعض المواضع.

إلا أننا اقتصرنا على ما صحّ من الأحاديث، وضربنا الصفح عن ما ضعف منها وكذلك بعض الحكايات التي تخل بالجانب العقائدي مثل بعض الاستغاثات وبعض الرؤى والمنامات التي هي في الحقيقة مستند ضلال لبعض الطوائف والفرق وحذفنا ما يلحق بتلك القصص من تعليقات للمؤلف، واقتصرنا على ما لم يكن مكرراً منها والتي قام غيرها بأداء المعنى وتثبيت الغرض من السرد، وكذلك خاتمة كل صورة لما فيها من إطالة وسرد أحداث تفقد القارئ روح العبرة والتأثر.

وأعددنا ترجمة تعريفية مختصرة للمؤلف رحمه اللّه ليُعلم قدره ويثبت فضله.

هذا واللّه نسأل أن يقيل عثراتنا في الدنيا والآخرة، وأن يؤمّنا يوم الفزع الأكبر ونرجوه أن يرفع البلاء والشقاء وسوء القضاء عنا وعمن نزل بهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ومن بعد مصابهم عافية ومن بعد محنتهم منحة، ونبسط أكفّ الضراعة له أن يغفر لنا ولوالدينا وأهلينا وذرياتنا ولعلمائنا ومن له الحق علينا ويدخلنا وإياهم الجنة دون سابقة عذاب أو مناقشة حساب إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلى اللّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

كتبه راجي عفو ربه

أبو عماد السخاوي

ترجمة المؤلف

اسمه ومولده :

هو القاضي الفقيه الأديب الوزير أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسي الغرناطي الأندلسي المالكي المعروف بقاضي الجماعة.

ولد ما بين ٧٩٤ـ ٧٩٩ هـ في أسرة مرموقة كان لها دوراً بارزاً في إثراء الحياة العلمية والأدبية والسياسية في غرناطة في عصر بني الأحمر. فبنو عاصم علماء وسياسيون، حيث كان والده أبو بكر قاضياً للجماعة وكاتباً في الديوان السلطاني وكان عالما للفقه والأحكام واللغة والبلاغة وغيرها من الفنون وكذلك عمه أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم المعروف بالشهيد كان فقيها وخطيباً وكاتباً مجيداً، أخذ العلم عن أبي إسحق الشاطبي. فهو من بيت علم وفقه وقضاء وأدب وسياسة. نشأ في ذلك البيت وسلك نفس المسلك الذي سلكه أبوه.

ولد أبو يحيى في فترة اضطرابات هامة أعقبت فترة الاستقرار في الأندلس انتهت في النهاية بسقوطها في أيدي الأسبان وما لحق ذلك من فتن في النفوس وسقوط الملك والجاه، وضياع المال والغربة عن الأوطان، فكان هذا الكتاب تجربة مريرة للمؤلف فخرج مملوءاً حياةً وحيويةً وصدقاً.

شيوخه وتلامذته:

كثيرون: فمنهم أبي الحسن بن سمعة، وأبي القاسم بن سرّاج وأبي عبداللّه المنتوري، وأبي عبداللّه البياني وغيرهم أخذ من كلٍ ما برع في فنه.

أما تلامذته: فأشهرهم أبو عبداللّه بن محمد بن علي بن محمد بن الأزرق المالكي الأصبحي وأبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد السلمي الجعدالة وآخرون.

وفاته:

توفي ذبيحاً على يد السلطان سعد بن الأحمر في أواخر عام ٨٥٧هـ هو والسلطان محمد الأيسر وخواصه. رحم اللّه المؤلف راح ضحية التصاقه بالسلطان.

آثاره:

كان أبو يحيى ابن عاصم صاحب ثقافة واسعة متنوعة، فمع انشغاله بالوظائف السياسية والإدارية كان له مؤلفات عديدة في مواضيع شتى، وصل إلينا بعضها وضاع البعض الآخر فمنها:

١. جنة الرضا في التسليم لما قدر اللّه وقضى (كتابنا هذا)

٢. الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض

٣. شرح أرجوزة تحفة الأحكام لوالده أبي بكر محمد بن عاصم وغير ذلك من المؤلفات.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى اللّه على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

مقدمة المؤلّف

قال الشيخ الفقيه العالم قاضي الجماعة أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم رحمه اللّه تعالى:

الحمد لله الذي بقدره الحزن والفرح، والمساءة والسرور، وبيده البسط والقبض، والرفع والخفض، والغنى والفقر، والخلق والأمر، وإليه ترجع الأمور، وبقضائه المعافاة والابتلاء، والتنبيه والإملاء، والسراء والضراء، والسُّقم والإبراء، والعجز والكيْس، والخفاء والظهور، وبمشيئته الشقاء والسعادة، والبدء والإعادة، والعزة والذلة، والكثرة والقلّة، والحسنات والسيئات، والآثام والأجور، وعن علمه الإيمان والكفر، والعُرْف والنُّكر، والإقبال والإعراض، والتسليم والاعتراض، والإشفاق والعجب، والخشية والغرور، ومن موعوده النعيم والجحيم، والسلسبيل والحميم، والرَّوْح والسموم، والطلح والزّقوم، والأساور والأغلال، والأرائك والأنكال، والفوز والخسار، والحبور والثبور، الذي حكم بأن أجر الصبر موفى بغير حساب، ولن يستوجب ذلك إلا الصبور، واعلم أن المتبوئين لمثوى كرامته، والحالّين بدار مقامته، يقولون: ﴿**الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لغفورٌ شَكُور**﴾ [فاطر: ٣٤].

نحمده سبحانه، وبحمده تتم الطلبات، ولمجده تُرفع الرغبات، وبفضله تُستجلب الخيرات، وبعونه تُستدفع الشرور، ونشكره جل وعلا، وشكره عمل لا يضيع وأمل لا يخيب، وذخيرة لا تبيد، وتجارة لا تبور، ونستغيث به في كل

كرب ألمّ، وفي كل خطب أهمّ، فمنه الإعانة وبه الاستغاثة، وإليه النشور.

ونستوهب النجاة من موجب خطابه بقوله: ﴿**ولكنّكم فتنتم أنفسَكمْ وتربَّصْتُم وارْتَبْتُمْ وَغرّتْكُمُ الأمانيُّ حتى جاء أمرُ اللّه وغرَّكمْ باللّهِ الغرُور**﴾ [الحديد: ١٤].

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، نبي الشفاعة الماحية للذنوب، وقد ثقلت بها الظهور، وولي الهداية التي بها تَيَقُّنُ المؤمن، وتيمّن الموقن وتبيُّن الملحد، وتعيُّن الكفور. صلى اللّه عليه وعلى آله الذين هم في الجود غُيوث، وفي البأس ليوث، وفي الهداية شُهب، وفي الكمال بدور، ما أعقب الغدوَّ رواح، والمساء صباح، والغيم صحو والظلمة نور.

أما بعد، فإن في حوادث الأيام لأولي الأفهام، اعتباراً، وفي طوارق الليالي لأرباب الهمم العوالي، اختباراً، وفي مجاري الأقدار، للذوات الشريفة الأقدار استظهاراً، فتعالى مالك الملك، ومقدر النجاة والهُلْك، ومدبر الفَلَكِ ومسخر الفُلك، ومنور الظُّلَمِ المدلهمة من الليالي الحُلْك، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، هدى وأضلَّ، وأعزَّ وأذلَّ، وأضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وساء وسرَّ، ونفع وضرّ، وأحنث وأبر، وأحلى وأمرّ، ومنح ومنع، ووصل وقطع، وخفض ورفع، وفرّق وجمع، وأمرض وشفى، وعاقب وعفا، ووكل وكفى، وأفقر وأغنى، وأبعد وأدنى، وأراح وعنّى، وعذر وسنّى، وأخّر وقدم، وأوجد وأعدم، وأسعد وأشقى، وأذهب وأبقى، وخوّف ورجّى، وأهلك وأنجى، ﴿**لا يُسْألُ عمّا يفعلُ وهُمْ يُسألون**﴾ [الأنبياء: ٢٣] ألا ﴿**له الحُكمُ وإليهِ تُرْجَعُون**﴾ [القصص: ٨٨].

وإني وقفت بالحنكة والتجربة من استحالة أحوال الدنيا، وسرعة تقلُّبها

إلى الغاية القصيا، مما كان لي مَدْركاً علمياً، وحاصلاً حصولا حكمياً، على عجائب حتى ليس فيها عجائب، وغرائب تُستحلى بها أسمار وتُحدى نجائب[1]، شاهدت فيها أنواعاً من العِبر وعاينت بها أشباهاً من الآيات الكُبر، ووقفت منها على أنموذج من قيام الساعة، واعتبرت منها بمختلفٍ من عاقبة المعصية والطاعة، فقد كان في أحوال الوقت الراهنة عجب عجاب، وبرهان لا يَكتم نوره حجاب، وقياس اكتنف مقدماته الكلية سلب وإيجاب، بينما الوجود مستقر، وسير فلكه مستمر، ومعالمه في سكون ودعة، ومواسمه في نمو وسعة، وأهله في غفلة لاهون، وأربابه في غمرة ساهون، والأعمال مختلفة بين معصية وطاعة، وجدّ وإضاعة، وصحيح وفاسد، ونافق وكاسد، وحق وباطل، وحالٍ وعاطل، وصحيح ومعتل، وقويم ومختل، وكلٌّ ذلك قد اشتمل عليه الكتاب، واستقبل به الحساب، وإذا بالآيات ظاهرة الآيات، والحوادث الكبر آتية بالعبر، مِن سدٍّ صار دكّاً، ونبأ عظيم صحّ وكان شكّاً، وصوت لا يُسمع إلا همسه، وغدٍ قصُر عن حادثة أمسه، ويوم طلعت من المغرب شمسه، إلى أن قامت القيامة، ووقعت الحسرة والندامة، وفرّ المرء عمن فرّ، وقال ﴿**يقول الإنسان يومئذٍ أين المفرّ**﴾ [القيامة: ١٠]، وراع موقف السؤال والعرض، وعظم مقام المجازاة على هذا الفرْض، وحضر المطيع والعاصي، وحُشر الداني والقاصي، وأهمت كلَّ واحد منهم نفسه، واختلف على حسب سابقته حدسه، فمن سابقٍ قصده قد نجح، ووزنه بسواه قد رجح، فهو من تقريبه قد انتهى إلى سدرة المنتهى، ومن ذاهب من أهل الدثور بالدرجات العُلى، فاز

---

(١) أسمار: جمع سمر كشجر وأشجار وهو حديث الليل، وتُحدى: الحدو سوق الإبل والغناء لها، والنجائب: جمع نجيب وتجمع على نجب وهي الكريم من الإبل. وقال الأزهري: هو عِتاقها التي يُسابق عليها. والعتاق خير الإبل. مختار الصحاح (مادة سمر، حدو، نجب، عتق)

بخير الآخرة والأولى، فما على سبقه غشا، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، ومن مرضيٍّ عنه قيل له اعمل ما شئت فمسموح لك ما فيه قصَّرت، ومقبول منك ما به جئت، ومن ناج ولا عمل له إلا الشهادة[1]، وقد استوجب بها الحسنى والزيادة، ومن مطيع قد ظهرت عليه آثار طاعته فأوتي كتابه بيمينه لتعيين طاعته[2]، ومن مستظهر بالطاعة وقد نقصته شروطها، وأَعْوَزَهُ مشروطها، فنال دون ما أمّله، وقيل لا أمّ له، ومن عاصٍ قد غُفرت ذنوبه، وظهرت لعين الرضا عيوبه، ومن مُخَلّطٍ ركن إلى مقبول التوبة[3]، وفاز من قصده بمحمود الأوبة، ومن موبق استنقذته الشفاعة من زلله، وأبرأته العناية اللاحقة من علله، ومن أخسر في عمله، أهوج في أمله، قد ضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، وفالٍّ[4] رأيه وهو يظن أنه يجلب نفعاً، ومن منافق قد خانه رياؤه، وفُقد بالغش حياؤه، فطاح بالفضيحة عمله، وأخفق في سِجّين أمله، ومن مجرم لم يقبل منه يومئذ فداء ولو كان ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن واقف بين الخوف والرجاء، منتظر لما يجري به فصل القضاء، قد تساوت حسناته وسيئاته، ووَقَتْهُ قُرباته وأحاطت به خطيئاته، فهو كأهل الأعراف لهم في دخول الجنة طمع، وإذا صُرفت أبصارُهم تلقاء أصحاب النار فلهم من جعلهم مع الظالمين جزع.

---

(١) إشارة إلى حديث البطاقة الذي رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وأخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجة (٤٣٠٠) وأحمد ٢/٢١٣

(٢) وهذه من جملة البشارات المؤمن والتي بدأت عند الموت برؤية بشارة الملائكة كما في حديث البراء بن عازب ثم إلهامه وتثبيته عند سؤال الملكين ثم غيرها يأتي تترا.

(٣) كما في الآية: ١٠٢ من سورة التوبة: ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يعفو عليهم إن الله غفور رحيم** ﴾.

(٤) فالّ: من تفلّلت مضارب السيف أي تكسرت، وفل الجيش أي هزمه، والمعنى: أي خاب رأيه.

ولو تتبعنا التمثيل لطال، وسئم منتظر وعدنا المطال، وحسبك ما أوردنا من نبذة كافية، وآية للمستبصرين هادية، و لله قول أبي العتاهية:

ما اختلف الليل والنهار ولا دارت نجوم السماء في الفَلَكِ
إلا لنقْل السلطان عن مَلِكٍ قد انقضى مُلكه إلى ملكِ

إنما قررت من هذا التمثيل ما قررت، وحررت فيه من العبارة ما حررت، ليكون لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري، ووثق بما حققت له من اختياري تذكرة، ومن غفلة هذه النفوس الأمارة بالسوء تبصرة، ولأدرك علي في أخذ هذا التمثيل مأخذ العبرة والعظة، والتنبيه به للقلوب المستيقنة والنفوس المستيقظة، فقد نقل عن الربيع بن خُثيم أنه مرّ بأتون حداد فغشي عليه، فلما أفاق سُئل عن ذلك فذكر أنه تذكر بذلك الأتون جهنم ، وقال الحكيم بن نوح لبعض إخوانه: اتكأ مالك بن دينار ليلة من أول الليل إلى آخره لم يسجد فيها سجدة و لم يركع فيها ركعة ونحن معه في البحر، فلما أصبحنا قلت له: يا مالك! لقد طالت ليلتك لا مصليّاً ولا داعياً، قال: فبكى، ثم قال: «لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غداً ما لذّوا بعيش أبداً، إني والله لما رأيت الليل وهوله وشدة سواده ذكرت به الموقف وشدة الأمر هنالك، وكل امرئ يومئذ تهمُّه نفسه لا يُغني والد عن ولد ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً». ثم شهق شهقة فلم يزل يضطرب ما شاء الله ثم هدأ، فحمل عليّ أصحابنا في المركب، وقالوا: أنت تعلم أنه لا يحمل الذكر فلم تهيجه؟ قال: فكنت بعد ذلك لا أكاد أذكر له شيئاً.

هذا المثال الذي اتضحت به منافع الاعتبار، وإتباعه بهذه الحكايات التي سُقتها في مساق الاعتذار، والمثال لا يقوى قوة ما مُثل به، ولا يفي بمقصد

البيان الواضح ومطلبه، لأن القياس في هذا المعنى لا يصح والحقيقة لا تُدرك، وإن أفرط في الإلحاح على إدراكها المُلِحُّ، ولكنّ المثل قد يؤخذ مأخذ التقريب للفهم، أو التنبيه من الوقوف على شبه الوهم، وإلا فما نسبة الخوف والرجاء من الكبير المتعالي، من الخوف والرجاء من مخلوق لا يملك لنفسه ـ فضلاً عن غيره ـ ضرّاً ولا نفعاً، ولا يستطيع لمسرتها ولا لمضرتها جلباً ولا دفعاً، ولا يدّعي في أرزاقها وآجالها بحسب إبطائها وإعجالها وضعاً ولا رفعاً، إنما هو ربٌّ مربوب، وطالب مطلوب، وحكم محكوم عليه، وملك مملوك لما لديه، استخلفه اللّه على خلقه، وقسم على يديه ما سنّى من رزقه، وأمره أن يقوم فيما أسند إليه من الأمور بحقه، وجعله ظلاً يأوي إليه كل مظلوم، وقسطاساً يقع به العدل بين كل خصيم ومخصوم، وقضى بأن الخلق مفتقرون إليه، وهو مفتقر إليهم، وملتمسون ما لديه، وهو ملتمس ما لديهم، ولهم النظر في شؤونهم عليه وله النصيحة عليهم.

شهد ذلك كله بأن لا غنى للناس عنه ولا غنى له عنهم، وأن لا بد لهم منه ولا بد له منهم، حتى يتبين أن الخلق كلهم من ملك وسوقة، وراع ورعية؛ فقراء على الإطلاق، ومُمْلقون إلى اللّه كلُّ نَفَسٍ نفْس بأتم وجوه الإملاق، وأن الغنى الذي لا ينفد على الإنفاق، ولا يخشى قاصد بابه من الإخفاق، إنما هو غنى الواحد الخلاق، الوهاب الرزاق، وبذلك يظهر معنى قوله: ﴿**يا أيها الناسُ أنتمُ الفقراءُ إلى اللّه واللّه هو الغني الحميد**﴾ [فاطر: ١٥].

وإذا كان ذلك كذلك فإنما السلطان مُظهر لحكم اللّه في الوجود، وسبب يناط به ما قدّر اللّه من رزق أو منحَ من جود، إلى سوى هذا من أحكام، دائرة بين نقض وإبرام، هو فيها بحسب إرادة اللّه مصرِّف، والملائم

والمنافر بحسب تلك الإرادة السابقة منه متعرَّف، فإذا أعطى اللّه على يديه، أو سوغ الفضل مما لديه، أو دفع محذوراً بجهاده، أو نفع مظلوماً باجتهاده، فلله الحمد واصباً، ومنه المنة دائباً.

وإذا ابتلى اللّه عبده برزق مقدور عليه، أو ضر على يدي من شاء من خلقه باكتساب يديه، فلا يؤمِّل في توسعة رزقه إلا رحماه، ولا يسأل في صرف ما آذاه من خلقه إلا إياه، وليتذكر قوله تعالى: ﴿**وإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضُرٍ فلا كاشفَ لهُ إلا هُو**﴾ [الأنعام: ١٧] وقوله ﷺ: «**ولو أنَّ الخلْق اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه اللّه لك لم يقدروا عليه**».[1]

ولو أنصفنا من نفوسنا، وقايسنا بين رتبة رئيسنا ومرؤوسنا، واعتمدنا الأمر الوارد في عين القضية، وهو: كما تكونون يولّى عليكم. وعلمنا أن السيرة التي نحمدها منهم إنما هي من فضل اللّه علينا، وأن الشيمة التي نذمُّها منهم فإنما هي ما اجترحنا من الآثام وجنينا، فالحق فيها أن نستغفر اللّه ونتوب إليه فيصلح لنا سيرتهم، ونسترشد اللّه لبصائرنا وسيرشد اللّه بصيرتهم.

ثم إذا نظرنا جاري عادة اللّه في خلقه، فالزمان في إدبار، والخير في انتقاص، والشر في ازدياد، والصلاح في اضمحلال، ومَن طالع سير الملوك وتأمل سالف التواريخ فنادرٌ من الاتفاق، أو مفقود على الإطلاق، وهو كون المسيرة ممن سلف جارية على مقتضى الكمال المفروض في الذهن أو ما يقرب منه، ومن ذا الذي يُعطى الكمال فيكمل؟.

ويشهد لاستبعاد وقوع ذلك ما حُكي عن الطبري لما بويع ابن المعتز

---

(١) أخرج معناه الترمذي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه (٢٥١٦) وأحمد ٢٩٣/١.

قيل له: قد بويع عبد اللّه بن المعتز وترشّح محمد بن داود بـن الجـراح للـوزارة، وذكر للقضاء أبو الحسن ابن المديني. فـأطرق قليـلاً ثـم قـال: هـذا لا يتـم ولا ينتظم. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: كل واحد من هؤلاء الذين ذكروا متقدِّم في معناه على الرتبة في أبناء جنسه، والزمان مُدْبر والدنيا مولِّية، وما أرى هـذا إلا إلى اضمحلال وانتقاص ولا يكون لمدته طول. فكـان الأمـر كمـا قـال ولم يلبث عبد اللّه بعد أن بويع غير يوم واحد حتى تفرق الناس عنه. وانتُهبـت دار العباس بن الحسن ودار محمد بن داود وظهر مصداق فراسة الطبري.

وعليَّ ما للمُحبِّ من أحسن الاعتقاد، والبراءة من الانتقـاد، فلـن أبـرئ نفسي من المذام، ولم أحفل بمدح المادح ولا بذم الذام، وإني لأعلم من شـغف بالي، والفكرة فيما رُزئت من مالي، وأعتقد ممـن حالـه مثـل حـالي، وآمالـه في المال والبنين مثل آمالي، مـا إن ذهـل عـن معاناتـه، وغفـل في مداراتـه، ذهـب بصاحبه الفكر مذاهب غير مرضيـة، واسـتجرَّه إلى نظـر غـير المتثبـت في أمـور مقضية، وحمله على استدامة الأسف في كل قضية قضية، وأنساه أن حكم اللّـه ماض، وأن المؤمن بما حكم به مولاه راض، وأن جميـع مـا في الـدار فإنمـا هـي جواهر وأعراض، وهي لأسـهم الفنـاء علـى الآنـاء أغـراض، فزوالهـا وشـيك، وعقل مقتنيها ركيك، والتماسها يتشظّى وينشعب، وحقيقتها التي أخـبر عنهـا الكتاب العزيز لهو ولعب.

فلو اتصف حاكم العقل بوصف الحكـم الجـزل، وأخـذ في الأمـر بـالجد وبرئ من الهزل، وقبل شاهد العلم وهـو العـدل الرضـا، واسـتقل عنـده رسـم التفويض لما قدر اللّه وقضى، لسجل بأن ما أصابنـا مـن مصيبـة فبمـا كسـبت أيدينا، ولحكم بأن استكثارنا من هذا العرض الأدنى هو الذي يضرنا ويُردينـا،

وأن استمساكنا بالتسليم، لحكم العزيز الحكيم هو الذي يرشدنا إلى الصواب ويهدينا، وأن رضانا بما جرت به أقداره هو الذي يمكّن لنا السعادة المأمولة دنيا ودينا.

ثم وقفنا من سعة رحمة مولانا فيما أولانا من أنه يعفو عن كثير، ومفهومه أن المؤاخذة إن وقعت فباليسير، على ما لا يُستطاع لشكره وفاء، وليس لنعمته خفاء، ويتحقق به أن حقوق العقوبة الواجبة علينا لم يقع لها استيفاء، كما أن الرحمة الواسعة قد حصل منها لقصد الرجاء إيفاء.

اللهم كما صرفت عنا العقوبة التي كنا لها مستحقين، وفي دعوى البراءة منها غير محقّين، فالطف بنا في مجاري أقدارك، واجعلنا ممن وفقّته إلى الهداية بأنوارك، وارزقنا التفويض لما قدرت وقضيت، والتسليم فيما حكمت وأمضيت، بحولك وكرمك.

وإن مما يأتي به الليل والنهار من رفعة وضعة، وضيقة وسعة، لآيات بيِّنات، وفروضاً من الاعتبار على الفكر متعيِّنات، وبراهين لا يستطيع أن يجحدها الجاحد، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

فسبحان الذي جعل من الأيام بين الأنام دُوَلاً، و﴿**خلق الموت والحياة ليبْلُوَكم أيُّكم أحسن عملاً**﴾ [الملك: ٢]، وقدّر مقاسم الأرزاق والآجال، وباين بين تصاريف الأقوال والأفعال، وقضى بانتقال هذه الدار من حال إلى حال، باختلاف تضاداتها من حِلٍّ وترحال، وجائز ومُحال، وحركة وسكون، ونفور وركون، وحزن وفرح، وسرور وترح، ورخاء وأزْل، وولاية وعزْل، وصحة وسُقم، ونعَمٍ ونِقَمٍ، وإدراك وفوْت، وحياة ومَوْت.

والدليل على اطراد هذا القياس قوله تعالى ﴿وتلك الأيام نُداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠] . رحم اللّه الخضر بن أبي العافية حيث يقول من مقطوعة له:

إنْ أراك الزمانُ وجهاً عبوساً ... سوف تلقاه بعد ذلك طلقا
لا يهمّنك حاله إنَّ في طرْ ... فة عينٍ يرتاح فيه ويشقى
أيَّ عِزٍّ رأيت أو أيَّ ذُلٍّ ... بذوي الحالتين في الدهر يبقى
سلْ نجوم السما إذا ما استنارتْ ... ما الذي في وقت الظهيرة تلقى
وتفكَّرْ وقُلْ بغير ارتياب: ... كل شيء يفنى وربُّك يبقى

وللنفوس التي تقيم الشُّبَه مقام الأدلة، وتعتبر بالخيالات المضمحلة، راحة بمثل قول شمس المعالي:

قلْ للذي بصروف الدهر عيّرنا ... هل عاند الدهرُ إلا من له خطرُ
أما ترى البحر تطفو فوقه جيفٌ ... وتستقرُّ بأقصى قعرهِ الدُّررُ
وفي السماء نجوم ما لها عدد ... وليس يُكسفُ إلا الشمس والقمر

لما كانت هذه الدار، لا تفارقها الأكدار، ممتزجة الأضداد هذا الامتزاج، ومزدوجة النقائص على حسب ما قُرر من الازدواج، فالغيث لا يخلو من العيث، والعجلة متعقبة بالريث[1] ، والخير ملزوم للعكس، والسعد متلوّ بالنحس، وكانت الحنيفية السمحة قد حدت لكل مقام من هذه المقامات، على اختلافها وتباعد ما بين أطرافها، ضروباً من التعبدات تليق بكل مكلف حلّ في مقامٍ منها وتناسبه، وتنمو بحسب امتثالها من سعادة الدارين مكاسبه، وأرشدت في استدامة ما لاءم منها النفوس وغمر الرَّبْع المأنوس إلى أعمال هي

---

(١) الريث: الإبطاء.

سلك لفرائدها وصوان لفوائدها، وقيد لشواردها، وعلاوة على حفظ وصف الصفاء لمواردها.

كما أشارت أيضاً في استدفاع ما أشعر منها البوس، وجلا الوجه العبوس، إلى تراكيب أدوية مضمونة الأشفية تُستقبلُ بها أمراضها، وتُصلح بها أغراضها، وتخفّفُ بها آلامها، وتتلقّى بجُنتها الواقية سهامها، وهذا القسم الأول[1] من هذين القسمين يشبه من الصناعة الطبية: القسم الأول المسمى بحفظ الصحة، والقسم الثاني[2] منها يشبه القسم الثاني من تلك الصناعة المسمى ببُرء المرض، شبهاً صحيح الاطراد، وافياً من تقريبه في التمثيل المراد.

وكان هذا القسم الثاني في الصناعة المذكورة هو المطروق لمؤلفيها، والمنطوق فيه بحسب كل علة علة ما يتمم مقاصد مداويها ويستوفيها. وكان هذا القسم المشبه به ـ من الأحوال الواردة على الناس من موارد الأقدار على غير إرادتهم، وبحسب الإخراج لهم عن مألوف أحوالهم ومعتاد عادتهم أهمّ ما دعت الضرورة إلى النظر في علاجه، والإرشاد إلى ما يصلحه، بمقتضى طبع الوقت ومزاجه.

وكان هذا القسم من الابتلاء الواقع في هذه الدار والتمحيص الوارد في ضمن الأقدار، ولا يعدو أحد وجهين:

الوجه الأول: أن يكون وارداً على الإنسان في نفسه من ألم ألمّ، أو نكد أهمّ، أو فقد سمع أو بصر، أو نقص قوة من قوى البشر، أو على ما يحل محل نفسه من أبناء جنسه، كفقد حبيب إليه، أو سكن عزيز عليه، أو حميم أثير

---

(١) يقصد بالقسم الأول: الأعمال التي أرشد إليها الشرع لحفظ النعم واستدامتها.

(٢) ويقصد بالقسم الثاني: الأعمال التي أرشد إليها الشرع أيضاً عند المصائب والمحن.

لديه، وعلى الجملة فنقص في أصل أو ولد أو مكين من خَلَد.

الوجه الثاني: أن يكون وارداً على الإنسان خارجاً عنه فيما يكون له أو منه، كتعذر رزق أو تخلّف قصد أو سلب نعمة، أو نقص حرمة، أو جائحة اجتاحت له مالاً، أو نكبة سلبت جاهاً وغيّرت حالاً.

ولا يخفى ما يحق في كل قسم من الجزئيات التي لا تُعد، ولا يكاد يحصرها الحد. وفيما وقع موقع التمثيل ما يغني عن التفصيل، لأولي التحصيل.

وكلا القسمين موجب حزناً وأسفاً، ومقتضٍ وجْداً وتلفاً، ومُستدْعٍ ـ إن لم يتلافَ البرُّ الرحيمُ ـ فقداً أو تلفاً، ومظنة لأن يحسن الله منها عوضاً وخلفاً. وشرط ذلك أن يتأدب بآداب الشريعة، ويستدفع الاسترسال مع مقتضى الطبع البشري سدّاً للذريعة، ويتحيل في صرف الأسف والحزن عن القلب وإن استدعاهما داعي الجبلّة وداعي الطبيعة. فما تركت السمحة ـ على شارعها الصلاة والسلام ـ خيراً عاجلاً ولا آجلاً إلا وقد أوضحت السبيل إلى اجتلابه، ولا أبقت شراً عارضاً للمكلف في دينه أو دنياه إلا وقد أرشدت بأتم الإرشاد إلى اجتنابه، حكمة من الله بالغة، ونعمة على عباده سابغة، وتقف العقول وإن رجحت، والألباب وإن بهرت مداركها النافذة ووضحت، حسيرة دون مداها، وضالة إن لم تستنر بنورها وهداها. فلو اجتهد المجتهدون، وشمّر عن ساعد جده المجدون، وقد أطلقوا من ألسنة بيانهم عقالاً، وأحرزوا من البلاغة مقاماً سامياً ومقالاً، لما بلغوا من حمد الله على هذه النعمة الكبرى والموهبة العظمى مبلغاً يغني، ولوقفوا موقف العجز عن الدرجة التي تطمح إليها بغية المتمني.

وإني استخرت الله تعالى في الكلام على ذلك القسم الذي سبق في

التمثيل أنه شبيه ببرء المرض، وتلخيص ذلك القصد المهم الآن لدي من هذا الغرض، والإبانة عما يتعلق بذلك كله من الزهد والتوكل، والقناعة والتجمل، والصبر والتحمل، والاعتماد على اللّه في طلب الرزق مع الإجمال فيه، والتزام الأدب في ارتكاب السبب، على الوجه الذي يستكمل منه القصد ويستوفيه، والإلمام بالدعوات المنزلة من تلك الأعراض، منزلة الأدوية من الأمراض، حسبما سبقت في صدر هذا المجموع الإشارة إليه، ووقف الاختبار مما صح نقلاً واعتماداً عليه، والتوشيح لذلك كله بأبيات شعرية وفصول نثرية حسنة الموقع فيما يُتخيّر لها من الموضع، والاستظهار على ذلك بالحكايات ممن وقع له من الناس قديماً أو حادثاً مثل ذلك الابتلاء، وما لله تعالى في جبر أحوالهم وتبليغ آمالهم من المواهب والآلاء، والاستطراد إلى ما يتعلق بذلك كله من وفاء صديق عُدّ وفاؤه من أتمّ الألطاف الخفية، ومن أدلّ الدليل على شرف الأنفس الوفية، أو ظهور خلاف ذلك من ثانٍ منح اللّه التجربة علاوة على تحقيق ما أكن، وإبداء ما أضمر وأجن، والإلمام بما ورد من الوصايا بعدم مطاوعة مقتضى الأحزان، والإشارة إلى ما يُلتمس من ذلك من نصوص السنة والقرآن، حتى يكون بحول اللّه كتاباً ممتعاً، وتأليفاً مقنعاً، أرودُ منه ـ أنا ومن يكون في مثل حالي الوقتية ـ روضاً يجتني منه ثمراً، ويقتطف منه زهراً، ويسرح منه ناظره في حدائق ذات بهجة، ويثني منه على حسن طوية وصدق لهجة، يرشده للصبر على مضض الحوادث، والرضا بما يأتي به القضاء من الخطوب الكوارث، والتفويض لله في مواقع أقداره، والتسليم له في إيراد كل أمر وإصداره.

وسميته بـ «**جنة الرضا في التسليم لما قدّر اللّه وقضى**».

ومن اللّه أسأل أن يجعل فيه السعي خالصاً لوجهه الكريم، مزلفاً لديه في جنات النعيم.

وهو وإن جمعته بالقصد الأول على أن يكون لي من الغفلة عن الآداب الشرعية مانعاً، ومن الاسترسال في ميدان الأسى والأسف وازعاً، فإني بالقصد الثاني أرجو أن ينفعني الله بدعوة صالحة من واقفٍ عليه يكون بيني وبينه قدر مشترك، ويكون بين صبره وحوادث الأيام والليالي معترك، فيلفي فيه الجُنّة محكمة السرد، وافية من الوقاية بالقصد، ويجد الأدوية لألمه مضمونة الشفا، مشهورة الأعيان عن الخفا. فلا يبخل علي بما استهديته من صالح دعائه بنية صادقة من إهدائه، وجعلنا اللّه من الراضين بقضائه، المحافظين من التفويض والتسليم على قصد إرضائه.

وصلّى اللّه على محمد خاتم أنبيائه، وعلى آل محمد وأصحابه وأوليائه وأحبائه، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم لقائه.

ولعل بعض من يقف على هذه الجملة، ويطالع ما بهذه الخطبة، يستقصر ما يأتي به المعاصر، ويرى أن وصف التقدم للأفضلية حاصر، وأن الجديد ما كان ليس بأهل للاقتناء، ولا المعاني له بمحل للثناء، فقد أحسن ابن شرف الجواب عن ذلك بقوله:

قُل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويرى للأوائل التقْديما

إن ذاك القديم كان جديداً ... وسيغدو هذا الجديد قديما

وهذا أوان البداية، ولله الرغبة في التوفيق والهداية.

أنواع الابتلاءات

****

إن هذه الابتلاءات المعهودة في هذه الدار لا يخلو أن تكون: متوقعة في الاستقبال أو واقعة في الحال. وأياً ما كانت فلا يخلو أن تكون: في المقتنيات العزيزة على النفوس، كالمال والجاه وما أشبه ذلك. أو في النفوس وما لحق بها من أعضاء وقُوى، كما أشار إلى ذلك زيادة بن زياد في قوله:

هل الدهر والأيام إلا كما ترى   رزية مالٍ أو فراق حبيب

ثم لا يخلو الواقع من ذلك في الأموال وما شابهها، أو في النفوس وما شاكلها: أن يكون مأمول الجبر مرجو الارتفاع. أو غير مأمول الجبر ولا مرجو الارتفاع. فهو ست صور:

الصورة الأولى: أن يكون الابتلاء **في المقتنيات** العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعاً في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

الصورة الثانية: أن يكون الابتلاء فيها واقع في الحال وهو مأمول الجبر ومرجو الزوال.

الصورة الثالثة: أن يكون الابتلاء فيها واقعاً في الحال إلا أنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال.

الصورة الرابعة: أن يكون الابتلاء **في النفوس** أو ما لحق بها من أعضاء وقُوى متوقعاً في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

الصورة الخامسة: أن يكون الابتلاء فيها في الحال وهو مع ذلك مرجو الزوال.

الصورة السادسة: أن يكون الابتلاء فيها واقعاً في الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال.

وتحت هذه الصور من الابتلاءات والتمحيصات والاختبارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والأسف والوجد، والتعب والكرب والقلق، والهم والنكد، وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يُذهل العقل ويشغل الفكر ويعمر القلب، ويُتعب النفس، ويضيق الصدر، ويُذهب النوم، ويطرد الأنس.

ويتفاوت أثره بحسب مؤثره في اللين والشدة، والثقل والخفة، والكثرة والقلة، وبحسب الملاقي له والوارد عليه، وقوة الجأش وضعفه، ومضاء العزيمة ووهنها، استشعاراً للصبر وعدمه واستحضار الأوامر الشرعية في مثل حالته والغيبة عنها والاعتبار بقول القائل:

عجباً للزمان في حالتيه ... ولأمرٍ دُفعتُ منه إليه
رُبَّ يوم بكيتُ فيه فلمّا ... صرت في غيره بكيتُ عليه

لاستحالة الأحوال، وتعاقبِ مبتغي الأهواء ومتقي الأهوال، فالزمان بذلك عُرف، وبهذا المعنى وُصف، واللّه في قوله أصدق، والقلب بوعده أوثق: ﴿**فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً**﴾ [الشرح:٥-٦] وقد صدق محمد بن عبد الملك في قوله:

هي السبيل فمن قوم إلى قوم ... كأنها ما تريك العين في النوم
لا تجزعنَّ رويداً إنها دول ... دنيا تُنقلُ من قوم إلى قوم

ولنقدم هنا مقدمة لائقة بالموضوع في غرض التداوي جملياً كالشأن في معاني علم الطب.

إذا نظر الطبيب في المرض وهو لم يتعيّن بعد أو تعيّن وأراد أن يستعمل له دواءً خاصاً به، فإنه يُلْزِم العليل قبل ذلك صورةً من الاحتماء يُسميها مقدمة، فنقول:

إن هذه النعم المبثوثة في هذه الدار من صحة الجسم، ورخاء العيش، وصلاح الحال، وحفظ المال، وهناء الوقت، وسعادة الجدّ، واستقامة الجاه، واستمرار الولاية، واستدامة العناية، وتأتّي الأرب، وتسنّي الآمال، واستدرار الرزق، واجتماع الشمل، والسلامة من الآفات، والحفظ من الابتلاءات، لها من حيث الاستجلاب والاستدامة، والاستكثار والاستزادة، أسباب حافظة مثل:

الشكر لقوله تعالى: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تاج الدين في حكمه: (من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها).

وما أطبع الصابي في قوله: «موقع الشكر من النعم موقع القِرى من الضيف إن وجده لم يدِمْ وإن فقده لم يُقم»، والمكيالي في قوله: «النعمة عروس مهرها الشكر، وثوب صوانه النشر» .

ولاستغراق الزمان في معنى شكر الله قال الشاعر :

إذا كان شكري نعمة اللّه نعمة من اللّه في أمثالها وجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله   وإن طالت الأيام واتصل العمر

وصواب ما قال الشاعر، فإن اللّه عز وجل يقول: ﴿**وإن تعُدُّوا نعمة اللّه لا تحصوها**﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨]. فإذا كانت نعمة اللّه إن عُدت لا تُحصى فشكره الذي إن فرض أنه يكافئها إنما يكون شكراً لا يُحصى إذا عُدّ. وكل شكر يجتهد نحن فيه فإنما هو شكر معدود يُحصى، فكيف يقابل ما لا يُحصى بما يُعدّ ويحصى ؟! ولولا أن اللّه تعالى ذكر في كتابه العزيز من أثبت له وصف الشكور فضلاً منه ونعمة كقوله في نوح الْتَلِيْكَلاَ : ﴿**إنه كان عبداً شكوراً**﴾ [الإسراء: ٣]، وقوله ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣] لكان لمدّعي عجز الإنسان عن القيام بشكر اللّه مقال.

ومقام النبي ﷺ في قوله: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» حين قام حتى تورّمتْ قدماه[١] بما منحه اللّه تعالى من خصائص غيره من الأنبياء.

كذلك ما أشبه الشكر من الأوامر التي هي خاصّة بالقسم الأوّل - الذي مُثّل بحفظ الصحة من صناعة الطب - **كالإيمان والتقوى**: قال اللّه تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال اللّه تعالى: ﴿**ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقَوا لكفَّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلْنَاهم جناتِ النعيم ۞ ولو أنَّهم أقاموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزل إليهم من ربِّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾ [سورة المائدة: ٦٥ - ٦٦]. وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان لأهل القرى ولأهل الكتاب أنه إن حصل منهم إقامة التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم فإن اللّه يسوغ لهم الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وهذا عبارة عن تهيئة الرزق

---

(١) البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨٢٠) عن عائشة رضي اللّه عنها.

بلا كلفة. وهذا نص القرآن فنحن في هذا المعنى مثلهم. وكالتوكل على اللّه حق التوكل: فإن اللّه يُسنّي الرزق بلا كلفة حسبما اقتضاه قوله ﷺ : «**لو توكّلتم على اللّه حق توكله لرزِقتم كما تُرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»(١)

وكالصلاة الكفيلة بسعة الرزق في نظر كثير من العلماء، وقد يُتلمح ذلك من قوله تعالى: ﴿**وأمُرْ أهلك بالصلاة واصْطَبرْ عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى**﴾ [طه: ١٣٢]. والعاقبة أيضاً من ثمرات التقوى بنص هذه الآية الكريمة.

وقد لا تخلو الأعمال الصالحة من ثمرات عاجلة في الدنيا لا ينبغي الالتفات إليها مع الآجلة المؤملة الفائدة في الآخرة، وإلى ما سبق من حصول الفوائد عن الأعمال الصالحة مع دفع المكروه وجلب المحبوب يشير قول الشيخ أبي مدين: الحق مطّلع على الضمائر والسرائر فأيما قلب رآه مؤثراً له كفاه طوارق المحن ومضلات الفتن. انتهى، فقد جعل إيثار اللّه تعالى موجباً لدفع هذين المخوفين.

وكالأذكار المخصوصة باستثمار فوائد مخصوصة، كما روي أن رجلاً جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه! ماذا لقيتُ من عقرب لدغتني البارحة! فقال: «**أما إنك لو قلتَ حين أمسيت: أعوذ بكلمات اللّه التامّات من شرِّ ما خلق. لم يضرك**»(٢) . وفي سنن أبي داود والترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ : «**ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة:**

---

(١) **صحيح**. أخرجه الترمذي (٢٣٤٥) وابن ماجه (٤١٤٦) صححه الألباني (صحيح الترمذي ١٩١١) عن عمر رضي اللّه عنه .

(٢) مسلم (٢٧٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

باسم اللّه الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم يضرّه شيء»[1] هذا لفظ الترمذي. وفي رواية أبي داود: **«لم يصبه فجأة بلاء»**.

وكالصدقة التي تدفع ميتة السوء[2]، وكصلة الرحم الموعود بها من الإنماء في العمر[3] ما اختُلف في محمله[4]، وهذا إن تعرضنا لطرف منه فبالعرض.

وهذه القُرَب والأذكار الواردة فيها من الشرع استنتاج مصالح دينية أو دنيوية أو مجموعها هي مشروطة بإقامتها على الوجه الذي أمر به النبي ﷺ، وفهمه عنه العلماء من الإخلاص في العمل، والصدق في التوجه إلى سائر ما يختص بكل حقيقة من تلك العبادات، إما مع اطّراح القصد إلى تحصيل ما وعد به من تلك الفائدة المستثمرة من ذلك العمل دينية كانت أو دنيوية، وهذا هو

---

(١) **صحيح**. أخرجه أبو داود (٥٠٨٨) والترمذي (٣٣٨٨) وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٤٢٤٢) وفي تتمة الحديث هذا عبرة يرويها أحد الرواة أنه: "أصاب أبان - وهو ابن عثمان - الفالج فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه فقال له: مالك تنظر إليّ؟ فواللّه ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان= =على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت فنسيت أن أقولها" قال سليم الهلالي في صحيح الأذكار وضعيفه (٢٢٦/١): وفي ذلك عبر منها:

١ - الغضب آفة تحول بين المرء وعقله. ٢- إذا أراد اللّه إنفاذ قدره صرف العبد عما يحول بينه وبين ذلك.

٣ - الدعاء يرد القضاء. ٤- شدة حرص رواة الحديث في التحمل والأداء.

٥- قوة يقين السلف الأول على اللّه، وتصديقهم الجازم بما أخبر به رسول اللّه ﷺ.

(٢) وردت أحاديث ضعيفة بهذا اللفظ (ضعيف الجامع الصغير ٣٥٤٣ وما بعده) إلا أنه صح عن النبي ﷺ قوله: **«صنائع المعروف تقي مصارع السوء»** (صحيح الجامع ٣٧٩٧).

(٣) هذا من معنى حديث أنس ﷺ مرفوعاً: **«من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»** أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧) وغيرهما.

(٤) تكلم العلماء بكلام نفيس في معنى زيادة العمر المترتبة على صلة الرحم انظره في فتح الباري ٤/ ٣٥٣ وشرح النووي على صحيح مسلم ٣٥٦/٨.

أعلى المقامات، وإما مع القصد التبعي إلى ما منح اللّه من نعمه التي لا تحصى بالعدّ من أخروية كالجنة وغيرها كالمزيد [١] ونحوه، وهذا هو اللائق بحالنا والمناسب لمقامنا، ولا يغفل القائم بذلك عن شروطه من الإخلاص وغيره [٢]، لئلا يكون ممن يعبد اللّه على حرف كالذي سمع أن من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت الحكمة من قلبه على لسانه [٣]، فأخلص بزعمه تلك المدة رجاء أن تظهر الحكمة كما وُعد فلم تظهر، فاستراب من ذلك. وسأل عنه فأجاب المسؤول بأنه إنما أخلص للحكمة لا لله.

أسباب زوال النعم وحلول الابتلاء

ولتعذُّرِ النعم وزوالها وتنكر أحوالها، أسباب ماحقة من **الذنوب**، تشبه الأمراض الداخلة على الأجسام الصحيحة، ويشهد لهذه الدعوى على الإجمال أيضاً قوله تعالى: ﴿**ذلك بأن اللّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾ [الأنفال: ٥٣] فقد شهد لنا بأن التغيير الوارد من اللّه على قوم لا يكون إلا جزاءً وفاقاً لتغييرهم ما بأنفسهم. وقوله تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ [الشورى: ٣٠] وقوله ﷺ: « إنه

---

(١) وهو رؤية اللّه تبارك وتعالى في الجنة للمؤمنين كما جاء بذلك في الأحاديث الصحيحة ومنها حديث صهيب بن سنان ﷺ وفيه قول اللّه تعالى لأهل الجنة: «**تريدون شيئاً أزيدكم**» فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أفضل من النظر إلى وجه اللّه ﷻ أخرجه مسلم (٢٦٦) والترمذي (٢٤٧٥) وابن ماجه (١٨٣) وغيرهم. ثم تلا ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ [يونس: ٢٦].

(٢) أي شروط قبول العمل كما قال القاضي عياض: الإخلاص والمتابعة. والإخلاص هو قصد التقرب بالعمل لله سبحانه والمتابعة موافقة ذلك لسنة النبي ﷺ وهما معنى الشهادتين حيث أن لا إله إلا اللّه تعني توحيد اللّه بالعبادة وهي كل أمر المسلم وأن محمداً رسول اللّه هو توحيد النبي بالمتابعة فلا يكون العمل صواباً إلا إذا كان خالصاً صحيحاً موافقاً للسنة.

(٣) لعلها قول أحد المتصوفة وهذه من الأمور الغيبية التي تحتاج إلى دليل من السنة.

لن ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولن يُكشف إلا بتوبة»[1]. فقد شهدت أيضاً هذه الآية الكريمة والحديث النبوي بمعنى واحد، وهو أن إصابة العبد بما أصيب من مصيبة وبلاء فإنما ذلك بما كسبت الأيدي وهي الذنوب.

وأفادت الآية الكريمة بأن العفو واقع عن كثير، والعقوبة بالمصيبة ـ إن كانت ـ غير واردة عن وزان ما كسبت الأيدي، وإنما هي عن ذنب دون ذنب، فـ ﴿**لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**﴾ [فاطر:٤٥] ولو يؤاخذهم الله بظلمهم ﴿**لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا**﴾[الكهف:٥٨]. كما أرشد الحديث الكريم إلى أن البلاء الذي أزف بسبب الذنب لن يُكشف إلا بتوبة. ولو تتبعنا هذه الآيات المتضمنة لهذا المعنى لطال بنا الكلام؛ فالآيات في هذا الغرض كثيرة، والأحاديث كذلك.

تمهيد هذه القاعدة إنما هو على ما أجرى الله من سننه التي لن تجد لها تبديلا في عموم الخلق، فلا يعترض عليها بما ورد في ابتلاء الأمثل بالأمثل[2]، لأن أهل الدين قليل بالنسبة إلى غيرهم، حسبما تشهد لذلك آيات كثيرة وأحاديث جمّة. وربما يسلم كثير من ذلك القليل من الابتلاء. وسيأتي لهذا بسط في الاعتذار يستوفي الكلام هنالك إن شاء الله.

وما أقوم النظر في باب استدامة النعم وفي باب استدفاع النقم برؤية كون ذلك كله من الله. قال بعض المحققين: «من كان نظره في وقت النعمة

---

(١) إنما هذا من قول العباس في صلاة الاستسقاء عندما قدمه عمر انظر فتح الباري ٤٩٧/٢.

(٢) أخرج الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه (٤٠١٣) وأحمد عن سعد بن أبي وقاص أنه سُأل النبي ﷺ : أي الناس أشد بلاءً قال: « **الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل حسب دينه** .. » الحديث

إلى المنعم لا إلى النعمة كان نظره في وقت البلاء إلى المبتلي لا إلى البلاء، وحينئذ يكون غريقاً في كل الأوقات في معرفة الحق سبحانه، وكل من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادة، وأما من كان نظره في وقت النعمة إلى النعمة لا إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى البلاء لا إلى المبتلي، وكان غريقاً في كل الأوقات في الاشتغال بغير اللّه، فكان أبداً في الشقاوة، لأنه في وقت وجدان النعم يكون خائفاً من زوالها، فكان في العذاب، وفي وقت فوات النعمة كان مبتلى بالخوف والنكال، في محض السلاسل والأغلال». ولهذا التحقيق قال لأمة موسى عليه السلام: ﴿**اذكروا نعمتي**﴾ [البقرة: ٤٠] وقال لأمة محمد ﷺ ﴿**اذكروني أذكركم**﴾ [البقرة: ١٥٢]. انتهى ما قال.

وربما يُشعر بسبب الإصابة بالبلوى قوله تعالى: ﴿**وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض**﴾ [فصلت: ٥١] فإن إعراض الإنسان ونأيه بجانبه إذا أنعم عليه مولاه بتجدد منحه التي هو منها يتقلب آناء الليل والنهار في أنواع لا يحصيها وأعداد لا يحصرها، فمقابلتها بالأعراض والنأي بالجانب عبارة عن النقص في الشكر، وعلامة على شموخ الأنف بالكبر، وتعام عن رؤية النعمة من قبل المنعم بها، وذلك ضرب من الكفر، ولذلك عقب الكلام بأنه إذا مسه الشر الذي هو منبه له من غفلته، وموقظ له من رقدته، فإنه إذ ذاك ذو دعاء عريض، وجناح لفقد نعمة مولاه مهيض.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وإذا مسّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسَّه كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون**﴾ [يونس: ١٢].

وقد تقدم في الآيات السابقة ما يُمهد أن الإصابة بالمصائب إنما هي بما كسبت الأيدي، وأن التغيير للنعمة إنما هو بتغيير ما بالأنفس، فإذا مس الإنسان الضرُّ فإنما هو بالسبب المذكور في الآيات السابقة، ثم إذا دعا لجنبه ـ وهو أعظم حالة تكون به من السقم ـ أو قاعداً ـ وهي الحالة التي تليها ـ أو قائماً ـ وهي أخف الحالات التي يكون عليها ـ فإن اللّه تعالى يكشف ما به من الضر، فلما كشفه عنه نسي حالته، وعاود بطالته، وراجع ضلالته، ومرّ كأن لم يدع اللّه إلى ضر مسه، ورأى من هذه الآية الكريمة ما يقع من الإنسان بعد التخويف الذي ربما يزيد من لم يتعظ من المسرفين الذين زُين لهم ما كانوا يعملون طغياناً كبيراً.

وكذلك قوله: ﴿**ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور۞ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذهب السيئات عنّي إنّه لفرِحٌ فخور۞ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير**﴾ [هود: ٩-١١] فإن نزع الرحمة بعد إذاقتها لا يكون إلا بذنب كما سبق، ثم زادها باليأس والكفران خلتان ذميمتان ينبغي اجتنابهما وملاحظتهما، فلن يخلو مبتلى بشيء من هذه التمحيصات منهما أو من أحدهما إلا من حفظه اللّه ووقاه، ثم إذا أذاقه نعماء بعد ضراء مسته ظهر منه من الفرح والافتخار ما يدّعي به ذهاب السيئات عنه، متعامياً في ذلك عن عزة المنعم أولاً بها، ورحمة المتفضل ثانياً بإذهابها، ثم استثنى اللّه تعالى منهم الذين امتثلوا أوامره من الصبر وعمل الصالحات، وأخبر بما لهم من المغفرة والأجر الكبير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وإنا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمةً فرِحَ بها وإنْ تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإنّ الإنسان كفور**﴾ [الشورى: ٤٨] ففرحُ

الإنسان بما يذيقه اللّه من رحمته كالفرح الذي أثبت اللّه له إذا أذاقه نعماء بعد ضراء مسته مع قوله ذهب السيئات عني، وإصابة السيئات بما قدمت الأيدي حسبما تقدم في غيرها من الآيات، فإن الإنسان كفور: هذا هو دأبه الواقع منه، وسيرته المعهودة عنه، كما تقدّم في الآية الكريمة. وإذا أذاقه اللّه رحمة ثم نزعها منه فالمعنى في هاتين الآيتين واحد وفي تلك زيادة الأمن، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم. و لله در القائل:

رأيت الذنوب تميت القلوب ويورثك الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

أما على التفصيل فقد بيّن الشارع صلوات اللّه عليه ابتلاءات مخصوصة توجبها ذنوب مخصوصة، كقوله ﷺ : **«ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتُلوا بالسنين»**[1] وقال رسول اللّه ﷺ : **«ما من قوم يكون بين ظهرانيهم من يعمل بالمعاصي هم أعزّ منه فلم يغيروا إلا أصابهم اللّه بعقاب»**[2] . وما أشبه هذا المعنى مما وقعت فيه العقوبة جزاءً وفاقاً، ولهذا يشير قول الحسن: ما أنكرتم من زمانكم فبسوء أعمالكم.[3] وفي نحو هذا المعنى قال الشاعر:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وقال ابن شرف في رسالته المسماة بسرِّ البرِّ: «واعلم أن البغي أعجل الذنوب عقوبة في الدنيا والباغي مصروع». وفي المثل: البغي والغدر والحسد أثافي الفجور.

---

(١) حسن أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره عن ابن عمر رضي اللّه عنهما صحيح ابن ماجه (٣٢٤).

(٢) حسن أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٩) وغيره عن جرير بن عبداللّه . انظر صحيح ابن ماجه (٣٢٣٨).

(٣) هذا واللّه حق لا مراء فيه فهو إما بسوء ما قدمت أيدينا أو بتقاعسنا عن الإنكار وكلاهما وبال.

واستقصاء ذلك يخرج عن الغرض ولكن المعنى ثابت موجود.

إلا إنه يعرض به إشكال مع قوله ﷺ في صفة المؤمن وإصابة النوائب له: «**إنه كخامة الزرع**[٤] **تفيئها الريح مرة هنا ومرة هنا**»[٥] وفي صفة الكافر إنه: «**كالأرزة حتى يكون انجعافها مرة**»[٦] . ومثل الحديث الآخر بابتلاء الأمثل بالأمثل[٧] ، وفيه أن: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء**». إلى ما لا يحصى كثرة من هذا المعنى.

ولا شك أن كثيراً من هذه الأحاديث التي ظاهرها التعارض مع ما سبق محتمل للتأويل، ولا سيّما ما كان في حق الكفار، فقد سمّى اللّه بالحسنى ما ينالُنا من قِبله أو منهم، كما سمّى بالعذاب ما ينالهم من عنده أو بأيدينا، وما يبقى بعد ذلك مما ظاهره التعارض فإنه يندرج في القلب أن ما أصاب الأنبياء ومن لحق بهم فإنه لإعظام أجورهم وإعلاء منازلهم[١] ، لذلك لا يكون في الغالب إلا على ما أجرى اللّه من عادته في خلقه متمحضاً لما يُستجزل به المثوبة غير ملموح فيه ما يستبشع منه العقوبة، كما أن ما يصيب من ذلك الخطائين فإنه في الأغلب من حاله يستشعر منه الأخذ ويفهم من عمومه

---

(٤) الخامة : أي الطاقة، والقصبة اللينة من الزرع.

(٥) متفق عليه. البخاري (٥٦٤٣) ومسلم (٢٨١٠) عن كعب بن مالك رضي اللّه عنه ومعنى (تفيئها: أي تميلها وتقلبها يميناً وشمالاً).

(٦) انظر الحاشية السابقة. ومعنى (انجعافها): أي انقلاعها.

(٧) سبق تخريجه ص ٢٤ ت ١.

(١) وهنا ملمح آخر نورده: وهو أن الأنبياء أرسلوا للاقتداء بهم وأداء لأعظم مهامهم وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ودعوتهم إلى توحيد اللّه وطاعة أوامره وأن هذا الطريق محفوف بالمكاره والصعاب الجسام والبذل التام بالنفس والنفيس فكما أنهم يصابون بأشد البلاء فعلى متبعيهم الصبر والاحتمال والتسلي بما أصاب الأنبياء فما أصابهم هم أهون وما لاقوه يستصغر في جنب ما لاقى أكرم الناس على اللّه، فلا تكون الإصابة بالبلاء إهانة وإنما في حق الصابرين كرامة.

المجازاة، ويتوقع من عدم الإنالة فيه النكال، ولن يتبين ذلك بأقرب من المثال، وليس في الأمثلة أبعد من كون الموت عقوبة في حق واحد ومثوبة في حق آخر، وإنما بعّدنا ذلك لعمومه وكون المؤمن يلاقي منه مثل الكافر أو أشد، ولكنه لا يتساوى ميتةُ نبيٍّ ـ ولو بالمناشير من حيث كونه مظلوماً في نفسه وداعياً إلى ربه ـ بميتة فرعون مسخوطاً عليه مغرقاً هو وقومه، وما قرب وصفه من إحدى الميتتين فلاحق بها.

ولا شك أن الموت ليس بمرتب على الذنوب وإنما يمكن أن يترتب عليها صفته، فإن كان مرشح الجبين وعلامات السعادة فهي الميتة التي تشعر من اللّه بالروح والريحان والنعيم والرضوان، وما لم يتبين صفته فهي التي أجرى اللّه بها سنته في خلقه وقال في شمولها: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ [آل عمران: ١٨٥] وإن كان على الصفة المكروهة، وقد ورد في الحديث تعيينها، وجاء عن علماء السلف تبيينها، فتلك الصفة هي الموْتة على المعاصي، والمؤذنة بالأخذ بالأقدام والنواصي، أعاذنا اللّه من ذلك.

وإذا وضح صرف الإشكال في الموت الذي يشمل الخلق مصيبته فهو في غيره من الابتلاءات التي تخص بعض الناس أوضح، وإزالتها أقرب، لأنا مثلاً إذا وجدنا الابتلاء بالقحط قد عمّ، أو الموتان قد ألّم، ونظرنا في المبتلين بذلك فوجدناهم مجاهرين بفاحشة الزنا باخسين للمكيال والميزان علمنا قطعاً أن ذلك الابتلاء بسبب ذيْنك الذنبين، فكيف يرتجى أن يكون منع القطر لإعظام الأجر أو الإصابة بغدّة كغدة البعير لإحراز الشهادة؟! كلا واللّه! بل هو رجز مرسل، وبلاء معجل، ولا ينكر أن يصاب به من لم يكن من جناة أسبابه، لما أراد اللّه من إعظام أجره أو تخفيف وزره، ويحشر على نيَّته، كما ورد في مثله عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «**ليُخسفنّ بقوم يغزون**

هذا البيت ببيداء من الأرض» فقالت أم سلمة: يارسول اللّه إن كان فيهم الكاره؟ قال: **«يبعث كل رجل منهم على نيته»**[1]، وإلى نحو ذلك يشير قوله تعالى: **﴿واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾** [الأنفال: ٢٥].

ولا شك أن وقوع الإنسان في الخطايا معلوم قطعاً، وأن اعترافه بذلك مرجو الفائدة نظراً وسمعاً، وأن الشيطان هو الذي يُدلّيه بغروره، والهوى هو الذي يحجب العقل بظلمته عن شروق نوره، ولذلك يتعامى الإنسان عن ذنبه، ويجهل في إقدامه بالخطيئة على ربه، ولهذا المعنى رغب الفضلاء في إهدائهم عيوب أنفسهم، وإنما احتاج الإنسان إلى معرفة عيبه لأنه لا يخلو من ذلك فمتى عرفه كفَّ ذلك من غربه، وثنى عنان عُجبه، فصلح بذلك أمره، وانشرح للاستقامة صدره، كما قال ابن المعتز: العاقل لا يرُعْهُ ما ستر اللّه من عيبه يفرح بما أظهر من محاسنه. وقيل لبعض الحكماء: أي خصلة أعظم بالإنسان ضرراً؟ قال: قلة معرفته بعيوب نفسه. وقد كان يقال: معرفة الإنسان بعيوبه أكبر ذنوبه.

ولابن الرومي في ذم من خفي عليه عيبه:

إصابة معنى المرء روح بيانه … فإن أخطأ المعنى فذاك مواتُ
إذا غاب عقل المرء عن عيب نفسه … فيقظته في العالمين سُباتُ

فإذا تقرر هذا الأصل، وتمهد هذا الفصل، وتحقق أن الأسباب التي أوجبت لنا من تغير الحال ما أوجبت، وحجبت عنا من وجوه الفضل ما حجبت، إنما هي أسباب مكتسبة بأيدينا، وواقعة لتجاوزنا لحدود الشرع

---

(١) مسلم (٢٨٨٢) وغيره.

وتعدينا، فما أحقّنا أن نطلب لها الأدوية في مظنّتها، ثم أن نشدّ الكفَّ منها إذا وجدناها على علق مضنّتها.

والدواء الشرعي المشترك هنا لهذه الأمراض كلها ــ الذي هو كالانكفاف عن المضرات التي منها مادة المرض، والزيادة في كميته أو كيفيته المشبه ببرء المرض من صناعة الطب، الاحتماء المطلوب فيه ـ إنما هو التوبة.

فإن أعظم أسباب الأمراض المزمنة بالإنسان في هذا المعنى المقرر، أو الداخلة عليه هو الكفر، لأنه هو الذي يقع به الشقاء الذي لا ينقطع، وتُفقد به السعادة التي لا تخلف، وقد وجدنا التوبة شافية من آلامه، ومُبْرئة من أسقامه، على القطع اتفاقاً لقول اللّه تعالى: ﴿**فإذا انسلخَ الأشهر الحُرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن اللّه غفور رحيم**﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصِّل الآيات لقوم يعلمون**﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون ۝ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾ [البقرة: ١٥٩ ــ ١٦٠] وقال تعالى: ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ۝ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي اللّه المؤمنين أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ١٤٥ ـ ١٤٦]، وقال النبي ﷺ : «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»[١]. فإذا كانت التوبة نافعة في هذا المرض الذي لا يقاس به مرض مُذْهبة لهذا السقم

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١) وأحمد واللفظ له وغيره من حديث عمرو بن العاص عند إسلامه.

الذي لا يتم به في الدنيا والآخرة غرض لقوله تعالى: ﴿**إن اللّه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨]، فأحرى أن تكون نافعة فيما دونه من المعاصي والآثام ونافعة مما هو أخفّ منه من الذنوب والأوزار، قال تعالى: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم**﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللّه توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ [التحريم: ٨]، وقال تعالى: ﴿**وتوبوا إلى اللّه جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**﴾ [النور: ٣١]، ولا إشكال في حمل هذه الأوامر على الوجوب. وقال تعالى في أكلة الربا وهو من أعظم الذنوب بالنسبة إلى الأموال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ۞ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من اللّه ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون**﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، فانظر إلى عظيم هذه المعصية المؤذن الإصرار عليها بحرب من اللّه ورسوله كيف أثمرت التوبة منها مع النجاة من تبعتها الفوز برأس المال المتضمن لعدم الظلم من الجهتين لطفاً من اللّه ورحمة، وقد كان شؤم هذه المعصية ماحقاً لأصل الربا وفرعه، لقوله تعالى: ﴿**يمحق اللّه الربا ويربي الصدقات**﴾ [البقرة:٢٧٦]، وذلك من الجزاء الوفاق. وقال اللّه تعالى: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم۞ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن اللّه غفور رحيم**﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤]، فتأمل هذه الموقعة الكبرى مع ما تضمنته من المفاسد الكثيرة واشتملت عليه من المصائب

العظيمة، ولكن التوبة من أهلها قبل القدرة عليهم والاستيلاء على ما لديهم، ضمنت لهم من رحمة الله وغفرانه ما تقرّر الكلام فيه في موضعه، إذ ليس هذا موضع استيفائه.

وإذا كانت التوبة من عموم الناس مقتضية لهذه المصلحة العظيمة وموجباً لهذه المنفعة العميمة فهي من ملوكهم أجزل فائدة وأجمل عائدة. كما يُروى أن أنوشروان خرج يوماً إلى الصيد، فأوغل في الركض، وانقطع من عسكره، واستولى عليه العطش، ووصل إلى بستان، فلما دخل ذلك البستان رأى أشجار الرمان، فقال لصبي حضر في ذلك البستان: أعطني رُمّانة واحدة. فأعطاه فشقّها وأخرج حبّها وعصرها، فخرج منها ماء كثير فشربه، وأعجبه ذلك الرمان، فعزم على أن يأخذ ذلك البستان من مالكه، ثم قال لذلك الصبي: أعطني رُمّانة أخرى. فأعطاه فعصرها وخرج منها ماء قليل فشربه فوجده عفصاً مؤذياً، فقال: أيها الصبي لم صار الرمان هكذا؟! فقال الصبي: لعل ملك البلد عزم على الظلم فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا. فتاب أنوشروان في قلبه عن ذلك الظلم، وقال للصبي: أعطني رمانة أخرى. فأعطاه فعصرها فوجدها أطيب من الرمانة الأولى، فقال للصبي: لم تبدلت هذه الحالة؟ فقال: لعل ملك البلد تاب عن ظلمه. فلما سمع أنوشروان هذه القصة من ذلك الصبي وكانت مطابقة لأحوال قلبه تاب بالكلية عن الظلم.

فلا جرم يبقى في الدنيا بالعدل، ولا يُستنكر ذلك فإن صلاح الدنيا بصلاح ملوكها. وفي المنقول من ذلك عن صلاح الدنيا في مدة عمر بن عبدالعزيز وتغيّرها بعد مُدّته ما يُعطي في ذلك برهاناً واضحاً.

فلنرجع إلى ما كنا فيه، فإننا إذا تأملنا بنظر العقل هذه الآيات المسطورة وتحققنا ما أفادت التوبة من محو كبار الذنوب، والعفو عن عظيم الجرائم،

ونزل بنا من هذه التمحيصات ما تيقن أنه أصابنا بذنوب نحن لها مرتكبون، ولثقل أوزارها محتقبون وظهر من مناسبة الابتلاء للذنب ما شهد أنه صادر مصدر العقوبة لكونه من باب الجزاء الوفاق بفرض لازم وحتم واجب تعيّنت المبادرة إلى التوبة من تلك الأفعال كلها، والندم على ما فرط من اكتسابها، والعزم على عدم التوبة إلى جريّة واحدة من جرياتها.

ولتعلم أن المسابقة لهذا من ألزم الفروض المحتومة وآكد الواجبات المطلوبة، وأن إضاعة هذا الحتم الواجب والفرض اللازم من أعظم ما يلحق عليه الندم، ويدرك بفوته الأسف، وعليه تنزّل قول بعض الحكماء وقد سئل: ما الحق المُضيّع ؟ فقال: ما صحَّ فضله وأمكن فِعْلُه ثم سُرّ به أهله. قيل له: ومن أشد الناس ندماً؟ قال: من قعد به الكسل عن خير عمل حتى قطع دونه الأجل.

ولا يغفل عن رؤية اللطف من اللّه والتجاوز في هذه التمحيصات بحيث لم يحلّ الابتلاء مستأصلاً، ولم يُرج العقاب إلى الوقت الذي لا يجد الإنسان فيه مستعتباً، وربما يجب حمد اللّه على ما عجل منه في هذه الدار المنقضية الفانية، ولم يؤخره إلى الدار التي هي دائمة باقية، ففي التأخير من الابتلاء الذي يصحبه عدم الإقلاع غالباً ما ينبغي الاستعاذة منه. كما أن في تعجيل المؤاخذة غالباً من الإيقاظ من سنات الغفلات والتحذر من التمادي على ارتكاب السيئات ما يقتضي أنه لطف من اللّه قوّم به زيْغ عبده وسبب منه في مراجعته لأمره.

وقد كنت على الإقصار عن هذا الكلام خشية اعتراض من يظهر له البوْن بين قولي بالحضّ على المبادرة إلى التوبة وفعلي بالتسويف عن ذلك لولا أني تذكرت قول الحسن البصري لمطرّف بن عبداللّه بن الشِّخِّير رحمهما اللّه : يا مطرّف! عظْ أصحابك. فقال مطرّف: أخاف أن أقول ما لا أفعل. فقال

الحسن: يرحمك اللّه ! وأيّنا يفعل ما يقول ! لودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلم يأمر أحدٌ بمعروف و لم ينه عن منكر. ولا يُحمل قول الحسن على أن قول اللّه تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة: ٤٤] ظاهر في معارضته لأن فعل المخاطبين بالآية الكريمة من الأمر للناس بالبرّ ونسيان أنفسهم من مثل ما أمروهم به ظاهر الشناعة، وليس في قول الحسن مثل ذلك، وإنما أمره أن يعظ الناس وإن قصّر في فعله مع رؤية ذلك واعترافه به، لا على وجه نسيان نفسه ذاهلاً عن عيوبه، غافلاً عن ذنوبه، وفي مثل ذلك يُنشد:

اعمل بقولي وإن قصّرت في عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

وليكن على بالٍ منا أننا بحال من غلب عليه هواه، وضعف خوفه من مولاه، وقد قال ابن شرف في رسالة سرّ البرِّ: «واعلم بأن الهوى مهواة بصاحبه، ومزلة براكبه، ونيل أنواع السيئات يرجع إلى الهوى كما يرجع الناس إلى قبائلهم ومن لا يعرف أن الخيرة فيما يأتي ويذر، فليخالف هواه، فهنالك الخيرة كلها، ولو جاهد الناس أهواءهم ما احتاجوا إلى شيء آخر، ولو عصى الناس أهواءهم لقلّ أهل النار، وفي المثل: من غلب هواه فهو أشجع من ألف ضرغام. وفي المثل : عجبت لمن أطاق هواه كيف لم يحمل الجبل. وفي المثل: الهوى يُبطل الجوارح».

وحالتنا غير المرضية في متابعة الهوى فينبغي لمن يكون في هذه الحالة أن يعود على نفسه بالملامة، وأن يذكر أهوال يوم القيامة، وأن يخوّفها عاقبة الحسرة هنالك والندامة، حتى يُسرع بما وجب عليه من فرض التوبة عيناً، ويقتضي من التمكن في هذا المقام الأشرف دينا. قال اللّه تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى۝ فإن الجنة هي المأوى**﴾ [النازعات: ٤٠-

٤١]، وبعيد لغرور منا أن يرقى إلى هذا المقام الأسنى، أو يتعلق بأذيال من سبقت لهم من اللّه الزيادة والحسنى، إلا أن يشاء اللّه كقوده بسلسلة من التمحيص تجذبه لذلك اضطراراً كما جاء في الحديث.

ومقام الخوف بأمثالنا من الخطائين أليق، وهو بالنسبة لتوقّي المدينين أسبق، وإنما نحن فيه في قول غير موافق للفعل ودعوى غير مطابقة للعمل، ولو أننا في دعوى الخوف صادقون، والعمل منا موافق لما نحن به ناطقون لأسلمتنا من أسرها الذنوب، وتجافت بنا عن المضاجع الجنوب، وسلْ بالتماس رحمة اللّه الغرض المطلوب، فقد سئل عز الدين بن عبدالسلام عن التائب من الكبائر وغيرها يسأل اللّه مقامات الأولياء؛ أيكون ذلك منه سوء أدب أم لا؟ فأجاب: إنما إذا تاب الإنسان من كفر أو كبيرة أو صغيرة فليس من سوء الأدب أن يسأل اللّه المقامات؛ فإن اللّه تعالى لا يتعاظمه شيء، وقد تابت الصحابة رضوان اللّه عليهم من الكفر ثم رفعهم اللّه تعالى بعد قربتهم إلى أرفع وأعلى المقامات، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وأي سوء أدب في سؤال أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ورسوله ﷺ يقول: «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت وليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن اللّه تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[1] . انتهى

وإن من أعظم ما يقوي الرجاء في رحمة اللّه لمن حصلت له التوبة من العصاة ما نُقل عن ابن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: سمعت من رسول اللّه ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً ـ حتى عدّ سبع مرات ـ سمعته يقول:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩) وغيرهما.

«كان ذو الكفل رجلاً من بني إسرائيل، وكان لا يتورع من ذنب عمله حتى أتته امرأة فأعطاها سبعين ديناراً على أن يطأها، فلما أُجلس منها مجلس الرجل من المرأة ارتعدت وبكتْ فقال لها: ما لك؟! أكرهتُك؟ فقالت: لا، لكن هذا عمل ما عملته قط، وإنما حملني عليه الحاجة، قال: فتعملي هذا أو لم تعمليه قط قومي والدنانير لك. قال: ثم قال: واللّه لا يعصي اللّه ذو الكفل أبداً. قال: فمات من ليلته فأصبح على بابه مكتوب: قد غفر اللّه لذي الكفل» (١) .

وإنما يتحفظ بتقوية الرجاء من دخول اليأس فإن المذنب منا كثر ما يؤيسه المستعظم لذنوبه من رحمة اللّه، وفي هذا المعنى قال بعضهم:

أيأسوني لما رأوا من ذنوبي أتُراهم هم الغفور الرحيمُ؟
اتركوني وإن تعاظم ذنبي إنما يغفر العظيمَ العظيمُ

والاعتراف بالذنب صادقاً من القلب سبب في حصول التوبة من الرب، قال اللّه تعالى: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى اللّه أن يتوب عليهم**﴾ [التوبة: ١٠٢] ، ويناسب هذا المحل قول أبي العتاهية ـ رحمه اللّه ـ:

إلهي لا تعذبني فإني مقر بالذي قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا وأنت عليّ ذو فضلٍ ومنِّ
إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملي وقرعت سني
أجن بزهرة الدنيا جنوناً وأقنع طول عمري بالتمني
ولو أني صدقت الزهد عنها قلبت لأهلها ظهر المجن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٦) وأحمد ٢/٢٣ والحاكم ٤/٢٥٤ وغيرهم عن ابن عمر وضعفه الألباني (الضعيفة ٤٠٨٣) وفيه قوله كان الكفل وليس ذو الكفل.

يظن الناس بي خيراً وإنـي لشـر الناس إن لم تعف عـني

وواجب عليه إذا تم من التوبة غرضه، وذهب بأدويتها الشافية مرضه، أن يستحضر كونه بحال من عُفي عن إجرامه، وتعوض عما يجب من هونه إلى ما تفضل به من إكرامه، فينجو بذلك من مهواة الغرور، ويشهد من رؤية المنة من الله نوراً على نور.

ورحم الله الأستاذ أبا سعيد بن لُبّ، فإلى هذا المعنى أشار وفائدته الجليلة بقوله أثار:

وهبك وجدت العفو عن كل زلة فأين مقام العفو من مقعد الرضا

وكيف بثوب حالك اللون رحت أن يصير كثوب لم يزل قط أبيضا

ولكنا نتمسك بمثل قوله ﷺ : **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**(١) ، وما أنسب قول القاضي منصور الهروي:

لّما عدمت وسيلة ألقى بها ربي تقي نفسي أليم عذابها

قدّمت رحمته إليه وسيلة وكفى بها وكفى بها وكفى بها

وإذا كان كذلك فظهر اسمه التوّاب ونحوه من أسمائه لا بد منه في الوجود، وله الحمد على ما منح لعبيده الخطّائين التوبة بعد ارتكاب الخطايا واقتراف البلايا.

وهذه المقدمة إذا منّ الله بحصولها، وأنعم توفيقاً منه بمحصولها فإنها مؤذِنة بإذن الله بالشفاء، وافية بحول الله بصلاح الحال أتم الوفاء.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) وغيره عن أبي هريرة وقد ورد بلفظ آخر عن ابن عباس (صحيح الجامع ٥٣٠١).

إلا أنه تلزم مع ذلك حالة أخرى هي المسماة بالتقوى، وهي أشبه شيء باجتناب الأمور المضرة والاحتماء منها والتزام الأمور النافعة والمحافظة عليها وهي الضمينة لاستقامة الحال الصحية.

والتقوى فرض لازم أوجبها اللّه علينا كما أوجبها على الذين من قبلنا حسبما تضمنته الآية الكريمة.

والتقوى المفروضة علينا هي أن يتخذ العبد وقاية بينه وبين الذنوب بقوى من العزم وتوطين من القلب على ترك المخالفات وامتثال الطاعات. ولن يتوصل إلى هذا الغرض الذي هو التقوى إلا بعلم ما يكون به متقياً، فيلزم أن يعلم ما أمر به ليمتثله وما نهي عنه ليجتنبه. لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ولذلك يقول اللّه تعالى: ﴿ **واتقوا اللّه ويعلمكم اللّه** ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ذكر كثير من المفسرين أن معنى الآية: يبين اللّه لكم الواجب والمحرم عليكم لتعلموا ولتعملوا ولتنتهوا ولتتقوا اللّه في ذلك. ولما ربط بين تقواهم له وتعليمه لهم بين أنه مليٌّ لهم بما ضمن من التعليم. فقال: ﴿**واللّه بكل شيء عليم**﴾ وإلى هذا المعنى المقرر أشار قوله ﷺ : «**واللّه إني لأتقاكم لله وأعلمكم بحدوده**»[1] وإنما قارن بين العلم والتقوى إشعاراً بهذا القصد، وتنبّهاً على هذا الأمر، إذا كانت التقوى الواجبة لا تمكن إلا بعد العلم بالمتّقي والمُتّقى به.

وتحت هذا يندرج من العلوم الشرعية كل ما يفتقر إليه المكلف في يومه وليلته من هذه العلوم وبحسبها ما أقيم فيه من وظيف أو صناعة يحتاج فيه إلى ما لا يحتاج غيره ممن ليس في تلك الصناعة ولا في ذلك الوظيف، وهذا ظاهر، فإن من لا مال له لا يفتقر إلى فقه الزكاة، ومن لا يعطي قِراضاً ولا مساقاة

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه مالك في موطئه (٥:٤٦) مرسلاً عن عطاء بن يسار وأخرج بلفظ مقارب مسلم(١١٠٨) عن عمر بن أبي سلمة.

ولا يأخذهما غير محتاج إلى فقههما، وإنما يفتقر إلى فقه ما يعانيه من عمل، وما لا يعلمه فهو عنه في غنىً، فإن افتقر إلى عمله فلا ينبغي له أن يقدم عليه حتى يعلم حكم اللّه تعالى فيه، فهذا ما يلزم من التقوى التي هي أكيدة في هذا القصد الذي نحن بسبيله، واللّه أعلم.

والأمر بالتقوى والحض عليها وإجمال موعود من اتصف بها قد تضمنته آيات كثيرة من الكتاب العزيز لا يمكننا الآن استقصاؤها، ذكر بعض الناس أنها في نحو من مائة وتسعين موضعاً، وفي بعضها كفاية كقوله تعالى: ﴿**واتقوا اللّه واعلموا أن اللّه مع المتقين**﴾ [البقرة: ١٩٤] فهذا أمر بالتقوى وإعلام من اللّه أنه مع من امتثل هذا الأمر واتصف بالتقوى، وهذه رُتبة شريفة بأن من كان اللّه معه فلا خوف يلحقه ولا قصد يفوته، وكفى بأنه نوع مما أعطاه اللّه نبيه ﷺ وصاحبه أبا بكر الصديق ﷺ في الغار حيث يقول اللّه تعالى: ﴿**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا**﴾ [التوبة: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿**فاتقوا اللّه ما استطعتم**﴾ [التغابن: ١٦] وهذه الآية محكمة فيما يقول المفسرون، والمنسوخ بها قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ولا خفاء بأن محصول قوله تعالى: ﴿**فاتقوا اللّه ما استطعتم**﴾ أخف من محصول قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه حق تقاته**﴾، لأن تقوى اللّه حق تقاته مما يعذر إلا لأفذاذ من الأمة تولاهم اللّه بحفظه وأقامهم في هذا المقام حجة على خلقه، ثم لطف اللّه تعالى في هذا الحكم بنسخه بقوله: ﴿**فاتقوا اللّه ما استطعتم**﴾. وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم واللّه ذو الفضل العظيم**﴾ [الأنفال: ٢٩]، فهذا أيضاً وعد من اللّه صدر مصدر الشرط والمشروط، وأن تقوى اللّه كفيلة بجعل الفرقان وتكفير السيئات والغفران، وكفى بذلك فضلاً عظيماً، ولذلك

ختم الآية بقوله: ﴿ **واللّه ذو الفضل العظيم**﴾. وقوله تعالى: ﴿**واتقوا اللّه واعلموا أنكم ملاقوه**﴾ [البقرة: ٢٢٣] فهذا أمر من اللّه لعباده بتقواه، وإعلام لهم أنهم ملاقوه لا محالة، وفي ذلك من الفائدة ما لا يخفى، فإن العبد إذا أمره سيده بأمر وألزمه القيام بقصد، وأعلمه أنه لابد ملاقيه بعد ذلك، وراجع إليه، فإن التزام ذلك الوظيف يسهل لديه، وثقل التكليف يخف عليه. وما أقبح بالعبد في التقصير في حق مولاه وهو من الوقوف بين يديه على يقين، ومن الرجعى إليه على سبيل مبين، وفي هذه الآية الكريمة لحظ هذا المعنى كما سبقت إليه الإشارة، وإن قصرت عن شرح جُزئياته العبارة.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا۝ ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه إن اللّه بالغ أمره قد جعل اللّه لكل شيء قدراً**﴾ [الطلاق: ٢-٣] فقد جعل اللّه تعالى بنص هذه الآية الكريمة لمن يتقيه مخرجاً مما يكون فيه قد نشب، وتكفل برزقه من حيث لا يحتسب، وكفى بذلك لمن اتقى نوالاً عاجلاً إلى ما يدّخره اللّه له آجلاً. وفي خاتمة الآية لمن توكل عليه ما يشد عليه لديه، فمن علم أن اللّه حسبه فقد وثق بالكفالة قلبُه.

وقوله تعالى: ﴿**ومن يتق اللّه يجعل له من أمره يسراً**﴾ [الطلاق: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في الأمر بالتقوى والمُخبرة عن استناد المتصف بها للركن الأقوى.

ومثل ذلك في الأحاديث الصحيحة كثير، كقول النبي ﷺ : «**اتقوا اللّه وأجملوا في الطلب**»(١). وقوله ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي ذر ومعاذ ـ رضي اللّه عنهما ـ عن رسول اللّه ﷺ قال: «**اتق اللّه حيثما كنت وأتبع السيئة**

---

(١) **صحيح**. أخرجه ابن ماجة (٢١٤٤) عن جابر وصححه الألباني (صحيح الجامع ٢٧٤٢)

الحسنة تمحها»[٢] أمر بالتقوى مطلقاً ويحمل الأمر على الوجوب فيما يذهب إليه أكثر الأصوليين، إلى غير هذا من الأحاديث تكاد لا تحصى، بها الأمر بالتقوى والحض عليها وضمان ما يثلج به الصدر ديناً ودنيا لمن تمسك بها واستند إليها.

ولا نطول في ذلك فالأمر فيه أوضح، وإنما اجتلبت ما قرب مأخذه وسهل مدركه لتكون تذكرة لي ولمن نظر بمثل نظري ومن اللّه التوفيق.

ولنختم الحث على تقوى اللّه بقول الشيخ أبي جعفر أحمد بن خاتمة:

ملاك الأمر تقوى اللّه فاجعل   تقاه عُدّةً لصلاح أمرك

وبادر نحو طاعته بعزم   فما تدري متى يمضي بعمرك

ولقد رأيت في عالم النوم الشيخ أبا إسحق الشاطبي ـ رحمه اللّه ـ ولم أُدركه بسنّي ولكني علمت في النوم أنه هو وأُخبرتُ بذلك وهو رجل أَمْيلُ اللون للصُّفرة، خفيف العارضين، عليه جُبّة مختصرة وقبلا[١] ومثلها عَريٌّ[٢] حوليّ اللون كأنه ملفٌّ بلديّ صبغ تلك الصبغة، فكنت أسأله أن يوصيني فقال لي: اتق اللّه واخشه. فأخبرتُ بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخَ الأستاذَ أبا عبداللّه المجاري ـ حفظه اللّه ـ لكونه ممن لقيه، وأخبرني بأنها صفته، وأن اللباس لباسه، وعجب من ذلك لكونه قصده فيما أعلمني به إلى داره أيام حياته طالباً منه الوصاة فقال له: قد وصّاك اللّه تعالى قبلي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا**

(٢) حسن. أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وأحمد عن أبي ذر حسّنه الألباني (صحيح الجامع ٩٧).

(١) القبلا: نوع من الملابس في المغرب.

(٢) العرْي: قميص طويل واسع.

الله ﴾ [النساء: ١٣١] . ورجح لي بذلك أن الرؤيا صحيحة لموافقتها لما صدرت له منه الوصاة به، ولكون صفته صحيحة، والله وليّ العفو والمغفرة.

وقد تذكرت هنا قول أبي العتاهية رحمه الله :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يُحبُّ مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر أيا من يداوي الناس وهو سقيم
وإن امرءاً لم يُلْهه اليوم عن غد تخوّف ما يأتي به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البرَّ كنزه وإن كانت الدنيا له ، لعديم

والعذر عن ذاك قد تقدم في الفصل قبل هذا في الحكاية عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ ويُحكى أن أبا العتاهية أمر أن يُكتب على قبره:

أُذْن حيٍّ تسمّعي اسمعي ثم عي وعي
عشت تسعين حجةً أسلمتني لمضجعي
ليس زاد سوى التقى فخذي منه أو دعي
أنا رهنٌ بمضجعٍ فاحذروا مثل مصرعي
كم ترى الحيَّ ثابتاً في ثياب التزعزعِ

أردت البيت الأخير.

ولنرجع إلى ما سبق من التقسيم، فنقول:

الصورة الأولى

● **أن يكون الابتلاء متوقعاً في المقتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك.**

وإنما تكون هذه الصورة إذا كاد ذلك المتوقع أن يكون، وكَرُبَ ذلك المتخوف أن يقع، وأما قبل أن يظهر لتوقعه أثر، ويبرز من الخوف منه سبب، فإنما ذلك نوع من سوء الظن بالله قبيح، وضرب من سوداوي الفكر رديء، فلا كلام فيه، وإنما الكلام حيث تكون المخائل لائحة، والأمارات على المتوقع ظاهرة.

ثم لا يخلو هذا المتوقع اللائح المخائل الظاهر الأمارات أن يكون:

إلهيا محضاً: لا كسب فيه للعبد جلباً ولا دفعاً كالقحط؛ فإن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك واسق بلدك الميت**»[1] وكما إذا أكثر المطر وخيف منه الضرر فإن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**»[2].

وكما إذا وقع الحريق ففي كتاب ابن السني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفيه**»[3].

---

(١) حسن . أخرجه أبو داود (١١٧٦) ومالك (٤٤٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) ضعيف. عمل اليوم والليلة ٩٣ضعفه الألباني (ضعيف الجامع ٥٠٤)

ومحل كلامنا من هذه الأمور هو في أوائلها عند استشعار النفوس الخيفة منها لا فيما بعد ذلك لأنها تصير هنالك واقعة.

أو أن يكون اختيارياً: للمخلوق بحال كسبه الذي خلق له في جلبه ودفعه؛ فإن كانت تجارة خشي كسادها، أو مالاً خيف ضياعه، أو عقاراً توقع اغتصابه، أو جاهاً ظن زواله، أو ولاية استشعرت عزلتها، وعلى الجملة فنائبة في المال أو الجاه متوقعة ظاهرة الدلالات القريبة من الوقوع، فإن التجلد في هذه المواضع كلها محمود، والتجمل فيها مطلوب.

والأسباب الجائزة شرعاً مسوغة للفعل إما إباحة وإما ندباً وجوباً على حسب المحل الذي يتوقع فيه الحادث.

إحراز السلامة من الابتلاء سبب شرعي

والمقصود في هذا المعنى إنما هو إحراز السلامة من هذه الابتلاءات.

ولابن شرف في حكمه في استيفاء قصد إحراز السلامة ما يستطرف، فإنه قال فيها: واعلم أن قابضاً قبض على السلامة ليذهب بها لنفسه، فوجدها قد عُقدت بالعفاف، فقبض على العفاف، فوجده قد عقد بالقناعة، فقبض على القناعة، فوجدها قد عقدت بالأمانة والصيانة والديانة، فقال: هذه أثقال لا يحملها إلا جمّال. انتهى. وقد أحسن ما شاء لارتباط هذه الأشياء كما ذكر.

وهنا يتأكد النظر في شرعية الأسباب وكيفية الدخول فيها ـ بعد إحكام التوكل على الله والثقة به فيما ابتلي به ـ من جوازها[1] وطلبها؛ فللتاجر إذا خشي كساد تجارته، أو تخوّف خسارة رأس ماله، أن يرتكب الأسباب المباحة له، المطلوبة في حقه، من التحفظ بسلعته والتنقيل لها أو استعاضة منها، وما أشبه

(١) أي الأسباب

هذا مما تكون فيه السلامة مما توقعه، والأمنة مما تخوفه، وليس أخذه في ذلك ـ مما يسوغ له من هذه الأسباب الجائزة له ـ بمنافٍ لما يأتي الحض عليه من التفويض والتسليم.

كما أن التفويض والتسليم لله في أحكامه ليس بمناقض لأخذ هذه الأسباب والحزم فيها، مع مراعاة التوكل على الله في اعتمادها، والاعتداد بها، ولذلك يقول الشاعر:

لا تترك الحزم في شيء تحاذره ... فإن سلمت فما في الحزم من باس

العجز ذل وما بالحزم من ضرر ... وأحزم الحزم سوء الظن بالناس[1]

وقد أغرق هذا القائل في أنواع الحزم، وكثير من يوافقه على ذلك.

وكذلك لرب المال المتوقع فيه الضياع، أو العقار المتخوف عليه الاغتصاب، أن يعتمد أيضاً من الأسباب ما تشهد له العادة بنجحه في الأمر الذي يخاف منه، والباب الذي كاد يُمتحن به، مع جواز ذلك شرعا، أو طلبه كالواقع في قضية الوديعة التي رام المستودَع عنده أن يجحدها لمودعها، حسبما حكى المحسن بن علي قاضي مرو، وقد ذكر أبا حنيفة وفطنته فقال: استودع رجل من الحجاج رجلاً بالكوفة وديعة ثم رجع فطلب وديعته، فأنكر المستودَع وجعل يحلف له، فانطلق الرجل إلى أبي حنيفة يشاوره فقال: لا تعلم أحداً بجحوده. قال: وكان المستودَع يجالس أبا حنيفة، فخلا به وقال: إن هؤلاء بعثوا يستشيرونني في رجل يصلح للقضاء، هل تنشط؟ فتمانع الرجل قليلاً. وأقبل أبو حنيفة يرغبه، فانصرف على ذلك وهو طمع، ثم جاء صاحب الوديعة، فقال له أبو حنيفة: اذهب وقل له: أحسبك نسيتني، أودعتك في

---

(١) أي من باب الاعتماد عليهم وترك التوكل على الله.

وقت كذا، والعلامة كذا. قال: فذهب الرجل فقال له: نعم، فدفع إليه الوديعة. فلما رجع المستودَع قال له أبو حنيفة: إني نظرت في أمرك فرأيت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أشرف من هذا. انتهت. وهذا من أعجب ما يُحتال به في رد المبطل إلى الحق.

وكذلك لذي الجاه المظنون به الزوال، والولاية المستشعر منها العزل ـ إذا كان الجاه منه في موضعه، والولاية منه في محلها، لقيامه بشروطها، واستيفائه لحقوقها ـ أن يتسبب بما يناسب صرف ما خشي أن يدهمه ورفع ما تخوف أن يلحقه على الإجمال في تسببه، ومراعاة الحق في تحيله، وإذا جاز المتسبب في الولاية مع الاستحقاق كما في قصة يوسف الصديق صلوات اللّه عليه بقوله: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف: ٥٥] فالتسبب في استمرارها متعين مع الاستحقاق فإن النبي ﷺ قد حض عثمان على أن لا يخلع القميص الذي خصه اللّه وإنما عنى بذلك الخلافة، وقد أدى ذلك إلى قتله، فالتسبب في الاستمرار أخف من هذا واللّه أعلم.

وهذه القضية بعد اشتراط الاستحقاق والقيام بالوظيف، والتوفية لما يكون المتولي بسبيله من واجبات الولاية، إنما هو على اللائق بمقامنا، والمناسب لانهماكنا في حب الدنيا، وارتكابنا التأويل في جواز التلبس بها في هذه الأزمنة، التي طمس فيها نور الحق، وانتشرت فيها ظلمات الباطل، وربما جعل الأمثل منا سبب ترخّصه كونه يقوم من المصلحة ببعض ما يقدر عليه، ساتراً قبح مرتكبه، بمثل قول مالك وقد قال له بعضهم: الناس مكثرون أنك تأتي الأمراء، فقال: لو أني آتيهم لما رأيتُ للنبي ﷺ في هذه المدينة سنة معمولاً بها.

تنزيل هذا الكلام على فرض صحته، في المحل الذي اعتمده المتستر به معلوم البطلان بالضرورة لمن أنصف، والحق أحق أن يتبع، وهو الاعتراف بأنا

من ملابسة هذه الأمور على شفا جرف هار، تدارك اللّه بالإقالة منه، وأخذ باليد فيه. وحب الدنيا هو الداهية العظمى لذلك. ويشهد لهذه الجملة ما حكيم عن سحنون أنه قال: اختلف ابن غانم وابن فروخ في الرجل يوليه أمير غير عادل القضاء، فأجاز ابن غانم له أن يلي، وأباه ابن فروخ، وكتبا بذلك إلى مالك، فلما قرأ مالك الكتاب قال للرسول: ولي ابن غانم؟ قال: نعم. قال مالك: إنا لله وإنا إليه راجعون ! ألا هرب وألا فرّ حتى تقطع يده! أصاب الفارسي وأخطأ الذي يزعم أنه عربي. انتهي.

وأنت ترى هذا الجواب من مالك ما أقطعه لكل حجة تعرض في هذا المحل. وربما يشكل بعض ما تقدم من هذه الإطلاقات. وفي سرد الحكايات في هذا المعنى إيضاح لما قصد فيه وبيان لما أجمل منه مما يلتمس لها التأويل في مثل حكاية سعيد الدارمي من عباد المدينة، وكان من ظرفائها، وأصحاب الغزل فيها، فتاب والتزم العبادة والمسجد؛ فاتفق أن وصل تاجر فكسدت عليه خُمُر سود فشكا ذلك إلى الدارمي، فنظم هذه الأبيات:

قل للمليحة بالخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه حتى وقفت له بباب المسجد
رُدّي عليه صلاته وصيامه لا تفتنيه بحق دين محمد

فحفظت الأبيات، وغُنّي بها، وشاع أن الدارمي رجع إلى ما كان عليه من الغزل والظرف، فلم تبق ظريفة بالمدينة حتى ابتاعت خماراً أسود؛ فلم يبق للتاجر منها خماراً. انتهى

وإذا نظر في مثل هذا السبب لتنفيق كاسد التجارة فعلى استكراه شديد يكون جريانه على الجواز دون كراهة، واللّه أعلم.

وكذلك تعذر المعيشة، وتعثر أسبابها، وإنما يتخوف من تعسّر المعيشة، واغتصاب المال، والعزل من الولاية، من لحوق الفقر، فهو أعظم هذه الابتلاءات المتوقعة، وما لم يقع فإنه لا ينبغي لعاقل ان يُشغل نفسه بالاهتمام من وقوعه.

وفي التعجب من خوف ذلك والأمن مما لا بد منه، وهو الموت، أنشد بعضهم:

عجبت لمن يخاف حلول فقر ويأمن ما يكون من المنون
أتأمن ما يكون بغير شك وتخشى ما ترجحه الظنون؟

ومن أفضل ما يستدفع به متوقع الفقر الاستعاذة باللّه منه، حسبما ثبت في أحاديث كثيرة.

- ولمتخوف العداء على ماله والاغتصاب على ملكه الاحتيال بما لا ضرر فيه على غيره والارتكاب لما لا يحظر مما فيه الأمنة من خوفه:

فقد أخبرنا اللّه تعالى بما كان من فعل الخضر عليه السلام في السفينة التي تخوّف عليها عداء الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً، إذ قال جل من قائل: ﴿**أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا**﴾ [الكهف: ٧٩] .

وقد وقع للقاضي منذر بن سعيد البلوطي مع الناصر لدين اللّه كما حكى الشيخ أبو مروان بن حيان في مقتبسه، قال: وكان منذر بن سعيد من ذوي الصلابة في أحكامه والتأني في أقضيته وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه لا يهاب في ذلك السلطان الأعظم فمن دونه، ومن

مشهور ما جرى له معه في ذلك قضيته المشهورة في أيتام أخي نجدة المحفوظة عند الفقهاء وأولي المعرفة: أن الخليفة الناصر لدين اللّه احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظيّة من نسائه، تكرم عليه فأمر بارتيادها، ووقف استحسانه على دار لأولاد زكرياء أخي نجدة كانت بقرب النشارين بالربض الشرقي مفضلة على دور تتصل بها حمام للعامة له غلة وافرة، وكان أربابها أولاد زكرياء أيتاماً في ولاية القاضي منذر، فأرسل الناصر لدين اللّه إلى الدار مَّنْ قوّمها بعدد ما طابت نفسه بابتياعها به، وأمر بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم بتلك القيمة، فذكر أنه لا يجوز ذلك إلا عن أمر القاضي، إذ لم يبح بيع أصل عليهما إلا عن أمره ومشورته، فأوصى الناصر لدين اللّه إلى القاضي في بيع هذه الدار منه، وعرّفه بعلمه في تحقيق قيمتها، فقال لرسوله: إن البيع على الأيتام لا يكون إلا لوجوه: منها: الحاجة ومنها الوهي الشديد، ومنها: الغبطة. فأما الحاجة: فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي: فليس فيها وهي، وأما الغبطة: فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين ما تستوفي به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع وإلا فلا. فنقل رسوله جوابه هذا إليه فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً في أن يتوخى فيها إرادته، وخاف القاضي أن يلتفت فيه غريمته فتلحق الأيتام سورتها، فأمر وصي الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، وكانت لها قيمة أكثر مما قُوّمت به قائمة للسلطان، واتصل به الخبر فأسي لخرابها، وتفجع لفوتها، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها، فأحال على أمر القاضي إياه بذلك، فأرسل عند ذلك في القاضي منذر وقال له: أنت أمرت بنقض دار أيتام أخي نجدة؟ فقال له: نعم، قال له: وما دعاك إلى ذلك؟ فقال: أخذت فيها بقول اللّه تعالى: ﴿**أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها**﴾ الآية، لم يُقدِّرها مقوِّمك إلا بكذا وكذا وبذلك

تعلّق وهمك، فقد نضّ في أنقاضها أكثر من ذلك بكثير، وبقيت القاعة والحمام فضلاً ونظر الله للأيتام. فصبر له الخليفة الناصر على ما آتاه من ذلك، وقال له: نحن أوّل من انقاد للحق فجزاك الله عنا وعن أمانتك خيراً. انتهى.

● وهاتان الحكايتان وإن كان المتسبب في صرف الغصب غير المتخوَّف منه، والمتخوّف منه غير المتسبب في صرفه، فأحرى أن يكون ذلك إذا كان المتخوف منه هو المتسبب فيما يصرف الغصب والعداء عن ملكه، وهذا ظاهر لا إشكال فيه.

قال أبو القاسم عبيدالله بن سليمان: كنت أكتب لموسى بن بغاء وكنا بالري وقاضيها إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعةً هناك كان له فيها سهام ملك، وكان فيها سهم ليتيم، فصرت إلى أحمد بن بديل، فاستحضرت أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيع عليه حصة اليتيم ويأخذ الثمن فامتنع وقال: ما لليتيم حاجة إلى البيع، ولا آمر أن أبيع ما له وهو مستغن عنه فيحدق على المال حادثة، فأكون قد ضيّعت عليه. فقلت: أنا أعطيك في ثمن حصتك ضعف قيمتها، فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كثر مثله إذا قلّ، قال: فأخذته بكل لون وهو يمتنع، فأضجرني فقلت: أيها القاضي لا تفعل فإنه موسى بن بغاء. فقال لي: أعزّك الله، إنه الله تبارك وتعالى، قال: فاستحييت من الله تعالى أن أعاوده بعد ذلك وفارقته، فدخلت على موسى فقال: ما عملت في الضيعة؟ فقصصت عليه الحديث فلما سمع: «إنه الله» بكى، وما زال يكررها. ثم قال: لا تتعرض لهذه الضيعة، وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح؛ فإن كانت له حاجة فاقضها، قال: فأحضرته وقلت له: إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة وذلك أني شرحت له

ما جرى بيننا وهو يعرض عليك حوائجك، قال: فدعا لـه وقـال: هـذا الفعـل أحفظ بنعمته وما لي حاجة إلا إدرار رزقـي فقـد تـأخر منـذ شـهور وأضرنـي ذلك، قال: فأطلقت له جرايته[1] . انتهت.

وهذا من آثار الصدق وإنما سقت هـذه الحكايـة لشبهها بـالتي جـرت للقاضي منذر بن سعيد مع الناصر رحمهما اللّه .

● وهذه التسببات لا إشكال فيها لوضوح شرعيتها في هذا المحل، وإنمـا التي تفتقر إلى إجادة النظر إذا كـان التسـبب فيمـا يسـتدفع بـه نقـص الجـاه أو صرف العزل، والظاهر أن ذلك يسوغ لا سيما إذا كان نقـص الجـاه أو زوال الحرمة واقعين.

ولم أقف في صرف متوقع العزل على أعجب مما اتفق فيـه للقـاضي أبـي القاسم الحسني ـ رحمه اللّه ـ، حكى ابنه شيخنا القاضي أبـو العبـاس أحمـد بـن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة العلية أبي القاسم الحسني ـــ رحمـه اللّـه ـــ أن السلطان أبا الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بن نصر ـ رحمه اللّه ـ مستقضيه، عنَّ له غرض في الاسـتبدال مـن أبيـه القـاضي أبـي القاسـم المذكـور في قضـاء الجماعة بواحد من أعلام عصره، وأمر رئيس الكُتّاب في ذلك العهد الشيخ أبـا الحسن بن الجيّاب ـ رحمه اللّه ـ أن يكتب بولاية ذلك الـذي اقتضـى نظـره أن يقدّمه عوضـاً مـن الشـريف المذكـور فتلقّـف الخبر بعـض الكُتّـاب ممـن كـان

---

(١) رحم اللّه سلفنا الصالح إذا ذكر باللّه وقف وآب وانهمرت عبراته فكانت قلوبهم وجلة مطواعة لأمـر اللّه فهذا القاضي يعرف حق اللّه في مال اليتيم والحاكم يقف عند ذكر اللّه مع عزه وسلطانه فحفـظ اللّه بهـم مال اليتيم فأنى برجال مثل هؤلاء برجال هذا الزمـان الـذي ضيعـت فيـه الأمانـات وأكـل فيـه مـال اليتيـم وقست فيه القلوب فلا تؤوب إذا ذكرت باللّه فإنا لله وإنا إليه راجعون.

القاضي الشريف قد وتره بعدم قبول شهادته أو ما أشبه ذلك مما يقع للقضاة كثيراً مع غير المستحقين مما يتطلبونه من رتبة عدالة أو ولاية خطة. فذهب ذلك الكاتب إلى مجلس القاضي من المسجد الأعظم وقعد أمامه وأعلمه بتأخيره عن الخطة في معرض الشمات به والانتقام منه، وظن الكاتب أن ذلك الأمر قد انعقد، فلا يمكن حلّه، وأحكم فلا يسع نسخه، وأن القاضي ليس عليه من سلطان، فلا يلحقه ضرّه، فظهر للقاضي من باب الدهاء وعدم احتمال الهضيمة أن أمر أعوانه بالقبض على ذلك الكاتب البائس وناله بذنوب من العقوبة والإشادة عليه هذا جزاء من خرّج سرّ السلطان. ثم صرفه للاعتقال، وارتفع عن مجلس القضاء. فما كان بأسرع من وصول الخبر على حقيقته للسلطان العازم على عزله، فبدا له عن ذلك، وامتلأ غيظاً على الكاتب النموم بسره، فصرفه عن الكتابة، ورأى أن نكال القاضي منه في موضعه، وأقرّه في قضائه إلى وفاته.

فهذا من الأسباب التي وافقت القدر في صرف العزل ودوام الولاية. وكان شيخنا الشريف أبو العباس يحكي أن الخطيب أبا علي القرشي اعترض على أبيه ما صدر منه للكاتب، فقال له: يا أبا علي إنك رجل صالح ولست بفقيه، إن للقاضي أن ينتصر لنفسه ممن أساء عليه الأدب، وهو أولى من العفو. فقال له الخطيب: وهب ذلك كذلك فقد كنت معزولاً. فقال له القاضي: بخبر من كنت معزولاً؟ إن المخبر بالعزل فاسق عندي، فخبره ليس بمقبول حتى يعمل عليه، وإذايته واقعة لمن هو مولّى بحق. فسكت الخطيب.

وقد يكون الخوف على القُنْية المالية من ظلوم يغتصبها أو يغتصب بعضها، ولا يمتنع التسبب في دفع ذلك بالوجوه المرجوِّ فيها النُجح، المأمول

فيها النفع، المأمول فيها التصرف.

وهذه الصورة التي يتوقع فيها التمحيص ثم يتلافى اللّه بصرفه متسعة جداً، فما من قنية مالية أو جاهية إلا وهي بصدد الذهاب والزوال في كل لحظة لحظة، والطمع في غير الدائم أن يكون دائماً وفي غير الثابت أن يكون ثابتاً هو الذي يؤدي لاستثقال هذه المتوقعات، ولو أخذت هذه الأمور أولاً مأخذها لما كان في زوالها إذا زالت ما يستنكر، ولما كان في ذهابها إذا ذهبت ما يستثقل.

وهذه الدعوى بكثرة توقع هذه الابتلاءات في هذه المقتنيات مما لا يفتقر عليه إلى دليل، فكل ذي مال من عقار وغيره يتحقق أن اللّه هو الواقي لماله من تسليط الغصاب والسراق ودفع آفات السيل والحريق وكف أيدي الظلمة وأهل الجور وصرف شر الحسدة وإصابة العين.

وكذلك كل ذي ولاية من الملك فما دونه يتحقق أن اللّه هو الذي يحمله في ولايته ويصرف عنه مضرة المثابرين على إذايته، فما من ولاية إلا ولها طلاب وعليها حساد كلهم يسعون في إرغام ذلك المتولّي وإتعاس جدّه وبحسب نفاسة الولاية وجلالتها تكون السهام المفوقة إلى متولّيها.

وقد لحقني من هذا الخوف المتوقع في المال القريب من الوقوع ما عظمت بصرفه من اللّه المنّة، وجليت من قبله بالنجاة منه النعمة، وذلك في الوقت الذي قدمت فيه من مالقة على السلطان أبي الحجاج رحمه اللّه في قصد الموادعة بينه وبين السلطان الغالب باللّه أيده اللّه، فإن أرباب دولته كان من رأيهم الأنكد إغراء العامة بي، وتسليط الرعاع على جهتي، فوقع من توعدهم بهدم الدور وخراب الأملاك ما كان مقتضى الحال شاهداً بوقوعه ودليلاً على

حصوله، لما سبق من أولئك الغوغاء في الأملاك الموالية لهم لي ولغيري، فقد كانوا عاثوا في إفسادها، وابتدروا إلى انتسافها، جرأة منهم على الله فيما نهى عنه من إضاعة المال، وتعدياً على خلقه، واستطالة على ما أبدع من أنواع رزقه، صادراً ذلك منهم عن غلّ كامن وحسد باطن، والله بالمرصاد، وعند الله تجتمع الخصوم. وأنا معترف بالذنوب الموجبة لتلك العقوبة، وراجٍ أن لا يضيع الله حقي عند من لم أجن عليه. فصرف الله من هذا المتوقع أمراً عظيماً وبلاءً مبيناً، و لله الحمد على ذلك.

وقد يتسنى في بعض هذه الصور من التدبير الإلهي ما تعجز عنه الأسباب، وتعتبر في تباين ما بين مبدئه ومنتهاه الألباب؛ كما حدّث عليُّ بن يحيى بن منصور قال: حدثني بعض التجار قال: حملنا متاعاً من الصين إلى الأُبُلّة وكان قد اجتمع ركب فيه مقدار عشر سفن قال: فبينا أنا قد أصلحت ما أردت من السفر إذا شيخ قد وقف عليّ وسلّم فرددت عليه السلام فقال: يا هذا! إني قد صرت إلى التجار في هذه السفن فسألتهم قضاء حاجتي فلم يقضوها، وأنا أسألك أن تقضيها لي فقلت: وما حاجتك عافاك الله؟ قال: أقول لك بعد أن تضمن لي قضاءها. قلت: أفعل، فأحضر رصاصة مثل الكرة فيها نحو من مائة منّ وقال لي: تأمر بحمل هذه الرصاصة معك، فإذا صرت في لُجّة بحر كذا وكذا، وذكر لجة هائلة، تطرحها في البحر. قلت: يا هذا! ليس هذا مما أفعله. قال: قد ضمنت لي وسبق فيه وعدك، ولابد لك من الوفاء به. قال: فلم يزل حتى قبلتها ثم قال لي: أحضر برنامجاً واكتب ذكرها فيه لئلا تنساها، وتذكّرني إذا رجعت فتخبرني بما صنعت، ومنزلي في موضع كذا وكذا. فكتبت ما قال من صفته، وخرجنا حتى إذا مررنا بتلك اللُّجة وصرنا

نسيت، حتى إذا وافينا موضعنا بعت فيه ما كان معي، وحضرني رجل فقال: ما هذا الذي معك؟ رصاص؟ فقلت: ليس معي رصاص. وكنت نسيت الرصاصة، فقال لي غلامي: معنا رصاص. قلت: لم أحمل معي رصاصاً. فقال: بلى رصاص الشيخ. فذكرته، فقلت: خالفناه وبلغت إلى هذا الموضع وينبغي أن أبيعه له، فإن ذلك خير مما أراد به. فقلت للغلام: أحضرها، أحضرها، وساومني الرجل بها فبعتها منه بمائة وثلاثين ديناراً، وابتعت للشيخ بها من طرائف الصين، وخرجنا حتى وافينا الأُبُلّة، فبعت ما كان معي، وبعت تلك الطرائف، فبلغ ثمنها سبعمائة دينار، وصرت إلى البصرة إلى الموضع الذي كان الشيخ وصفه لي، ووقفت بباب داره، وسألت عنه، فقيل لي إنه قد مات. فقلت: هل خلف أحداً يرثه؟ قالوا: لا نعلم له إلا ابن أخٍ في بعض نواحي البحر. فسقط في يدي، وبقيت لا أدري ما أعمل بما كان له عندي. وقيل لي إن داره موقوفة بيد أمين القاضي، فرجعت إلى الأُبلّة والمال معي لا أدري ما أعمل به فبينا أنا ذات يوم جالس إذ وقف على رأسي رجل فقال: أنت فلان ابن فلان؟ قلت: نعم. قال: كنت خرجت إلى الصين؟ قلت: نعم. قال: وبعت رجلاً هناك رصاصة؟ قلت: نعم. قال: أفتعرف الرجل؟ فتأمّلته وقلت: أنت. قال: نعم يا هذا، إني قطعت من تلك الرصاصة شيئاً لأستعمله فوجدتها مجوفة ووجدت فيها اثنى عشر ألف دينار، وقد جئت بالمال، فخذ مالك ــ عافاك اللّه ـ قلت: ويحك، واللّه ما المال لي، ولكنه كان من خبره كذا وكذا، وحدّثته بحديث الشيخ كله، وأنه قد اجتمع من ثمن الطرائف سبعمائة دينار أيضاً لا أدري ما أصنع بها. فتبسم الرجل ثم قال: أتعرف نسبي من الشيخ؟ قلت: لا. قال: فأنا واللّه ابن أخيه، وليس له وارث غيري، وأراد أن يزول هذا المال عني، وهو غرّب بي من البصرة منذ تسعة عشر عاماً، فأبى اللّه إلا

وصول المال إليّ على رغمه. قال: فأعطيته السبعمائة دينار الـتي كـانت معـي، ومضى إلى البصرة وأخذ متاعه وأقام بها. انتهت.

ومن تأمل هـذه الحكايـة حـق التـأمل، تعجـب مـن التصريـف القـدري والتدبير الإلهي، وشـاهد مـن جميـل صنـع اللّـه في تصيير هـذا المـال لمسـتحقه، وعكس قصد من أراد قطع رحمه بصرفه عن وارثه مـن غـير أن يسـتعيض مـن ذلك في الآجلة أجراً، ولا يكسب به في العاجلـة شـكراً؛ فقـد كـان صرفـه في وجوه البر على معارضة لقوله ﷺ: **«إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»**[1] أولى من رميه في لجة البحر، لولا أن اللّه زيّن له سوء عمله، فرآه حسناً حتى يكون ذلك القصد من إتلافـه علـى مسـتوجبه هو السبب في تلافيه له وجبره عليه. وقد كان ذلك الوارث مـن التحـرج عـن أخذ ما ليس له بالمنزلة التي اقتحم بها تلك الشقة في التقصّي عن عهدة ما ليس له، والخروج عمّا بيده مما اعتقده ملكاً لغيره، لما قيض اللّه له من أمانـة التـاجر تتمة لما جبر عليه من المال، ولما تحقـق مـن قبلـه أن مـا بيـده هـو مـال موروثـه السائغ له الانتفاع به. إن في ذلك لذكرى لمن تذكّر وتبصرة لمن تبصّر.

كما أن من أعظم ما يتحدَّث به من التمحيص المتوقَّـع في الجـاه الظـاهر المخائل في الوقوع، والقريب الأمارات من الحدوث، ما شوهد عياناً في جهتـه في قضية الرجل المعروف بيوسف المدجَّن الشـيرة الكيـان، المدركـة بالأسـنان، منذ سنين تجاوز العشرين، فقد كان في ذلك ما يقضي منه العجب من شـاهده أو باشره، من رجلٍ لم أعرفه قط ولا فاتحته بكلمة، إلا أنه كـان يبـدو لي مـن ظاهره أنه بعيد من ترف الحضارة، وعريق في نسب البداوة، مثل رعاية البُهْمِ

(١) متفق عليه. البخاري (٢٧٤٤) ومسلم (١٦٢٨) وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

وإثارة الفلاحة، وما أشبه ذلك، يستظهر مع ذلك من السذاجة البارزة في مسلاخ القحة والاستصحاب لأضغاث من العشب يفرغها جهلة العوام في قالب حسن الظن. حدثني من أثق به أن شيخنا القاضي أبا القاسم بن سرّاج ـ رحمه اللّه ـ أمر بإخراجها من المسجد الجامع، إذ كان لا يفارقها إذا دخل المسجد أو غيره، ويهتف في أثناء تصرفاته، بأفذاذ كلمات لا طائل تحتها يحملها أولئك المفتونون بأمثاله، من أولي المنازع الغريبة، ثم ترقى من هذه الحالة إلى إنشاء شواني[1] مختلفة الأوضاع من الصغير الذي يعتمد فيه أوصاف الجرم[2] واستخفاف الثقل، والكبير الذي يقصد فيه تكثير أعداد المقاتلة وتوسعة احتمال العدد والمرافق، فتمّ له من ذلك على طريق ابتغاء ما عند اللّه واستجداء ما ينطوي على تحسين الظن بأولياء العباء والدبابيس[3] ما لا يتم لأولي الوجد[4] من الملوك، ولم يزل السلطان ـ أيده اللّه ـ يندرج في طي خلوص النية فيه، ويُسعِدُ قصده من ذلك بكل ما لا يوجد من آلات تلك السفن التي تصدى لإنشائها إلا في دور صنعة الإنشاء، حتى ينفرد بها أولو الأمر، ويتميز بأمثالها في هذا القطر ولاة الملك، غير مصغ في الأخذ بالتقية من مثل ذلك الرجل لمقتضى الحزم من أرباب النصح، إلى أن استفحل أمره وأعضل داؤه، وأعوز طبه، وأعيا علاجه، فلم يرع السلطان ـ أيده اللّه ـ يوماً ما إلا هجومه على بعض أرباض الحضرة داعياً الناس إلى بيعته، فانتدب له من الغوغاء والأوباش عدد الحصى، هاتفين بالخلعان، معلنين بالإقامة لدعوته،

---

(١) جمع شونة بسكون الواو وهي المركب المعد للجهاد في البحر.

(٢) زورق يمني وجمعها جروم.

(٣) العباء: كساء معروف والدبابيس: المقامع وكان يتخذها نبلاء الأندلس.

(٤) الغنى.

متهالكين بالاستماتة في طاعته، باذلين للنفوس والأموال في خدمته، فاستطار من فتنةٍ شواظٍ إياس النفوس الضعيفة من خموده، وعصف من محنته إعصار أوهم القلوب المشفقة ألا طمع في ركوده. ولم يكن إلا: كلا، ولا، وإذا بذلك الشواظ قد انطفأ، وذلك الإعصار قد سكن وهدأ، فركب الليل جملاً، وغشيته الضيقة أفسح ما كان أملاً، وانكفأ على أدراجه، ظاهراً فيه قصد الإملاء باستدراجه. وكفى اللّه تلك الوهلة وجلا تلك الغمرة. وتوجه في طلبه من خدام السلطان من كانت منيته على يده، فهلك في هذه السبيل.

وكان من أغرب ما يوقف عليه في التواريخ السالفة قضية المؤيد هشام، وما وقف من الإرجاف بحياته بعد موته مرة أو مرتين حسبما حكى ابن حيّان في مقتبسه وغيره من المؤرخين، فأرانا اللّه لهذا العهد في ذلك الرجل المعروف بالمدجّن هذه الغريبة المستبعدة كانت على هشام المذكور، فبعد معاينة رأسه محزوزاً من جسده لا يرتاب فيه أحد ممن شاهده، ولا يشك فيه بشر ممن عاينه وقف على ذلك من الخلق من لا يحصيهم إلا خالقهم عز وجهه، ولا يحصرهم إلا بارئهم جلت قدرته، حتى إذا وارى ذلك الرأس التراب، وطمس شكله التغيير، طفقت زعنفة من أتباعه يقولون فيه بالرجعة، ويزعمون أن ذلك الذي صلب كان غير جثمان الذي طلب، وذلك الرأس الذي طيف به علانية كان غير رأسه، ومن قال إنه كان فهو عندهم كاذب لا محالة، ويزعمون أن ذلك الذي قتل هو رجل كان يشبهه، فشُبِّه لهم به، وليس هو المدجّن. مقالة شنيعة لا تنتهي القحة لأعظم منها. ثم صاروا يدّعون رؤيته، ويرتقبون ميعاد خروجه، ويسندون الروايات عن فلان وفلان من خدّامه أنهم لقوه في الكهف الفلاني والغار الكائن بجبل كذا، وأنه أخبرهم أنه خارج عمّا قريب، فيملأ

الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، ويقولون أموراً تغيظ الحليم وتزعج الوقور، وربما تغالى بعضهم فيجاوز في الأيمان المحرجة على ذلك الغموس إلى ما لا يحل شرعاً من الطلاق وغيره.

فاعجب لهذا التمحيص القريب كان من الوقوع، وما كف اللّه من معرته وصرف من مضرته. وليست هذه القضية مما تستوفى بالقلم بياناً لا سيما مع الاختصار؛ فقد كان حالها عظيما وخطرها كبيراً. وربما كانت أول أمر سهل هذا الخلاف، وأوقع الافتراق بين القلوب، واللّه غالب على أمره، سبحانه لا إله إلا هو.

وهذا النوع الذي استظهر به هذا المدجّن من تغطية قصده أولاً للثورة بالصلاح، وإبراز تصرفاته المفضية أخيراً إلى طلب الملك، في مسلاخ الانتماء للولاية هو الذي مُنِيَ به المرابطون من المتسمّي بالمهدي القائم بدولة الموحدين. ولذلك كانت هذه الدولة الموحدية لا تسامح أحداً ممن يستظهر بتغيير منكر في قالب الديانة، أو تحيز عن الجملة بخصوصية علم أو ولاية، إذ كان توليهم على الملك من هذا الباب حسبما حكى المؤرخون من ذلك أعاجيب، وهو الجاري على قول أردشير في عهده إلى من بعده من ملوك فارس. فإنه قال فيه: «إن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتناوله والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة الملك على التهاون به، فتحدث في الدين رياسات مستسرّة فيمن قد وترتم وجهوتم وحرمتم وصغرتم من سفلة الرعية وحشو العامة»[1]. انتهى. وفيه ما يشعر بما يجب من التحفظ من نمط المدجّن

---

(١) وما أشبه ذلك بما يموج في عصرنا من الويلات باسم الدين حتى رأينا من لا يرى الحكم إسلامياً إلا إذا كان هو على رأس هذا الحكم، ويحشد في ذلك الأقلام والدعاة والشباب المتحمس الذي لا يميز، وسبيله في=

ممن استظهر بصلاح أو دين، وما يرد على الملوك من قبلهم من التمحيص. وقانا اللّه من كل داعية للفتنة وموجبة للفرقة.

وما نقلنا من هذه الصورة كفاية، إذ كان موضوعها متسعاً جداً، ومختلفاً للأنظار غاية. و لله في صرف هذه المتوقعات لطائف جميلة.

تتميم

إن كان بصدد شيءٍ من هذه الابتلاءات فنجاه اللّه منها، وأصاب به سواه، فهو دائر بين : أن تكون نجاته بتوبته من الذنوب الموجبة لتلك العقوبة أو لتجاوز اللّه عنه فيلحق بالبريء. أو تكون نجاته إمهالاً في سبيل الإملاء له.

وعلى كلا التقديرين فينبغي له أن يستكثر من حمد اللّه على ما منحه من النجاة للاحتمال الأول، وأن يستشعر كون من أصيب بذلك الخطب دونه خيراً منه لما أصابه مما لعلّه في سبيل الإعظام لأجره أو التخفيف لوزره للاحتمال الثاني.

❖❖❖

=ذلك تسفيه كل مخالف له ووصفه بالجهل لو كان من أهل الفضل والعلم و لله الحمد ليس فيهم من أهل العلم ممن يعتد به في علمه أحد. وكذا الدفع بالشباب إلى آتون المواجهة مع أولي القوة فتسفك الدماء بغير حق وهم في مأمن ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

الصورة الثانية

● أن يكون الابتلاء في المقتنيات العزيزة على النفوس، كالمال والجاه، واقعاً في الحال، وهو مأمول الجبر، مرجو الزوال.

وهذه الصورة أوسع من التي بعدها، لإمكان الجبر في هذه الأمور، لأن أعلى أجناس هذه المقتنيات على الجملة إما جاه وإما مال، وكلاهما ممكن التلافي بعودته كما كان؛ فكم رأينا من ذي جاه أو مال أو كليهما قد سلب ذلك، ثم أعاده اللّه إليه كأحسن ما عوّده! ولا يبقى في الصورة الثالثة إلا ما حال دون عودته أو دون عوضه مانع يمنع منه بتّاً، أو كان من الندور بحيث لا يوجد منه عوض، ولا يتأتى عنه بدل.

ولا شك أن هذه المقتنيات على الجملة من الأمور التي بها للقلوب تعلق عظيم، وللنفوس عليها حرص شديد. ولن يخفى كلف النفوس بهذه الأمور، وتمكن إيثارها من القلب، وفرط ميل الخاطر إليها.

ومن البين أن اختصاص الابتلاء بهذه الأشياء دون شموله لما هو أهم للإنسان منها ـ كالنفس وما سيق معها من الصحة وغيرها ـ مما يوجب طموح الفكر، لاستعظام الواقع ذاهلاً مما منح اللّه السلامة منه. ولكون النفس بمنجاةٍ من الآفة في هذه الحال تعتريها الغفلة كثيراً عن مشاهدة لطف اللّه في تمحيصه بكونه خاصّاً بالقُنية المالية والجاهية وما أشبه ذلك، دون أن يقع في النفس أو

في الأعضاء التي يودّ المبتلى فيها لو بذل ماله في وقايتها وحفظها.

ومن الواجب هنا استحضار هذا المعنى، وأن الابتلاء كما خص فقد كان من الجائز أن يعمّ، أو يقع في الأنفس على الممتحن دون الأخسّ عنده إذا تأمل حق التأمل.

ثم إذا نظر في هذا المفقود بالابتلاء، إذا كان مالاً فقد يسلم سواه مما لو شملته الآفة التي طرقت غيره لم يكن ذلك بدعاً، فحق على المصاب بهذا المعنى أن يتسلّى بتحقيق النظر في هذا حتى لا يجد لما فقده ألماً، فلو فرض استئصال ماله ففي سلامة النفس ومن يعزُّ عليها من أهل وبلد وأحبّة ما يسهل به فقد كل مفقود، لأنّا نرى كثيراً من المبتلين بنوائب الدهر في أنفسهم أو من يعز عليهم يبذلون جميع ما يملكون في خلاص نفوسهم من الابتلاء الذي يكونون فيه، ثم لا يكون في ذلك عتاب عليه، وإلا فكم من أسير قد بذل ماله كله في فكاك رقبته من ربقة الأسر! وكم من مصادر أو منكوب قد خرج من موروثه ومطوَّبه فراراً من العذاب المعروض عليه أو على من يكرم عليه! وذلك لوجود البذل من المال وعدم وجوده من النفس ومن ذكر معها كما قال الفرزدق:

يمضي أخوك فلن تلقى له خلفاً   والمال بعد ذهاب المال يكتسب

من البين إذاً أن شدة الشغف بالمال والحرص عليه إنما هو بعد سلامة الإنسان من الآلام التي تؤذيه في الجسم أو النفس أو فيهما معاً، وفي هذا المعنى يقول أبو النجم المرعي رحمه الله:

هي الأيام من نعمى وبوس   وكرات السعود على النحوس
فلا يعظم عليك ذهاب مال   وخيل أو رقيق أو لبوس
فكل المال محقور يسير   إذا سلمت حشاشات النفوس

وفي اللازم عن عدم المال وعن وجوده قال حسان بن ثابت ﵁ :

ربَّ حلمٍ أضاعه عدم الما ... ل وجهل غطى عليه النعيم

وقال بعض أهل الحكمة: الغنى في الغربة وطن، والمقل في أهله غريب. وإن شيئاً يكون عدمه سبباً في ضياع الحلم، ووجوده سبباً في تغطية الجهل، ويكون في الغربة مغنياً عن الوطن، وفقده في الوطن قائم مقام الغربة، بما يدخل من الغم، ويسبب من الكربة، لجدير أن يهتم لفقده، وتجزع النفوس لفوته. وقد ظرف القائل في فضل الدرهم من أسباب الغنى:

وقائلةٍ: ما الحلم والفضل والتقى ... وما الدين والدنيا؟ فقلت: الدراهم

تداوي جراح الفقر حتى تزيلها ... وما هي في التحقيق إلا مراهم

وأنشد أحمد بن الحارث فيما ينحو نحو قول حسان:

تغطي عيوب المرء كثرة ماله ... يُصدّق فيما قال وهو كذوب

وتزري بعقل المرء قلّة ماله ... يحمّقه الأقوام وهو لبيب

وأنشد أحمد بن الحارث فيما ينظر إلى ذلك:

كم لئيم الجدود سوّده المال أبوه وأمه الورِق!

وكم كريم الجدود ليس له عيب سوى أن ثوبه خلِق!

وهاتان القطعتان في المعنى قريبة إحداهما من الأخرى. ولذلك يعظم الابتلاء بما يفقد من المال، إذ ومن مسبباته إحالة صفة اللبابة إلى ضدها وعيب كرم الجدود بإخلاق الثوب.

وما سبق في الصورة الأولى من إظهار التحمل وإيثار التجمل فاستعماله

هنا أوجب والتحقق به ألزم، وما يجب هنالك من الصبر والتسليم والرضا والتفويض فإنه هنا آكد في باب الوجوب وأسعد بالغرض المطلوب.

وما يعرض من استحضار التسلي واستشعار الراحة بالتأسي فله في هذا المحل مناسبة بيّنة، وله في هذا الموضع فائدة متعيّنة، والشكر لله على ما أبقى من نعمه ثمرة المزيد التي يجبر لها النقص وينجح بها القصد، ولذلك قال ابن شرف في حكمه: «اعلم أن صبر النفس وعمل الجوارح اجتمعا فنتجا ستة أولاد، فضرب ثلاثة منها بعرق إلى الصبر من أبويها، وهي القناعة واليأس والسلوة، فتولّت القناعة الرضا بالحاضر، وتولّت السلوة طيب النفس من الماضي، وتولّى اليأس كفّ الرغبة في المستقبل. وضرب ثلاثة منها بعرق العمل من أبويها، وهي الطاعة والأداء والوصول، فتولّت الطاعة الانقياد، وتولّى الأداء توفية الغرض، وتولّى الوصول إدراك المطلوب. ثم إن القناعة لّما تولّت الرضا بالحاضر نتجت الغناء، والسلوة لما تولّت طيب النفس عن الماضي نتجت الراحة، واليأس لما تولّى كفَّ الرغبة في المستقبل نتج التسليم. ثم إن الطاعة لما تولّت حسن الأداء نتجت الأثرة، والأداء لما تولّى توفية الغرض نتج الغبطة، والوصول لما تولّى إدراك المطلوب نتج النيل، ثم الغناء والراحة والتسليم والأثرة والغبطة والنيل اجتمعت فصارت غنيمة، ومن غنم فقد فاز فوزاً عظيماً». انتهى.

وهذا مناسب جداً لما نحن بسبيله، فانظر ارتباط هذه الأسباب بعضها ببعض، وما حصل منها من الخيرات المسماة عنده خيراً وغنيمة.

وحدث الجاحظ قال: «حدثني حميد بن عطاء قال: كنت عند الفضل بن سهل وعنده رسول ملك الخزر، وهو يحدثنا عن أخت لمليكهم قال:

أصابتنا سنة احتدم شواظها بحر المصائب وصنوف الآفات، ففزع الناس إلى الملك، فلم يدر ما يجيبهم. فقالت أخته: أيها الملك إن الخوف لله علق لا يخلق جديده، ولا يمتنع عزيزه، وهو دال الملك على استصلاح رعيته، وزاجره عن استفسادها، وقد فزعت رعيتك إليك بفضل العجر عن الالتجاء إلى من لا تزيده الإساءة إلى خلقه عزاً، ولا ينقصه العود بالإحسان إليهم ملكاً، وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدلالة من الدال، ولا بحسن الرعاية من الراعي، ولم تزل في نعمة لم تغيرها نقمة، وفي رضا لم يكدره سخط، إلى أن جرى القدر بما عمي عنه البصر، وذهل عنه الحذر، فسلب الموهوب، والواهب هو السالب، فعد إليه بشكر النعم، وعُذْ به من فظيع النقم، فمتى تنسه ينسك، ولا تجعلنّ الحياء من التذلل للمعزّ المذل ستراً بينك وبين رعيتك، فيستحق مذموم العاقبة، ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة، وبتذلل الإنس في الدعاء بمحض الشكر له، فإن الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيئ فعل إلى صلاح عمل، أو ليبعثه على دائب شكر ليحرز به فضل أجر. فأمرها الملك أن تقوم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام، فرجع القوم وقد علم اللّه منهم قبول الوعظ في الأمر والنهي، فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع، فاعترف لها الملك بالفضل، فقلدها الملك فاجتمعت لها الرعية على الطاعة في المكروه والمحبوب. قال: وهذا وهم أعداء اللّه وضرائر نعمته ومستوجبو نقمته، أعاد اللّه لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم بالإقرار له بكنه قدرته ما تمنّوا، فكيف بمن يجمعه على الشكر نوران اثنان قرآن منزّل ونبيٌّ مرسل! لو صدقت النيات، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات، لكنهم أنكروا ما عرفوا وجهلوا ما علموا، فانقلب جِدهم هزلاً وسكوتهم خبلاً». انتهى.

وهذا الكلام في غاية النفاسة، ومعناه شاهد لقائليه بالعقل والرجاحة، ونحن باعتقاد محصوله أحق، والمحذور الذي حضّت على اجتنابه بنا أخصّ.

ولا بد من الإشارة إلى ما يناسب هذا الموضع من تلك الأحكام على اختصار، وبحسب ما يليق منها بهذا القصد بعد أن يُقدَّم هنا مقدمة تحسن في صور هذه الصورة. وذلك أن المقتنيات العزيزة على النفوس من المال والجاه وما يندرج تحت ذلك من الأمور المحبوبة للناس عادة من متاع هذه الحياة الدنيا، ولن يخفى ـ كما ذكر قبل ـ شدة الميل إليها، والحرص عليها، وتسرع النفوس إلى اقتنائها، ومبادرة الأيدي إلى اكتسابها، وميلان القلوب إلى التنافس فيها، والاستكثار منها، والاستيلاء عليها، والازدياد من أعراضها، والافتنان في أنواعها، والمغالاة في التماس أعلاقها، والمباهاة في اقتناص أفذاذها. وهذا مغروز في الجبلّة وموضوع في أصل الخلقة، ولا تمكن المنازعة في ذلك لقوله تعالى: ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾ [الكهف: ٧]، ولقوله تعالى: ﴿**زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا واللّه عنده حسن المآب**﴾ [آل عمران: ١٤]، وبقوله تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾ [الكهف: ٤٦]، مع قوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها**﴾ [القصص: ٦٠]، فهذه الأمور كلها معروضة لتوقان النفوس إليها وميلان القلب نحوها كل واحد من الناس وما أثر من ذلك.

وليس من جاري عادة اللّه اتفاق الخلق على معنى واحد؛ لاختلاف قواهم وأساليبهم في الاختبارات والاقتراحات، وتباينهم في الطبائع والهمم والأخلاق والانتسابات، وإنما هذا على الجملة، والميل إلى ذلك طبيعي لهم لا يفتقرون فيه إلى باعث. ولما علم اللّه من النفوس من الشره إلى ذلك والميل

للاستكثار منه فوق الحاجة التي تقوم بها المصلحة حض هنا على الزهد في الدنيا التي هي مشتملة على هذه الأنواع كلها لأنه قد قيل: «حب الدنيا رأس كل خطيئة». وفي هذا المعنى يقول القاضي أبو بكر بن شبرين ـ رحمه اللّه :

أثقلتني الذنوب ويحي ويسي ليتني كنت زاهداً كأويس

إنما أصل محنتي حب دنيا هي ليلى ولي بها وجد قيس

وإذا كان أصل المحنة بأثقال حب الدنيا فهو بمعنى كونه رأس كل خطيئة، ولذلك يكون الزهد فيها رأس كل عبادة. وقد عد العلماء الحديث عن النبي ﷺ بالأمر بالزهد في الدنيا ربع الإسلام، وهو الحديث المروي في سنن ابن ماجة عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه ! دُلّني على عمل إذا عملته أحبني اللّه وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبك اللّه وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**»[1] .

وإذا كان ذلك كذلك فإن هذه الرتبة التي هي الزهد رتبة عظيمة ومزيّة رفيعة. قال اللّه تعالى في معنى التبيين لحقيقة الدنيا والترغيب عنها والتعريف بحقيقة الآخرة والترغيب فيها: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فما أحرى الدار التي حقيقتها لهو ولعب أن يزهد فيها العقلاء ويرغب عنها الألبّاء، وما أحقّ الدار التي هي الحيوان أن يحرص عليها العلماء بها، ويرغب فيها العارفون بقدرها ويشمّر عن ساعد الجد لاقتنائها المنافسون فيها.

وقال اللّه تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين**

---

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) وفيه خالد بن عمرو متهم بالوضع (التقريب ١٦٦٠) ولكن أخرجه الطبراني والحاكم وصححه الألباني (الصحيحة ٩٤٤). وله شاهد من حديث أنس أخرجه أبو نعيم في الحلية.

يتقون أفلا تعقلون﴾ [الأنعام: ٣٢]، وهذه الآية في معنى الآية التي قبلها. وقال تعالى: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان اللّه على كل شيء مقتدرا﴾** [الكهف: ٤٥]، هذه الآية الكريمة ضربها اللّه مثلاً للدنيا في حين بهجتها وجمال نضرتها وسرعة تلوّنها وقرب استحالتها وأنها وإن طالت أيامها وتعددت أزمانها مثل فصل الربيع منها الذي هو بهذه الصفة من حسن الرواء وسرعة الزئال، وبيده القدرة التامة على كل شيء.

وقال اللّه تعالى: **﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾** [يونس: ٢٤]، وهذه الآية أيضاً في معنى الآية التي قبلها وفيها مزيد في المثل الذي ضربه اللّه تعالى لها.

وقول النبي ﷺ: «**ازهدوا فيما في أيدي الناس يحبكم الناس وازهدوا في الدنيا يحببكم اللّه** » أمر منه ﷺ بالزهد مطلقاً، ورتب على الزهد فيما بأيدي الناس حبهم، وذلك بيّن لأن من لم ينازع الناس فيما بأيديهم بالمزاحمة لهم عليه والمنافسة لهم فيه واستشراف النفس إلى أن تملك منه ما لهم من ذلك، واستطلاع القلب على أن يحتوي منه على ما قد احتووا عليه من ذلك، فإن حب الناس له متعيّن، فإذا ترقّى من هذه درجة وذلك بأن يزهد في الدنيا التي هي أعم من أن يكون بأيدي الناس فإنه يترتب على ذلك حب اللّه ، وهذا ظاهر فإن من ترك الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة فقد سنّى اللّه له من

أسباب القرب ما يقتضي حبه له، فإن من يسّر اللّه عليه الترقي إلى مقام الزهد في الدنيا التي هي دار الغرور فقد يسر اللّه له جوامع الخير كله، وباعد عنه أسباب الشرّ كله، ويحق أن يريح الزهدُ في الدنيا القلب والبدن، لأن من صان قلبه عن الفكرة في هذه المقتنيات الدنيوية فقد أراحه الراحة الكلية، فأحرى إذا صان بدنه عن اكتسابها أن يريحه مثل ما أراح قلبه. قال الفضيل بن عياض رحمه اللّه: جعل «الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد. وقال ابن المعتز: طلاق الدنيا مهر الجنة. وقال الكسائي الصوفي: الشيء الذي لم يخالف فيه كوفي ولا مدني ولا عراقي ولا شامي الزهد في الدنيا وسخاوة النفس والنصيحة للخلق». قال القشيري: يعني أن هذه الأشياء لا يقول أحد إنها غير محمودة. وقال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أصناف، فزهد فرض وزهد فضل وزهد سلامة، فالزهد الفرض الزهد في الحرام، والزهد الفضل الزهد في الحلال، والزهد السلامة الزهد في الشبهات.

ورُويَ أن رجلاً دخل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال له: يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث، فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

وقال أوس بن حجر:

ولست بخابئٍ لغد طعاماً   حذار غد لكل غد طعام

قال بعض العلماء: من أفضل الزهد الزهد في الرئاسة على الناس وفي المنزلة والجاه عندهم والزهد في حب الثناء والمدح منهم لأن هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء فالزهد فيها هو زهد العلماء بالله.

وقال بعضهم: رأينا من زهد في الدنيا كثيراً وقلَّ من رأينا مَن زهد في الرئاسة، وذلك أن طائفة قد تزهد في الدنيا للرئاسة، فإذا زهد في الرئاسة فهو زهد الزهد.

وقال الثوري: الزهد في الرئاسة ومدح الخلق أشد من الزهد في الدينار والدرهم. وكان يقول: هذا باب غامض لا يبصره إلا العلماء. وقال فضيل: نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة الرئاسة وقد ثبتت في قلب الجاهل. وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولبس العباء. وقال بعضهم: ليس الزهد بترك كل الدنيا ولكن الزهد التهاون بها وأخذ البلاغ منها.

ولاعتماد قصد الزهد قال سقراط: القُنية مخدومة ومن خدم غير نفسه فليس بحر. وفي هذا المعنى يقول أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذي هو مالكه
ألا إن لي المال الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي ... يحق وإلا استهلكتك مهالكه

وقال سقراط أيضاً: القُنية ينبوع الأحزان فأقلّوا القنية تقل همومكم. وما أعجب قول ذي الوزارتين الشيخ أبي عبدالله بن الخطيب رحمه الله:

أأُلقي إلى الأيام فضل مقادتي ... فتجنبني ما بين كدٍّ وإرهاق
وأُتلف بين الخلق والرزق فكرتي ... ولست بخلاقٍ ولست برزاق

إذا طوى الإثراء لي في تملق رضيت بعز النفس في عزٍّ إملاق

ومن أعظم أسباب الزهد المعرفة بحال الدنيا وما هي عليه من سرعة الانقلاب، وتفريق الأحباب، واستلاب المال، واستحالة الحال، والتعريض من الجاه بالخمول، ومن السلامة بالابتلاء، ومن الولاية بالعزل، ومن الرخاء بالأزْل، والوقوف على ما ورد في ذمّها، وقد تقدم في ذلك من آيات الكتاب العزيز والأحاديث النبوية بعض ما يرشد إلى الجليّة في القضية، وقول الأمير أبي الفضل الميكالي بيّن في إظهار عيب الغنى الذي حاصله الاستكثار من الدنيا:

وكل غنىً يتيه به غنيٌّ فمرتجع بموت أو زوال
وهب جدّي زوى لي الأرض طراً أليس الموت يزوي ما زوى لي

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **من أصبحت الدنيا همه نزع اللّه عز وجل الغنى من قلبه، وصير الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبحت الآخرة همه نزع اللّه الفقر من قلبه وصيّر الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة**»[1] .

وفي التعجّب من موفّر الدنيا لغيره يقول أبو العتاهية:

عجباً من معشر سلفوا أيّ غبن بيّن غُبنوا
وفّروا الدنيا لغيرهمُ ابتنوا فيها وما سكنوا

وذم بعض الصالحين الدنيا فقال: دار غرست بها الأحزان وسكنها الشيطان وذمّها الرحمن وعوقب بها الإنسان. يعني هبوط آدم عليه السلام من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) وفيه يزيد الرقاشي ولكن للحديث شاهد صحيح عند ابن ماجة (٤١٠٥) وأحمد ١٨٣/٥. وابن حبان (٧٢) وغيرهم من حديث زيد بن ثابت .

الجنة بذنبه. وقال عبدالله بن مسعود: الدنيا كلها هموم فما كان منها في سرور فهو ريح.

ومما روى العُتبي عن أبيه في وصيّة وصّاه بها : ولا تمل إلى الدنيا فإن اللّه لم يرضها ثواباً لمن رضي عنه ولا عقاباً لمن سخط عليه.

وقال أبو الدرداء ﷺ: من هوان الدنيا على اللّه ألا يُعصى إلا فيها ولا يطاع إلا بتركها.

فهذا كله إذا تؤمل غاية التأمل، وفُكِّر فيه بأحسن وجوه التفكر، فإنه يستدعي الزهد، ويرشد إلى احتقار زينة الدنيا وزخرفها، ويدني ما هي عليه من سرعة التقلب وعدم الثبوت. دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده:

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع اللّه من نالها
من لم يواس الناس من فضله عرض للإدبار إقبالها

فقال له المأمون: ما أجود البيت الأول وأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها، وإنما يوجب السماحة بها الأجر، والضنّ بها الوزر، فقال: صدقت يا أمير المؤمنين أهل الفضل أولى بالفضل، وأهل النقص أولى بالنقص، فقال المأمون: يا أبا ثابت ادفع إليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق. فلما كان بعد أيام عاد فأنشده:

كم غافل أودى به الموت لم يأخذ الأهبة للفوت
من لم تزل نعمته قبله زال عن النعمة بالموت

فقال له: أحسنت، الآن طبقت المعنى. وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وإن ما قصدت من هذه الحكاية البيتين الأخيرين، فإن فيهما من معنى التسلية عن زوال النعمة ما لا شيء فوقه.

ومن المحقق أن النعمة إن لم تزُل بنفسها عن المنعم بها عليه لا بدّ له من الموت. والمبالغة في هذا الباب لا تردّ أمثالنا ممن ابتلي بحبّ هذه العاجلة إلى اعتدال بوجه، لغلبة ميل النفوس إليها على إيثار الحق، وقبول مقتضى العقل. ومثل قول كسرى اردشير فيما كتب به إلى عماله من رسالة: ولا تعدّوا هذه الحياة الدنيا شيئاً فإنها لا تبقي على أحد، ولا ترفضوها مع ذلك، فإن الآخرة لا تتم إلا بها. ومثل قول عمر رضي الله عنه: ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. ومثل قول الشمّاخ مأخوذاً مأخذ الحكمة:

لمال المرء يصلحه فيُغني مفاقره أعفّ من القنوع

ومثل قول بعض الحكماء لابنه: يا بني احفظ المال فإن الرجل إذا افتقر اتهمه من كان يحسن الظن به، فإن كان شجاعاً سمّي أهوج وإن كان جواداً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان صموتاً سمي عيياً، فالموت خير له من الفقر. ويشبه هذا قول خالد بن صفوان: اطلبوا الغنى فإن الفقر مجمعة للعيوب. ونظيره قول الآخر:

ألم تعلمي أن الغنى يجعل الفتى سنياً وأن الفقر بالمرء قد يزري
فما رفع النفس الوضيعة كالغنى ولا وضع النفس الرفيعة كالفقر

وقال أبو اليقظان: ما ساد مملق قط إلا عتبة بن ربيعة. وقد ذكر نظير هذا المعنى ابن المعتز رحمه الله فقال:

إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسود في العالم

وحسبك من نسب صورة تخبّر أنك من آدم

وكل ما يندرج في هذا المعنى من الغبطة بالمال مما لم يُغفل عنه، وهذا إن احتججنا به وادّعينا أنّا نعتمده فإن ذلك يفضي بنا إلى أشد ما يكون من حب الدنيا والاغتباط بها، لتعدّينا السبيل الأوسط في تسببها، وخروجنا عن الحد المحدود في اقتنائها. وأما الكلام الوارد عن عمر وما سبقه وما ردّ به في نفسه فهو الحق الواضح الذي ينبغي أن يعتمده من أراد عمارة الدنيا على ما أجرى اللّه من سنته في خلقه دون من برّز في الزهد وأخذ نفسه مآخذ الخواص في الصلاح.

كما أن الكلام عن بعض الحكماء بحفظ المال وما بعده من ذمّ الفقر مما يمكن الجمع بينه وبين طلب الزهد وإن كان بظاهره منافياً له، فقد تعوّذ النبي ﷺ من الفقر[1] وهو رأس الزاهدين يدل ذلك على إمكان الجمع، ولكن الأولى المبالغة في الحض على الزهد، فإن طبع الناس لا سيّما في هذه الأزمنة قد جاوز الحد في التناغي في إيثار العاجلة وترك الإقبال على الآخرة. قال اللّه تعالى: ﴿**بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة**﴾ [القيامة: ٢٠ -٢١]. وإذا كان الخطاب بهذا وارد العموم بالآية فنحن الأحق بما يفهم منه من الإنكار وأولى بالدخول تحت هذه الترجمة من كثير ممن سبقنا، حسبما أرشدت إليه الأحاديث الصحيحة الدالة على انتقاص الخير وازدياد الشر. ولست بغافل عن معنى قول الجمار:

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً أمسى وأضحى بيته المسجد

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٨) ومسلم (٥٨٩) وغيرهما عن عائشة رضي اللّه عنها.

يخاف أن تنفـــــد أرزاقه والرزق عند اللّه لا ينفـد

الرزق مقسـوم على ما ترى يناله الأبيـــــض والأسود

ولكنه قد سـبق الاعتـذار عـن ذلـك في أول الكتـاب عنـد الحـض على التقوى فليتذكر له.

وإذا سلمت هذه المقدمة واعتمد معها ما ورد عـن النبي ﷺ مـن قولـه: **«انظروا في الدنيا لمن دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة اللّه عليكم»** ففي الحديث الكريم ـ لمن التزم العمل بمقتضاه ـــ ما يريح القلب والنفس ويمكّن الرضا والزهد.

وبعد ذلك النظر، فإنـه ينبغي أن يتحفّظ بالمـال مـن إضاعتـه بالانقياد لدواعي الشـهوات، ويرغـب عـن إنفاقـه في وجـوه السـفاهات؛ فـالتمحيص اللاحق من هذا الباب شر التمحيصات. والأسف فيه يعظم باعتبار ما يجرّ تلفه من التباعات.

لهذا المعنى كتب البديع إلى رجل يعزيه عن أبيه: وصلت رقعتك ـ أعـزك اللّه ـ معرّفاً بوفاة الشيخ ـ رحمه اللّه ـ والعزاء على الأعزّ رُشد كأنه الغيّ، وقـد مات الميت فليحيى الحي، والآن فاشـدد على مـالك بـالخمس، فلست اليوم كعهدك بالأمس، قد كان ذلك الشيخ وكيلـك، يضحـك ويبكـي لـك، وقـد موّلك ما ألّفه من سراه وسيره، وخلفك فقيراً إلى اللّه تعـالى غنيـاً عـن غيره، وسيعجم الشيطان عودك، فإن استلانه رماك بقوم يقولون خير المال مـا أُتلـف بين الشراب والشباب، وأنفـق بـين الحبـاب والأحبـاب، والعيـش مـن الـروح والراح، والقِداح والأقداح، ولـولا الاسـتعمال، مـا أريـد المـال، فـإن أطعتهـم فاليوم في الشراب، وغداً في الخراب، واليوم وا طربـاً للكـاس، وغـداً وا حربـاً

للإفلاس، يا مولاي ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقراً، ويسميه العاقل فقراً، وذلك المسموع من الناي هو في الآذان زمر وفي الأبدان قمر، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً من هذا الوجه رماك بآخرين يمثّلون الفقر بين عينيك، فتجاهد نفسك وتحاسب بطنك، فقصداً بين الطريقين وميلاً عن الفريقين، ولا منع ولا إسراف، والبخل فقر خاص وضر عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه، و لله في مالك قسط، وللمروءة قِسم، فصل الرحم ما استطعت وقدِّر إن أقطعت، وأن يكون إلى جانب التقدير خيراً من أن يكون إلى جانب التبذير، والسلام. انتهى.

وقد بان هذا الحد الوسط الذي هو أقرب، ولعموم الناس أنسب، إذا تُؤملت مع ما سبق في الزهد من الكلام.

عود إلى أصل الكلام:

ولنعد إلى موضع الصورة؛ فإن كان الابتلاء في مالٍ تحيّفته الخسارة، أو طرقته الإضاعة، أو اختلسه سارق، أو اعتدى عليه غاصب، فإن الصبر والتجمّل في هذا الحال من آكد ما يستعمله المبتلى، ولذلك يقول عليّ بن الجهم:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التفضل
ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التجمل

والاستغناء بما بقي عمّا ذهب فتح باب للتسلي كبير، ومظهر حزم للاستراحة من فقد ما رُزئ فيه عجيب.

وكما أن الابتلاء في هذه المقتنيات من قبل الحوادث الدنيوية عظيم، واستدفاعها عنها أكيد، فكذلك الابتلاء فيها من قبل الحوادث الدينية أعظم،

واستدفاعه عنها آكد، كقضية هذا الربا الداخل على كل أحد في مكسوبه من أجل الدراهم المغشوشة الجارية كانت فيما سلف عن هذا الوقت منذ زمان يسير، ومن أجل هذا الذهب الأبيض المغشوش الجاري إلى الآن، فإن هذه نازلة كبيرة، وفادحة عظيمة، و لم يسلم من شرها أحد، ولا أظنه نجا منها في هذا الوطن بشر، وبها تبيّن ما نقله أبو عمرو الداني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يأتي على الناس زمان يأكل الناس فيه الربا». قال: قالوا: فالناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله ناله من غباره »[1].

فتأمل هذا الحديث مع الواقع في هذه الأزمنة في السِكّة، فإنه مطابق له، وفي ذلك من الابتلاء في الدين ما نسأل اللّه العافية منه، ونضرع إليه في الخلاص من معرّته، والنجاة من مضرته.

وإن من أعظم الابتلاء العام الإصابة، الشامل العقوبة، لهذا الجراد المنتشر اللاحقة غائلته شرقيَّ هذا الوطن في هذا العام ـ الذي هو عام اثنين وخمسين وثمانمائة المرتقبة مضرّته في العام المستقبل، عسى اللّه أن يكفيها بدفاع من لدنه، فربما عجزت القدرة البشرية عن مقاومته. وقد أطبق الناقلون على أنه من تفاوت كثرته آية من آيات اللّه. وتبيّن للعقول من عيثه وإضراره أنه عقاب مرسل، وجند من جنود ربك، التي لا يعلمها إلا هو، مسلط. فتحدث أهل وادي آش وحصون سندها، وأهل بسطة وحصون حفرتها، وأهل بيرة ووادي منصورتها، أنه هالتهم كثرته، وقطعوا بإعواز مدافعته، وجزموا بالعجز عن مكافحته، ورقبوا منه في حال مروره من مغابن الأرض، حيث ذرأ السابق

---

(١) ضعيف أخرجه أبو داود(٣٣٣١) والنسائي (٤٤٥٥) وابن ماجة (٢٢٧٨) وغيرهم ضعفه الألباني [ضعيف الجامع:٤٨٦٤].

لعامهم هذا نسله، وخلف من قرارات الصعيد مستودع، فكانت تلك الفجاج الفِيحُ تموج بهم موجاً، وما على وجه الأرض من عشب أو نبات يُستأصل بسارحه أكلاً، وهي ترجف تلقاء مثارات الحرث، وأخمال الاعتمار، ومنابت الزرع، ومطارح البذر، إلى أن شارف انتسافه، وهو لا يُبقي ولا يذر مما سيقه من العشب، ومرّ عليه من النبات كثيراً ولا قليلاً، وإنما يذر الأرض بعده جرداء كأنها لم تنبت في عامها خضراً، فهنا انقسم المبتلون به إلى قسمين: فمن آخذ بالحزم ممتثل في دفع هذا الحيوان المؤذي ندب الشرع كأهلي بسطة وأهل أُشكر، فإنهم أخذوا في دفع هذا الحيوان بأقصى العزم، شمّروا في قتله ودفع أذاه عن ساعد الجد، فخدّوا له أخاديد اضطروه إلى الهوي فيها، ودكدكوا عليه بالأرجل، وألجؤوه إلى الأنهار المقمعة بالماء، ثم يستخرجون ما احتمله تيارها بغرابل الزرع، فيطرحونها في تلك الأخاديد، سالكين فيه سبيل ما اضطروه إليه من دوسه بالأرجل، وإهلاكه بما أمكن من حثو التراب عليه، وبما يناسب ذلك، وتراكم عندهم من ذلك المدوس بالأقدام أكوام تُغوليَ في أثمانها للتدمين، فبلغت زهاء أربعة آلاف حمل، بالتخمين والحدس المأخوذ فيها بالاحتياط، حسبما ثبت بذلك رسم شرعيّ شهده العدول، وورد على الحضرة تحت خطاب مستخلف قاضيها، فكان في ذلك عبرة لمن شاهده وسمع به، ومثل ذلك كان الواقع بأُشكر، فقد ورد من قائدها تعريف يتضمن أنهم فتحوا لقتلها أربعاً وعشرين ساقية أخرى حاجزة لها دونه ثم يقتلونها بغرابيل الزرع كما تقدم عن أهل بسطة، ولا يزالون كذلك إلى أن تغلبهم وتجوز الساقية راجعة إلى منابت الزرع، وهم ينتقلون أمامها إلى أن تمّ قتلهم لها على رأس الرابعة والعشرين من السواقي، وإذ ذاك كفى اللّه شرها، وتم ـ على ضعف هؤلاء المدافعين لها ـ قتلها. ومن مُلْق باليد مستسلم للعجز كأهل وادي

آش وسندها وأهل بيرة وما يرجع إليها وكثير من أهل وادي المنصورة وبعض حصون بسطة فإنهم استكثروها وألقى الشيطان في قلوبهم أنها جند اللّه الذي لا يُدافع، فكادت تستأصل جُلّ الأقوات وتُلحق الأحياء من عدم الطعمة بالأموات، إلا أن لطف اللّه للجميع متعرف، وفضله متعود، والأولون جنوا ثمرة أسبابهم الظاهرة المشروعية، والآخرون لا بدّ أن تداركهم لطف من اللّه أسأر لهم من مزدرعهم يسيراً يتبلغون به إلى ما شرعوا فيه من عمل الذرة والاستكثار من عمل ازدراع التلف فضلاً من اللّه ونعمة وهذه عريقة في هذه الصورة الثانية، وما يُرجى من اللّه دفعه من المتوقع في السنة المقبلة بالحضرة وجهاتها متجه التسطير في الصورة الأولى، وعسى اللّه أن يمنّ بدفعه ويهيئ الأسباب الموجبة لصرفه.

ونرجع إلى ما كنا بصدده من سرد الحكايات في هذا المعنى المبوب له، قال الواقدي: كنت حناطاً بالمدينة، في يدي مائة ألف درهم أضارب بها، فتلفت الدراهم، فشخصت إلى العراق، فقصدت يحيى بن خالد فسألني من أنت وما قضيتك؟ قال: أخبرته، قال: فأمر لي بأربعة آلاف دينار ومائتي ألف درهم، وقال: لتقض دينك بمائة ألف وتصلح شأنك بالباقي، ثم قال: يا غلام اعطه الدار الفلانية وافرش له الفرش الفلاني، وقال: الزمني فكن في داري، فقلت: أعزّ اللّه الوزير لو أذِنت لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم وأعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق لي؟ فقال: قد فعلت، وأمر بتجهيزي، فشخصت إلى المدينة فقضيت ديْني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته. انتهى.

وهذا من جميل صنع اللّه في جبر ما ضاع بأفضل منه، وخلف ما فات بأحسن منه.

ولمن سمت مقاماتهم في الفضل والصلاح أحوال في عدم الاكتراث لفقد هذه القُنية الخسيسة تعجب بحق منها، وفي الوقوف عليها تخفيف على من ابتلي من ذلك بشيء يعظم وجده بفقده.

كما روي أن الربيع بن خثيم سرقت له فرس وهو يصلي قيمتها عشرون ألفاً، فلم يقطع صلاته ولا انزعج فأتا قوم يعزّونه، فقال: كنت فيما هو أحب إلي منها. فجعلوا يدعون على السارق، فقال: لا تفعلوا فإني قد جعلتها صدقة، قيل: فلو جاءك بها؟ قال: لم أكن لآخذها، فإني كنت قد أحللتها له.

وسرق إزار سفيان الثوري في الحرم، فجعل يبكي، فقيل له: مم بكاؤك؟ شفقة على آخذه في الوقوف معه غداً بين يدي اللّه تعالى، ثم قال: اللهم استرنا في الدنيا والآخرة واجعله مني في حل. انتهى.

ونمط هؤلاء نمط عال، وأفعالهم غير متفقة بما عندنا من أفعال، وحسبنا أن ندعو اللّه أن يصل سببنا بسببهم.

ومن آكد ما يجب على من ابتلي بشيء من هذه التمحيصات عدم التشكّي من ذلك؛ فإن التشكّي من باب عدم الرضا. وقبيح بالعبد أن يكثر التشكّي بربّه، ويبوح بسره لمن لا يقدر على كشف كربه، ولذلك يقول ابن جبير:

عليك بكتمان المصائب واصطبر عليها فما أبقى الزمان شفيقا
كفاك من الشكوى إلى الناس أنه يسرُّ عدوّاً أو يسوء صديقا

ومسرة العدو ومساءة الصديق هو أقل ما يثمره التشكي إلى المخلوق؛ وفي الذي يلقى في ذلك يقول الشيخ أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي أو غيره:

لا تشكون لعاذر أو عاذل حاليك في السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة في القلب مثل شماتة الأعداء

فإن كان مع التشكّي تأميل غير باب اللّه في دفع ما لحق، ورجاء سوى القادر على كل شيء في صرف ما دهم، فهنالك يضلُّ السعي ويخيب القصد، واللائق بنا أن نلاحظ في مثل هذا التسبب الإذن الشرعي ملموحاً فيه التوكل على من بيده مقاليد كل شيء، ومجزوماً بأن المقصود لمثل هذه النازلة لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، ولكنّ اللّه شرع الأسباب فترتكب من حيث الإباحة لها والإذن فيها.

ومن أعجب ما حكي في تكميل قصد من فاته شيء من زخرف هذه الدنيا الغرور ومتاعها القليل ما جبر اللّه على الرشيد من خاتمه الذي كان أبوه قد وهبه إياه، فحسده عليه أخوه الهادي، ورام أخذه منه قهراً، فرماه في دجلة بمشهد من الفضل بن الربيع ثم لما أفضت إليه الخلافة طلبه له الغواصون فأخرجوه بعد عجزهم عن إخراجه لأخيه، وستأتي الحكاية بكمالها في الصورة بعد هذا، لكون ذلك المحل أنسب إليها فيما يختص منها بالهادي، وهذا المحل أنسب لما يختص بالرشيد منها لما منحه اللّه من تأتّي قصده وتسنّي غرضه في جبر ما فاته بعينه وعودته ليده بعد خروجه عنها.

ومما يشبه ذلك أن الأمير يمين الدولة ركب ببلخ إلى المتصيّد، وتعرض له مستمنح من أهل بخارى يدعو ويبرم، وكان يَضجَرُ بأمثاله، فأمر بأن يُعلى بالمقارع، واتفق أن حرّك يده، فسقط الفصّ من خاتمه، وذلك بمرأى من البخاري المصفوع، فتربص مرور المركب، ثم جاء ورفع الفصّ من الطريق، ووقع بصر الأمير على الخاتم بعدما انصرف، فأمر بطلب الفص، وشدد فيه، ثم

ركب من الغد، وقد وقف له البخاري في موقفه بالأمس، وعاد إلى إضجاره، فأمر بشرخ رأسه بالدبابيس، فقال البخاري: إن كنت غير معطي شيء من مالك فخذ ما معي من متاعك، وناوله الفص، فبهت له، وسأله عنه، فأخبره بالقصة، قال: قد أرغمني اللّه بك. وأمر بثلاثمائة دينار فأحضرت، وقال: خذها ولا تشكرني عليها، فليست بعطيتي، إنما هي من عند اللّه، ولو كانت إليّ ما أعطيتك منها واحداً. انتهت.

ومن الممكن أن يكون فاقداً مثال هذه الأشياء التي يكون بعض ما تشتمل عليه يد المروي بالتمحيص أشد جزعاً، وأعظم أسفاً ممن يفقد جميع قنيته المالية إذا قلّت، ويكون هذا المقل منها أعظم منه صبراً، وأحسن عزاءً وقد لا يبعد ذلك، ولعله الأكثر.

ولنعد إلى ما كنا بسبيله، فيروى عن إبراهيم بن الحسن أنه قال: قال رجل من أصحابنا: ضاعت نفقتي مرة وأنا في بعض الثغور، فأصابتني حاجة شديدة، فبينما أنا أفكر في حالتي إذا برجل من المتعبدين قد أشرف عليّ وهو خارج من المسجد يقول:

تبارك اللّه وسبحانه ... من جهل اللّه فذاك الفقير
من ذا الذي تلزمه حاجة ... وذخره اللّه العلي الكبير

انتهت.

وأين نحن من قول بعض السلف: نعمة اللّه علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا. وفي نحو من هذا يقول أكثم بن صيفي المثل المشهور عنه: لم يضع من مالك ما وعظك. وفي المعنى بعينه من أمثال العرب

قولهم: خير مالك ما أنفعك. كان أبو عبيدة يتأوّله: في المال يضيع للرجل يكسب به عقلاً. وقال النمر بن تولب:

ومتى تصبك خصاصة فارج الغنى ... وإلى الذي يهب الرغائب فارغب

واللائق بأمثالنا في هذا المقام الإجمال في الطلب وملاحظة إباحة الشرع في ارتكاب السبب، كما أن من الأكيد الوقوف دون الغاية التي ترامى إليها معنى قول عروة بن الورد:

ومن يك ذا عيال ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذراً أو ينال غنيمة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فإن معنى هذين البيتين يقتضي من التغالي في طلب الأسباب ما يتضمن إهمال شروطها المعتمدة فيها، وكثيراً ما شوهد المُغرق في ارتكاب السبب إذا ذهل عن شرطه المرعي من الثقة فيه باللّه وإخلاص التوكل عليه في التماس النُّجح به معاملاً بنقيض مقصوده، يتعدد في ذلك القضايا الواقعة والكوائن السالفة والراهنة، والأمر لله وبيده مقاليده، ولن يشتمل على بسط الرجاء، وحسن الانتماء، والوقوف عند الرضا بالقضاء، إلا قول الأضبط بن قريع السعدي:

لكل همٍّ من الهموم سعة ... والمسيُ والصبح لا بقاء معه
قد يجمع المال غير آكله ... ويأكل المال غير من جمعه
لا تحقرنَّ الفقير علّك أن تركع ... يوماً والدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد ما وصل ... الحبل وأقص القريب ما قطعه
وأقبل من الدهر ما أتاك به ... مَنْ قرَّ عيناً بعيشه نفعه

وشطر هذا البيت الأخير مما جرى مجرى المثل، وهو متضمن لمعنى الرضا بما قسم اللّه من المعيشة. وأمكن منه في المعنى قول القاضي أبي القاسم بن المعافي العرنوني:

رُزقت كفافاً لي وأمناً وصحّةً فما للهموم الطارقات وما لي؟!
وفي الناس مثلي غير أن ليس راضياً وأحسن من حالي رضاي بحالي

ومَن وفّقه اللّه للقيام في هذا المقام، فما يمكن أحسن حالةً ولا أعظم راحة منه.

ومن تأمَّل الوجوه التي يُسنّي اللّه منها الأرزاق، وعلم أنه يقدِّر يسيرها وإن عجزت الحيل ووهنت الأسباب، فكيف لا يقر عيناً عيشته؟! وكيف لا يسلّم الأمر لمن بيده السعة والضيق في معيشته؟. كما يحكى أنه كان فيما يجاور عبيد اللّه بن يحيى بقرطبة رجل من شيوخ قريش مختلفاً إليه مقاعداً له يكنى أبا الأصبغ، فلما كان في سنة ثمانين ومائتين أخذت الناس مجاعة عظيمة، وتوالت الأمطار، فأخبره ذلك القرشي قال: بقيت أنا وأهلي ثلاثة أيام لم نجد شيئاً يأكله ذو كبد، قال: فأحسسنا بالموت، فلما كان في صبيحة اليوم الرابع قال لي أهلي: ما جلوسك في هذا البيت ونحن كذا ؟!، وكان لي ثلاث بنات، اخرج واسع واستجد لا نموت كلنا جملة. قال القرشي: فخرجت إلى اسطواني، وأغلقت الباب، وفكرت إلى من أقصد، إلى من أمضي، وقد يئست النفس من كل أحد، وأسكبت السماء مطراً وابلاً، دام حيناً وشهوراً، فبينا أنا قاعد إذ دخل عليَّ مارٌ عليه ممطَر، والمطر كأفواه القرب، فإذا بأبي مروان عبيد اللّه بن يحيى قال: فقمت إليه، وقلت له: يا سيدي أنت في مثل هذا اليوم؟! فقال: إياك قصدي، بعد عهدي بك، وغمّني

فقرك، وأحسب أن يكون دخلت إليك الضيعة مما أكب من هذا الشتاء. وهذه عشرة دنانير تنفقها فيما تحتاج إليه، وقد أمرت طريفاً فتاي بأن يقبل إليك بحمل دقيق وربعين من الزيت حتى يفتح اللّه. قال القرشي: فشكرت اللّه تعالى، وشكرته ودعوت له، ثم خرج عني، فلم يكن إلا أن بلغ داره، وأتاني حمل الدقيق مع غلامه ستة أقفزة، وغلام ثان بجرّتين رُبعين من الزيت قد غطاها بجل دابته عن المطر، وأنزل ذلك كله في اسطواني، ثم انصرف الأعوان عني، فوقفت عند الباب، فيسّر اللّه لي رجلاً من جيراني، فقلت له: تلطّف لي في ابتياع حمل حطب وأغثني به، فقال لي: وأين يوجد الحطب في مثل هذا اليوم؟! فقلت: لعلّ اللّه ييسره، ثم أخرجت أربعة دراهم من كمّي وأعطيته، فلم يهبط إلا يسيراً حتى صادف حمل حطب، فابتاعه وأتاني به، فأنزلته في الاسطوان، ثم أقفلت باب الدار، ودخلت إلى زوجتي وبناتي فما قدرن على القيام إلا بحيلة، فلما صرن معي قلت لهن: هذا رزق، فبدرت واحدة توقد النار، وأخرى تعجن في الاسطوان، وأخرى تجعل المقلى على النار، حتى عُمل لنا خبز مغلق، فاستغثنا به، وأكلنا حتى شبعنا، وحمدت اللّه كثيراً على ما منّ. انتهت.

ومن اضطر من ضيق الحال وشدة الفاقة إلى مثل حالة هذا القرشي فإن اللّه لا يضيع عبداً خلق، وهو الذي أوجد ومنع ورزق، وما أعجب ما تضمنته هذه الحكاية من تيسير الرزق، وتهيئة اللطف، وتدارك الرمق بعد الإشراف على الهلاك، والإغاثة بالفرج بعد الإشراف على الفوت! وما خلق اللّه عند ذلك الرجل الذي أعانه بمعروفه ونعشَهُ للتفقد من الاهتمام بحاله والملاحظة لأمره في مثل ذلك اليوم الذي تتعذّر فيه المعيشة على من له قوة، ويصعب فيه التصرف على من له حيلة، فسبحان اللّه ما أوسع فضله وأعم جوده لا إله إلا هو.

بقي ابن وضّاح يوما لا قوت معه، فحركته امرأته لطلب الرزق، ولامته

على لزوم البيت. قال: فخرجت وقد ضاقت عليّ الأرض، فقلت: إلى من أقصد؟ فقصدت اللّه تعالى في المسجد الجامع، فكنت فيه إلى أن صلّيت العصر، فلما خرجت قلت: إن رجعت إلى الدار بغير شيء ضيّقت عليّ المرأة، وفي الوقت فسحة، فنويت زيارة إخوان لي في قرية المرضا. قال: فلما توسطت القنطرة إذا غلام صديق لي ومعه دابة موقرة بدقيق، وجرّة من زيت. فقال لي: فلان يقرئك السلام، وقد بعث إليك بهذا. فحمدت اللّه تعالى، وصرت بذلك إلى داري. انتهى. وهذه الحكاية قريبة من التي قبلها في المعنى، وهي في الغاية من طلب الرزق ممن هو بيده.

وكأن نقيض هذا في المعنى قول ابن التعاويذي، وما قاله حق:

سعيت إلى الغنى وجهدت نفسي ... فلم أحصل على غير العناء

فزالت راحة الفقراء عني ... ولم أظفر بعيش الأغنياء

والذي يحقق هذا المعنى ما فيه من مخالفة قوله ﷺ: «**اتقوا اللّه وأجملوا في الطلب**»[1] ولا شك أن ما قال نقيض الإجمال، فبواجب زالت عنه راحة الفقراء، ولم يظفر بعيش الأغنياء.

وإذا كان الابتلاء مما منع الرزق، أو وقوع العزل ففي مطاولة الأيام واختلاف قرائح الكرام ما تُهيأ به الأسباب، وتنفتح به الأبواب، وإنما الرزق بيد اللّه يعطيه إذا شاء ويمنعه إذا شاء. قال اللّه تعالى: ﴿**اللّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له**﴾ [العنكبوت: ٦٢] وقال اللّه تعالى: ﴿**ما يفتح اللّه للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم**﴾ [فاطر: ٢]. إلى غير هذه من الآيات التي فيها الدليل الواضح على هذا

(١) ابن ماجه (٢١٤٤) عن جابر وذكره مالك بلاغاً صححه الألباني [صحيح الجامع ٢٧٤٢]

المعنى كقوله: ﴿ **هل من خالق غير اللّه يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ [فاطر:٣] وقوله: ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى** ﴾ [طه: ١٣٢]. وقوله: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ۝ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ۝ إن اللّه هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] فمن تأمل هذه الآيات بعين العقل ونظر فيها نظر الفكر علم أن الرزق بيد اللّه وأنه هو الذي يمنحه ويمنعه وهو الذي يضيّقه إذا شاء ويوسّعه، فالموفّق الرشيد لا ينسب الفعل في الوجود إلا للّه، ولا يرى لغير اللّه في نفسه ـ فضلاً عن غيره ـ فعلاً، ولا يملك له ضراً ولا نفعاً، فكيف في الرزق الذي قد نص عليه في غير ما موضع من كتابه إنه هو الذي يبسطه ويقبضه. والواقع قد أفاد في القضية يقيناً لا يحتمله النقيض بوجه، فأنى يبقى للشك مع هذا مدخل! كلا واللّه لولا أن عقولنا سخيفة، وقلوبنا ضعيفة، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العليّ العظيم. وما أعجب في هذا المقام قول ابن مرج الكحل:

مثل الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعاً ... فإذا وليت عنه اتبعك

ومما يؤنس هنا ما سمعته غير ما مرة عن بعض الشيوخ الذين أدركوا وزارة القائد رضوان النصري ـ رحمه اللّه ـ أن بعض أعيان غرناطة المرتسمين في خطة القيادة التي هي في العرف من أوجه الرتب الدنيوية، شر وقع بينه وبين الوزير المذكور أدّى إلى شحناء ومقاطعة، فكان بينهما في آخر موطن تلاقى القائد المشار إليه بالوزير المذكور أن قال له الوزير: واللّه ما ترى على يديّ رزقاً ما أبقاني اللّه هنا. أو كلاماً هذا معناه، فراجعه القائد بأن قال: إن قُضي

لي برزق فسيكون الخلّ في مناخرك. كلمة تقولها العامة عوضاً من قول العرب: رغماً على أنفك. وانصرف ذلك القائد تاركاً للإلمام بالوزير المذكور والتعرض لمشاركته لما وقع بينهما. وطالت المدة إلى أن افتقر مستوزره لسفير فيما بينه وبين الإيالة المرينية، فرجح في نظره أن يكون القائد، لكفاية قدّرها فيه واضطلاع رجحه به على من سواه، وجهد به الوزير المذكور أن يصرفه عن هذا القصد، فلم يستطع، وصمم في العزيمة على التوجيه عنه وإجازته بمال عظيم له خطر وبال، وإعلامه بما ارتضى له من السفارة فوجّه عنه الوزير المسمّى، وأعدّ له المال والكسوة المأمور له بهما، واستحضر صحفة مملوءة خلاً، فلما حضر القائد المذكور عنده وأعلمه بما اقتضى نظر السلطان فيه ودفع له الكسوة والمال، وجعل صحفة الخلِّ عند أنفه يستنشقها إعلاماً له بأن ذلك كما قدّر على رغم أنفه لما أراد اللّه أن يرزقه، فعدّها الناس من مناقب الوزير المذكور. وانصرف القائد المشار إليه وقد صدّق اللّه ظنه وأجمل له عاقبة صبره.

وليس ذلك بغريب فيمن صدق الوجهة للّه وعزم التوكل عليه وأخلص في عزيمته التفويض إليه، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿**ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه إن اللّه بالغ أمره قد جعل اللّه لكل شيء قدرا**﴾ [الطلاق: ٣] وإذا علم اللّه صدق عبده في توجّهه بهمته إلى بابه وتعلّقه بالكلية بعليِّ جنابه فإن اللّه بفضله يهيئ له أسباب اكتسابه، وييسر له من الخير ما لم يكن قط في حسابه، وأشبه شيء بهذه القضية ما حدّث به أحمد بن إسرائيل حسبما حكاه عنه غير واحد قال: كنت كاتب محمد بن عبدالملك الزيات فقدم عليه رجل من ولد عمر بن هبيرة يقال له إبراهيم بن عبداللّه الهبيري، فلازمه يلتمس منه أن

يصرِّفه في شيء يتمعّش فيه. وكان ابن الزيات قليل الخير، لا يرعى ذماماً، ولا يوجب حرمة، ولا يحب أن يصطنع أحداً، فأضجره ذلك الرجل الهبيري من طول تردده عليه، فدعاني ابن الزيات يوماً وهو راكب فقال: قد تبرّمت بملازمة هذا الرجل، فقل له عني إني واللّه لست أوليه ولا أصرّفه، ولا له عندي شيء أنفعه به، فقل له ينصرف عني، ولا يلقني البتة. قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أستحي واللّه أن أُلقي عنه بمثل هذا الكلام القبيح مؤملاً له قد أمّله واعتمد عليه، ثم قلت أصلح اللّه الوزير سيّدي كيف أقابل عنك رجلاً أمّلك وانقطع إليك بمثل هذا الكلام؟ فقال: ليس هو إلا ما أخبرتك ولابدّ لك من أن تفعل، قلت: نعم، فلما صرت إلى منزلي وجّهت إلى الهبيري فجاءني، فقلت له: كم كنت تؤمل أن تنال بصحبة هذا أبي جعفر محمد بن عبدالملك فخذه من مالي ولا تقرب بابه. فقال لي: من مالك؟! من مالك! متعجباً من قولي. قلت: نعم فقال: أنا أؤمّل أن أكتسب معه أكثر مما تحويه يدك. فقلت له: يا سيدي إنّه حمّلني إليك رسالة استحييت من أن أوصلها إليك، فعدلت بك عنها إلى هذا القول: قال: فهات ما حمّلك. قال: فحدّثته بما أوصاني به إليه ابن الزيات، قال: قد سمعت منك وفهمت عنك فهل أنت مؤدٍّ عنّي ما أقول لك؟ قلت: نعم. قال: قل له قد كنت آتيك في صبيحة كل يوم، واللّه لآتين إليك منذ الآن في كل غدوة وعشية، فإن قضى اللّه لي على يديك رزقاً لآخذنّه منك على رغم أنفك. فرجعت إلى ابن الزيات فأعلمته بقول الرجل، فقال: دعه فواللّه لا يرى مني خيراً. قال: ولازمه الرجل غدوة وعشيّا وكان إذا رآه التفت إليّ وقال: قد جاء البغيض. فمكث كذلك مدّة. وركب ابن الزيات يوماً إلى الواثق باللّه وهو بالهاروني بسُرَّ من رأى وكان يوم دجن وكنت معه، فدخل إلى الخليفة، وجلست في بعض الدور أنتظر

خروجه، فخرج وهو يكثر التعجب فسألته فقال: أنت تعرف مذهبي في هذا الرجل. قال: وكان يرى رأي المعتزلة ويقول: إن الأرزاق بالاكتساب. فقلت: وماذا أتمّ اللّه عليك النعمة؟ قال: دخلت إلى الخليفة فقال لي: على بابنا أحدٌ فنصطنعه؟ فلم يخطر ببالي إلا الهبيري، فأمسكت فقال: ويحك أكلّمك فلا تجيبني؟ وأعجلني عن الفكر فقلت: على باب أمير المؤمنين رجل من أعدائه وأعداء دولته، وأولاد أعداء سلفه ومن صنائع بني أمية من ولد عمر بن هبيرة. قال: فنصطنعه نحن فيشكرنا كما اصطنع أباه بنو أمية فشكرهم. قلت: إنه معدم. قال: نغنيه. قلت: إنه لا معنى فيه. قال: كم ذا تدفعني عنه! أعطه الساعة ثلاثين ألف درهم. ثم قال: أمن أهل الدراريع هو أم من أهل الأقبية قلت: صاحب قباء. قال: قلّده الساعة عملاً يصلح له، وأثبت له من أهله وولده وغلمانه مائة رجل. فما فرغ من كلامه قال: قل للهبيري ما عرّفتك، وادفع إليه ما أمر له به الخليفة واسأله ألا يشكرني، فقد اجتهدت في دفع الرزق عنه فما اندفع. قال أحمد بن إسرائيل: فلما خرجت إلى الشارع وإذا بالهبيري ينتظر خروج ابن الزيات، فعرّفته ما جرى، فقال: لا بدّ من شكره على كل حال. وجاء ابن الزيات فترجّل له الهبيري وشكره، فقال: ألم أقل لأحمد بن إسرائيل أن يقول لك ألا تشكرني؟ قال: لا بدّ من ذلك لأن اللّه تعالى قد أجرى رزقي على يديك.

ومن تأمل الحكاية والتي قبلها أتمّ التأمل، وتفكّر فيها بأكمل وجوه التفكّر، علم ألا فعل في هذا الوجود إلا للّه، وأن الأسباب الاكتسابية وإن تناهت إلى الغاية، وجرت من الاستبلاغ فيها إلى حد النهاية، ولا تفيد بوجه إلا إن كانت الأقدار السابقة في علم اللّه على وفقها، وإلا فهي في استجلاب

العكس مما قصدها أمكن، وعدم مساعدة مرتكبها أبين، فانظر إلى هذين الوزيرين كيف أرادا أن يصرفا سلطانيهما عن نفع هذين الرجلين بأقصى ما قدرا عليه، ولما كان الرزق لهما من اللّه سابقاً لم يقدرا فيهما على شيء بل سنّى اللّه لهما من الرزق على رغم أنفيهما، ويسّر للهبيري منهما بحرص المشتدّ في منعه تنمية في الرزق وبسطة فيه، فسبحان اللّه العظيم لقد أتاهما بالرزق أقرب ما كانا منه يأساً وأبعد ما كانا فيه رجاء.

وكذلك يخلق اللّه المنع مع توفّر الأسباب المنتصبة بالعادة للمنح؛ فكم من مستحفظ الأذمّة، مسترعى الوسائل، متممة له في استحقاقه الولاية الأسباب، مستوفاة له الشروط، مرتفعة في حقه عنها الموانع، أتاه العزل أوثق ما كان يوليه أملاً، وأفسح ما كان في الثقة به رجاء! لتعلموا أن اللّه على كل شيء قدير، وأن اللّه قد أحاط بكل شيء علماً، وإنما ذلك ـ واللّه أعلم ـ ليحصل الإيقاظ من سنة الغفلة في الوقوف مع الأسباب والذهول عن رؤية الأمور من حيث هي، فلو لم تنخرم الأسباب في مقتضياتها من جهة النفع والضر لكان في ذلك للأفكار القاصرة ما يثمر لها شكاً، ويوجب له في الأحكام القدرية ريباً.

وثمرة الصبر في هذا المعنى غير خفية وقد قال أبو تمام الطائي:

ما أنصف الزمن الذي بعث الهوى	فقضى عليك بلوعة ثم انقضى
عندي من الأيام ما لو أنه	أضحى بشارب مرقد ما غمّضا
لا تطلبنّ الرزق بعد شماسه	فترومه سبباً إذا ما غيّضا
ما عوض الصبر امرؤ إلا رأى	ما فاته دون الذي قد عُوِّضا

وفي تسني الرزق مما لا يظن أنه سبب فيه أعاجيب لا يخلو الوجود من الإبداع بها، حسبما تقرّر فيما سبق من سواه.

وممن يُسِّر له الرزق وهُيّء له الخير من بعد ما لحقه الاعتبار وأدركه الاضطرار ما ذكره الصولي قال: رفع صاحب الخبر بمجلس القاضي أبي عمر محمد بن يوسف إلى الراضي أمير المؤمنين رُقعة يذكر أن رجلاً أحضر مخاصمه بمجلس القاضي أبي عمر يطلبه بمائة دينار فألزم القاضي المدّعى عليه اليمين، إذ لم يكن للآخر بينة، فأخذ الخصم الدواة وكتب:

وإني لذو حلف فاجر إذا ما اضطررت وفي الحال ضيق
وهل من جناح على معسر يدافع باللّه ما لا يطيق؟!

فأمر القاضي بإحضار مائة دينار ودفعها عنه. فعجب الراضي من أدب الرجل، وكرم القاضي، وأمرني بالركوب إلى القاضي والبحث عن الرجل، فبحثت عنه أياماً حتى وجدته فجئت به إليه وأمر له بألف دينار وخمس خلع ومركوب حسن وملازمة دار السلطان، وقلّده الأهواز. انتهى.

وما سنّى اللّه لهذا المبتلى بالإعسار بعد توجّه اليمين عليه التي أفصح في بيتي شعره الطريفين أنها فاجرة من نحو ما سبق الإيماء إليه في تسنّي الرزق من حيث لا يظنّ بالسبب الذي لا يظنّ أنّه فيه سبب وبيد اللّه مقاليد السموات والأرض.

وقد يتعذر الرزق من الوجوه المعتادة لالتماسه، وتصعب الأسباب المأمولة لتسهيل شماسه، ويُسنّيه اللّه من وجه غير معتاد منه الارتفاق ولا مألوفٍ منه الارتزاق، كما يُحكى عن عبيد اللّه بن قيس الرقيّات، قال: خرجت مع مصعب بن الزبير حين بلغه شخوص عبدالملك بن مروان إليه،

فلما نزل مصعب بن الزبير بمسكن، ورأى معالم الغدر ممّن معه، دعاني، ودعا بمال ومناطيق فملأ المناطيق من ذلك المال وألبسني، وقال: انطلق حيث شئت، فإني مقتول، فقلت: والله لا أريمه حتى أرى سبيلك، فأقمت معه حتى قتل. ثم مضيت إلى الكوفة، فأول بيت صرت إليه دخلته فإذا امرأة معها ابنتان لها، كأنهما ظبيتان، فرقيت مع درجة إلى مشربة فقعدت فيها، فأمرتْ لي بما أحتاج إليه من الطعام والشراب والفرش والماء للوضوء، فأقمت عندها أكثر من حول، تقيم لي ما يصلحني. ثم تغدو عليّ في كل صباح، فتسألني بالصباح والحاجة، ولا تسألني من أنا، ولا أسألها من هي، وأنا في ذلك أسمع الصياح بي والجُعل. فلما طال بي المقام، وفقدت الصياح بي، وغرضت بمكاني، غدت عليّ يوماً تسألني بالصباح والحاجة، فأعلمتها أني قد غرضت، وأحببت الشخوص إلى أهلي. فقالت لي: نأتيك بكل ما تحتاج إليه إن شاء الله. فلما أمسيت، وضرب الليل برواقه، رقِيت إليّ وقالت: إذا شئت فانزل، فنزلت، وقد أعدّت راحلتين، عليهما ما أحتاج إليه، ومعهما عبد، وقد أعطت العبد نفقة الطريق، وقالت: العبد والراحلتان لك. فركبت وركب العبد حتى طرقت منزلي، فقالوا: من هذا؟ فقلت: عبيد الله بن قيس الرقيّات. فولولوا، وقالوا: ما فرقنا طلبك إلا في هذا الوقت. فأقمت عندهم حتى أسحرت، ثم نهضت ومعي العبد حتى قدمت المدينة، فجئت عبدالله بن جعفر بن أبي طالب عند المساء، وهو يعشّي أصحابه فجلست معهم، وجعلت أتعاجم وأقول أبيار أبيار (أي هات الماء). فلما خرج أصحابه وكشفت له عن وجهي. قال: ابن قيس؟! قلت: ابن قيس، جئت عائذا بك. فقال: ويحهم ما أجدَّهم في طلبك وأحرصهم عليك!، ولكنّي سأكتب إلى أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان، فهي زوجة الوليد بن عبدالملك، وعبد الملك أرقّ شيء

عليها، فكتب إليها يسألها أن تشفع إلى عمّها، وكتب إلى أبيها كتاباً يسأله أن يكتب إليها يسألها الشفاعة. فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعل، وسألها هل من حاجة؟ فقالت: نعم، لي حاجة. فقال: قُضيت كل حاجة لك إلا ابن قيس الرقيّات. فقالت: لا تستثن عليّ شيئاً. فنفخ بيده فأصاب وجهها. فوضعت يدها على خدّها، فقال لها: بنيّتي ارفعي يدك، فقد قضيت كل حاجة لك، وإن كان ابن قيس الرقيات. فقالت: فإن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمّنه، فقد كتب إلي أبي يسألني أن أسألك ذلك. فقال: هو آمن، فمريه ليحضر مجلسي العشية. فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلس عبدالملك. فأخبره الإذن، ثم أذن للناس، وأخّر إذن ابن قيس حتى أخذوا مجالسهم، ثم أذن له، فلما دخل عليه قال عبدالملك: يا أهل الشام، أتعرفون هذا؟ فقالوا: لا. قال: هذا ابن قيس الرقيات الذي يقول:

كيف نومي على الفراش ولما　　تشمل الشام غارة شعواء؟!
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي　　عن حزام العقيلة العذراء

فقالوا: يا أمير المؤمنين، اسقنا دم هذا المنافق. قال: الآن وقد أمنته وصار في منزلي على بساطي؟! قد أخّرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا. فاستأذنه ابن قيس أن ينشده، فأذن له فأنشده قصيدة التي يقول فيها:

عاد له من كثيرة الطرب　　فعينه بالدموع تنسكب
كوفيّة نازح محلّتُها　　لا أمم دارها ولا صقب
واللّه ما إن صبَت إليّ ولا　　إن كان بيني وبينها سبب
إلا الذي أورثت كثيرة في　　القلب وللحب سورة عجب

حتى قال فيها:

إن الأغر الـذي أبوه أبوالـ ـعاصي عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفـرقه على جبـين كأنه الذهب

فقال له عبدالملك: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من اللّه تجـلّت بنوره الظلـماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جـبروت ولا له كـبرياء

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن واللّه لا تأخذ مع المسلمين عطـاءً أبـداً. فقال ابن قيس لعبد اللّه بن جعفر: ما نفعني أماني، تركت حيّاً كميّت لا آخذ مع المسلمين عطاء. فقال له عبداللّه بن جعفر: كم بلغت من السنّ؟ قال: ستين سنة. قال: كم تومل أن تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: كم عطاؤك في السنة؟ قال: ألفا درهم. فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك عليّ حتى تموت على تعمير نفسك. فعند ذلك قال ابن قيس يمدح عبد اللّه بن جعفر:

تغرب بي الشهباء نحو ابن جعفر سـواء علـيها ليلها ونهـارها
تزور امـرءاً قد يعلم اللـه أنه تجود له كف قلـيل غـرارها
أتيناك نثني بالذي أنت أهـله عليك كما أثنى على الروض جارها
فواللّه لـولا أن تزور ابن جعفر لكان قليلا في دمشق قـراراها
إذا مت لم يوصل صديق و لم تقم طريق من المعروف أنت منـارها
ذكرتك أن فاض الفرات بأرضنا وفاض بأعلى الرقـتين بحـارها
وعندي مما خوّل اللّه هجمة عطـاؤك منها شـولها وعشارها
مباركة كانت عطاء مبـارك تمانح كبراها وتنمي صغـارها

وإنما أردت من هذه الحكاية ما يسّر اللّه على يدي عبداللّه بن جعفر ـ أحد الأجواد المشهورين بالكرم ـ ومن التكفّل لابن قيس الرقيات برزقه إلى تمام تعمير نفسه لقوله، فهي مما منع من الرزق ثم مما منح منه داخلة تحت هذه الصورة، وهي مما سبق فيها من توقّع الابتلاء والخوف على النفس مما يدخل تحت الصورة الرابعة، ولكني رأيت هذا الموضع أخص بها، لما أعقب منع الرزق من تكميله وتعجيله.

وأغرب مما حكي عن ابن قيس الرقيات في تسنّي الرزق من غير أسبابه المعتادة، وحصول الغنى بعد الفقر على غير جري العادة، ما حدّث بعضهم، قال: كان بمدينة السلام رجل من أهل اليسار، فبينا هو ذات يوم في مجلسه، وقد جلس يأكل مع زوجته، وبين أيديهم سكباجة[1]، قد فاحت رائحتها، إذ دنا سائل من الباب، وغشاه، ممّن امتحن بنكبة بعد نعمة فقال: أطعموني من فضل ما رزقكم اللّه، فقامت المرأة وغرفت له من القدر، وأخذت رغيفين لتناوله، فلمّا رأى الزوج ذلك حلف عليها ألا تدفع إليه شيئاً. ومضى السائل جائعاً حزيناً، فاستوفى الرجل شأنه وطعامه واشتغل بشأنه وقعد فوق السطح لبعض حاله، فعثر بشيء وتنكّس، فوقع إلى أسفل فاندقّت عنقه فمات من ساعته وحازت المرأة ميراثه وتصرّفت فيه. وضرب الدهر ضربانه، وأتى لهذا الحديث مدّة، وكان السائل الذي قد دنا من باب الدار وانصرف خائباً كئيباً لما لقي من قبح الرد وما هاج به من شهوة الطعام الذي شمّ رائحته عاد إلى منزله من وقته و لم يملك إلا مضربة معلقة، وكان اشتراها من الحاج، متسخة قذرة، وحملته شهوة الطعام على المضربة أن يبيعها ويصرف ثمنها في نفقة

---

(١) دجاجة مشوية.

طعام، مثل الذي شمَّ، وأراد أن يفتقها فيغسلها ثم يبيعها، ففتشها، فإذا فيها ألف دينار وسط الحشو، فأخذها الرجل، وغيّر ببعضها حاله، وشغل بعضها في التجارات، وحسنت حاله، وطلب امرأة يتزوّجها، فقالت له بعض الدلالات: إن ها هنا امرأة جميلة موسرة قد ورثت من زوجها مالاً كثيراً، فهل لك فيها؟ قال: نعم. فخطبها، والتأم الأمر بينهما، وبنى بها، وحمد كل واحد صاحبه، واتفقا أحسن الاتفاق. فبينما هما يوماً من الأيام يتحدثان، وقد وصف الرجل لها ما دُفع إليه في بعض الأيام من المحنة العظيمة، إذ سألته المرأة أن يحدّثها بأمرٍ شيء جرى عليه، وأصعب ما دُفع إليه، فقال الرجل: ما مرّ عليّ أصعب من وقت دُفعت فيه إلى شدة شديدة، حتى اضطررت إلى السؤال، فدنوت يوماً من باب دار، وشممت من الدار رائحة سكباجة طيبة، كدت أجن حرصاً عليها وشهوة لها، وقامت المرأة لتعطيني منها، فمنعها الزوج، وحلف بطلاقها أنها لا تعطيني منها، فانصرفت وأنا قلق حزين، إذ كنت بعقب علةٍ شديدة، وقد أبللت منها، وكنت أشتهي كل شيء كما يعتري الناقة. فتبسمت المرأة تعجّباً، وقالت: فهذه هي الدار، وأنا هي تلك المرأة، وإن زوجي صعد في ذلك اليوم، الذي ردك فيه الرد القبيح، هذا السطح، فتنكس فيه، ووقع واندقّت عنقه، ومات من حينه، وقد أورثك اللّه ماله ومسكنه وزوجته. قال: فسجد الرجل شكراً لله ﷻ، واستأنف نيةً جميلة في طلب مرضاة اللّه تعالى، وبقي طول عمره في نعمة شاملة. انتهى.

وإن في هذه الحكاية لمعتبراً لأولي الألباب، وشاهداً هذه المنية الدحية، وما اشتملت عليه من الفظاعة لما سبق تقريره من كون مثل ذلك من صفة الموت غير المعتادة، مما كسبت الأيدي واجترحت النفوس. وقد لا يبعد أن يحرم الرد في مثل هذه الصورة، فقد كان الطعام موجوداً للمسؤول والضرورة

ماسّة للسائل بشاهد حاله الذي دعاه إلى بيع مفترش نومه على خمول قدره ونزارة ثمنه. ومعلوم أنّ الحاجة إذا كانت بهذه المثابة والفاقة إذا أكدت إلى هذا القدر، والمطلوب منه من الغنى على حالة هذا الرجل، فقد انتقل فرض الكفاية في حقه، ومواساة المحاويج إلى فرض العين بسد جوعة أخيه الذي لو شاء اللّه أن يُغنيه حتى يعود مسؤولاً، ولفقر الآخر حتى يصير سائلاً، أو يورثه ماله كالواقع في هذه الحكاية لفعل. ولهذا يقول القاضي منتخب الدين بن أبي الوفاء رحمه اللّه:

لا يأسف المرء للأرزاق إن قصرت ... ولا يطيلن طول الدهر من أمله
إن المنايا لذي الآمال راصدة ... والرزق أسرع نحو العبد من أجله

فكأنه عبّر عن هذا الواقع المشتمل على منية المؤمّل وإسراع الرزق للآخر.

وقريب من هذا، وإنّ لم يشبهه من كل الوجوه، ما حدّث به هبة اللّه ابن إبراهيم بن المهدي قال: سمعت أبي يحدّث أنه دخل يوماً إلى الخيزران، أم الرشيد قال: فوجدتها جالسة على نمط أرميني، وعن يمين البساط ويساره نمارق أرمينية، وعلى أعلى نمرقة منها بنت سليمان بن علي، وعن يسار النمارق أمهات أولاد المنصور والمهدي والهادي ونسوة من بني هاشم، والبساط والنمارق في صحن الدار المعروفة بدار الخيزران، إذ دخلت جارية فقالت: يا سيدتي إن بالباب امرأة رثّة الحال والثياب جميلة الوجه بارعة الجمال عذبة الكلام يدلُّ خُلُقُها على أنها كريمة الأصل، تستأذن، وقلت لها قولي مَنْ أنتِ، قالت: لا يمكن أن أقول ذلك إلا لها أعزّها اللّه فما تأمرين؟ قالت: تدخل. فدخلت امرأة رثّة الثياب فسلّمت ثم قالت: يا زوجة أمير

المؤمنين أنا مُزْنة زوجة هشام بن عبدالملك ثم زوجة مروان بن محمد بعده، نكبني الزمان، وزلّت بي النعل، حتى أصارتني إلى ما ترين. قال: فجالت الدموع في عيني خيزران، فرأت ذلك زينب بنت سليمان فخشيت أن يدركها عليها رقّة فقالت: يا أمّ أمير المؤمنين اتق اللّه أن تدخلك على هذه الملعونة رقّة فتبوئي بمقعدك في النار. ثم التفّت إلى مزنة، فقالت: يا مزنة أنسيت دخولي عليك بحرّان وأنت جالسة في صحن دار مروان على هذا النمط بعينه، وعن يمينك وشمالك هذه النمارق بعينها، وعليها أمّهات جبابرتكم، وقد مثلتُ في هذا المكان الذي أنت فيه الساعة، وأنا أتضرع إليك واستوهبك جثّة إبراهيم الإمام ﷺ وأسألك أن تسألي مروان هبتها لي ألا يمثّل بها، وقولك وأنت مكحّلة: ما للنساء والدخول في أمور الرجال؟! ثم أمرت بإخراجي في غِلظة، فلجأتُ إلى مروان، فوجدته على حالٍ أحسن تعطّفاً عليّ منك، وأنّه قال: قد ساءتني وفاة ابن عمّي، وما أردت المُثلة بابن عمّي، وكيف يمثّل الرجل بابن عمه؟! وخيّرني بين دفنه ودفعه إليّ، فاخترت دفعه إليّ، وأمر له بجهاز، فقبلته منه. فالتفتت مُزنة إلى خيزران، فقالت: قد صدقت زينب في قولها ووصف ما صنعتُ لها، وذلك الفعل مني هو الذي أحلّني هذا المحلّ، وأوقفني هذا الموقف، والسعيد من اتعظ بغيره، ثم ولّت لتخرج، وأشارت الخيزران إلى بعض خدمها أن تميل بها إلى بعض مقاصر الدار، وأدركتها وهي تقول: ﴿**وضرب اللّه مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[النحل: ١١٢]، فمالت بها الخادم حتى إذا قامت زينب. ثم وثبت الخيزران وأمرت الجواري بإدخالها الحمّام، وقالت لهنّ: افعلن بها مثل ما تفعلن معي. وجعلت تسأل عنها ساعة بعد ساعة، فخرج الجواري فقلن: ما هذا؟! هي واللّه تطالبنا من الخدمة بما لا

تطالبيننا أنت به، وأمرت بألوان من الثياب، فأُحضرت، وأمرت الجواري أن يحضرن من الثياب إليها إذا خرجت، لتلبس منها ما تريد، حتى إذا خرجت بُخِّرت بأصناف العود، وطُيبت بأصناف الطيب. ثم أمرت بإحضار الطعام، فأحضر، وجعلت تلقمها، وتدع كلّ ما تستطيبه بين يديها، وكذلك كلّ من حضر المائدة كان يفعل كفعل الخيزران، وتقول: ما فيكم أحوج للطعام مني، لبعد العهد به. حتى إذا فرغت من الأكل قامت الخيزران وأقامتها معها، وأدارتها في عدّة من ديارها، وقالت لها: بحق اللّه عليك إلا انظري أيّما أوفق لقلبك. ففرشت ما اختارته من الدور بأنواع الفرش، واعدّت فيه كل ما تحتاج إليه من صفر وغير ذلك، ووهبت لها عشرين جارية صغاراً، وطباخات وخبازات، وملأت خزائنها بثياب وآلات، وحملت إليها عشرة آلاف دينار ومائة ألف درهم، وسألتها البعث إلى من بقي من جواريها، ومن أحبته من خاصّتها، فحلفت ألا تفعل، وألا تزيد على ما اختارته لها شيئاً، وأقامت في مكانها في أجلّ من حالها أيام دولتها، وبقيت كذلك إلى أن هلكت. انتهت.

وفي هذه الحكاية موعظة عظيمة واعتراف من مُزنة بما فعلت بقبح ما فعلته مع زينب، واعتقاد كون ما أصابها بسبب ما أسلفته من شناعة ردّها، حسبما شهد به غير آية، وتعذّر في محلّه من هذا الموضوع، والمقصود منها هو ما منّ اللّه به من جبر حالها من جهة الدولة المضادة لدولة قومها المعتقد منها عكس الواقع لها، فا لله قادر على أن يأتي بالفائدة على أيدي الأعداء وبالغائلة على أيدي الأودّاء.

وقد يحال بين المرء وبين تطلّبه من رزقه، فييسّره اللّه على يدي من شاء من خلقه، كما يُحكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: كنت ضيفاً لبعض القوم،

فقدّم المائدة، فنزل غراب وسلب رغيفاً، فاتبعته تعجّباً، فنزل في بعض البلاد، وإذا هو برجل مقيّد، مشدود اليدين، فألقى الغراب ذلك الرغيف على وجهه. انتهت.

فحقّ على من تعذّر له الرزق أن يتأمل مثل هذه الحكاية، ويعلم أن كل دابة على الله رزقها، والذي تكفّل برزق هذا المقيد المشدود اليدين هو الكفيل برزقه، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، فليثق به وليتعلق بما في خزائنه التي لا تقيد أمله.

والعزل من أعظم ما يطرق أبناء الدنيا المترفين فيها، العسير عليهم مرّ فطامها. فقد أشار النبي ﷺ بقوله: « **فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة** »[1]. وإنما ذلك ـ والله أعلم ـ يشتمل عليه هذا الابتلاء من لحاق الخمول، وإدراك الاحتقار، وضعة المنزلة، وانحطاط الرتبة، وكل هذه مضادة لما جبلت عليه النفوس المتطلبة للرئاسة، وهي آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين، فلا يبلغ الوصف مقدار اللاحق بالعزل من الحزنيات التي تصعب على من امتحن به، وتثقل على من ابتلي بكربة، وذلك بيّن، لأن الولاية من العزل على طرفي النقيض، والانتقال من حالة إلى حالة تضادها، على غير تدرج، صعب جداً. ومن هنا يوجد للمعزول اضطراب ربما أخرجه عن حدّ الاعتدال، واستنقص فيه فعله من كان بمنجاة من السبب الذي أوجب له ذلك كمن لم يتلبّس بولاية قط، فإنه يستصعب عقل الواجد من عزلته، ويتعجّب من وهن سبب انفعاله ويرى أنه مغال فيما ادعاه من الأعراض الطارقة له. ويحقّ أن يكون له ذلك فإنه على البراءة الأصلية لم تدرّ عليه تلك المرضعة ـ التي هي بئست الفاطمة ـ

(١) البخاري(٧١٤٨) والنسائي(٤٢١١، ٥٣٨٥) وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أخلافها الملذوذة، وإنما يشاهد من حاله ما غطّى عليه هواه ـ الذي هو إله معبود ـ من لواحق لا تفي لذّة الولاية بتجرّع غصصها ولا تحمّل كربها، ولكن هي سنة اللّه في خلقه ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً. فهو القائل سبحانه: ﴿**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرِيّاً ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾ [الزخرف: ٣٢].

وعلى صرف النظر عمّا تعاضد به العقل والنقل من الاجتناب لهذه المهنة والابتعاد عن هذه الرتبة فإن من ابتلي بالولاية وارتضاها لنفسه منزلة، وحكمت له الأقدار بأنها باب معيشته وسبيل اكتسابه ومنها قسم رزقه وبها خلق تصرّفه، فإن آكد ما يجب عليه نصر المظلوم وإبلاغ السلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها، وما أشبه ذلك مما عدّه الناس أنه زكاة الجاه، وذلك بعد إصلاح نيته في القيام بما أُسند له، والتوفية لما وُلّي عليه، فإن إضاعة ما أُسند له ووّلي عليه، أعظم سبب في الاستعاضة به والاستبدال منه إن سلم من جزاء التفريط والتضييع، وإلا فقد يمكن أن يكون ذلك سبباً مستغلاً في التنكيل به زيادة لما خشيه من العزاء، ويغلب على الظن غلبة قوية أن هذا المعنى من إضاعة المسند للمتولي أيّ ولاية كانت هو الذنب الموبق الموجب لعقوبة العزل إما وحدها وإما مع ما يلائمها عادة من لحاق الهون وإدراك الاحتقار وتسليط المستصعب والاستبدال من الأمان بالخوف والاستعاضة من العز بالذل، ووجه ذلك بيّن، فإنا إذا فرضنا هذا المعزول حكماً أقامه اللّه للأخذ على يد الظالم حتي ينتصر المظلوم، وللجزالة على الماطل حتى ينتصف الممطول، وللقسوة على المعتدي حتى يأمن الخائف، وللشدة على المتهم حتى يأمن البريء، فإذا عطل ما هو بسبيله وعجز عما أمر بإقامته بتمرد الظالم، وانطوى على أسفه

المظلوم وتلذّذ الماطل وغلب على حقّه الممطول وتأمن المعتـدي وازدادت رهبـة الخائف وتجرأ المتهم وأُخذ بجنايته البريء، وفي هذا من مضادّة الشرع ومضادّته الحق ما لا يستقر معه الملك ولا تستقيم عليه الدولـة؛ فـإن كـان الأمـر جزئيـاً فربما لحقت العقوبة مثله، وإن كان كلياً فربما شملت العقوبة، ويتنزل من ذلـك مثل حالنا قريباً، فقد كانت الأخذة عظيمة، والعقوبة فظيعة، والنكال شـاملاً، والعذاب واقعاً، ولا تظن الموجب لذلك إلا ما قدّمناه من هذا الذنـب الكبـر، والإثم العظيم فإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم إن اللّـه جلّـت قدرتـه، وتعـالى في عظمته، أقال من تلك العثرة، وفرج من تلك الكربـة، ووقـى مـن الاستئصال بتلك الأخذة، ثم أعاد الدولة غضـة، وأعقـب مـن الفرقـة أُلفـة، وعـوّض مـن العذاب رحمة، إعذاراً - فيما يظهر - إلينا، وإبلاغاً في إقامة الحجة علينا. ثـم لا يبدو كون ذلك من النعم التي يجزلها، والمواهب التي يخوّلهـا، إلا إن عرفنـا قـدر التمحيص السابق فاستقمنا، وحققنا ما أضعنا مما أمر به فأنفذنا حكمه وأقمنا، وتبيّن لنا الخطأ فيما كنا نأتيه ونذره، وتيقنّا أنه العزيز الجبار، فنخشـى انتقامـه ونحذره، وإذ ذاك يتعيّن أنّ تلك الإقالة نعمة، وأنّ صرف ما كان قد أزف من العذاب رحمة، وإلا فهو استدراج وإملاء، ومنحة في طيها بلاء، عياذاً باللّه من ذلك، عياذاً باللّه من ذلك. يقول اللّه تعالى: ﴿ **ولقد أرسلنا إلى أمم مـن قبلـك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون۝ فلولا إذ جـاءهم بأسـنا تضرعـوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون۝ فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هـم مبلسون**﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] ويقول: ﴿ **وما أرسلنا في قريـة مـن نـبي إلا أخذنـا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرّعون۝ ثم بدّلنا مكـان السيئة الحسـنة حتى**

عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥].

وهذا أبين من الشمس، فإن الملك إذا أدّب عبده باعتقال، أو سامه بذنوب من نكال، ثم أعاد له حُسن نظره، وجدد له العناية، في مستقبله، فإن استقام زيغه، وحسن أدبه، فالنعم لديه مشفوعة بمثلها، وما استفاده بالتأديب من حسن الأدب سبب لوصلها، وإن بقي على ضلاله، وطاوع في المعصية سيء خلاله، فتجديد تلك النعمة أعظم الأسباب في ازدياد الغضب عليه، واستجلاب سخط الملك إليه. جعلنا اللّه ممن يتّبع بما ضرب له الأمثال، وتولانا بهدايته في جميع الأحوال.

ثم إن هؤلاء الجناة الذين تصاغ فيهم الأحكام، ويراغم فيهم ما شرعه الإسلام، إنما هم أحد رجلين: إما شرير رَكِنَ من أرباب الوجاهة في الدولة إلى رُكْنٍ شديد، وأوى من عنايته إلى حصن حصين، وهذا القسم هو ما كثر، فيعلن بشرب الخمر، ويجاهر بفاحشة الزنا، ويفتخر بقتل النفس الحرام، ثم لا يخشى من أحد نكيراً، ولا يرهب لحدٍّ إقامة، ولا يخاف في تفويت النفس فما دونها قصاصاً، قد قذف اللّه في قلوب الذين راغموا اللّه فيهم، أنّه إن تعرّض إلى هذا اللاجئ إلى بابه، والراكن إلى حرمته، فإن رتبته تخمل، وعزّته تنقص، حتى وإن كان الحكم قيوم الشريعة، وحامل الديانة، فلا تجاب لقاضي الجماعة ممن دونه دعوة، ولا تُخشى لصاحب الشرطة الكبرى ومن فوقه سطوة، وهذه الجريّة المصرّفة في حماية هذا الشرير، إنما هي لمجلس الأحكام السلطانية، من قاض وصاحب شرطة أومظالم أو ردّ أو غيرهم، حتى إذا سلّط اللّه على هذا الشرير مثله، وبعث لإطفاء شُعْلته نظيره، ضم حاميه عن نصره، وتقاعى عن

حمايته، وأسلمه لحتفه، ووقع التغالي في اصطناع قاتله، ودخل العول في قسمة اصطحابه، وأعمل القياس في كون خاصي الأسد أجرأ منه، وقاتل ربيعة بن مكدّم أشجع منه، فلولا حكم السبقية إلى خطبة ودّه، وخطر مرارة مصطنع قتيله، بعد الركون لغيره، لما خلص من هذه الأنشوطة إلا بعد السهمة المشروعة لأولي التشاحّ في الحقوق، التي يستشرف لها، وتخشى بالتغالب عليها الضغائن، ذاهلين في ذلك كله عما يعد في مكارم من أيده اللّه بالقوة، التي هي أشد من قوته، وأمده من العزّ بما هو أمكن من عزّتهم، ثم جبله من الإنصاف على ما أثبت له المحمدة إلى يوم الدين، وشهد له بالعدل إلى ما أبقاه غرّة في كرم أوصافه إلى لقاء اللّه الخبير، كما يحكى أن المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فتلقته امرأة في ثياب رثّة فقالت:

يا خير منتصف يهدي به الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد

تشكو إليك عميد المُلْك أرملةٌ ... عدا عليها فما تقوى له أسد

فابتزّ منها ضياعاً بعد منعتها ... لما تفرّق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيراً ثم رفع رأسه إليها فقال:

من دون ما قلتِ عيل القبر والجلد ... وأقرح القلب هذا الحزن والكمد

هذا أوان صلاة العصر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت وحضرت في يوم الأحد أوّل الناس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت: القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين. فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل بل لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامها يعلو فزجرها

بعض حجّابه، فقال المأمون: دعها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، وأمر برد ضياعها عليها.

قال الماوردي: ففعل المأمون في النظر بينهما حيث كان يشهد منه و لم يباشره بنفسه ما اقتضته السياسة من وجهين: أحدهما: أنه حكم ربما توجه لولده أو ربما توجه عليه، وهو لا يجوز أن يحكم لولده. والثاني: أن الخصم امرأة يجلّ المأمون عن محاورتها وابنه من جلالة القدر بالمكان الذي لا يقدر غيره على إلزامه الحق، فردّ النظر بمشهده إلى من كفاه محاورة المرأة في استيفاء الدعوى واستيضاح الحجة وباشر أمير المؤمنين تنفيذ الحكم وإبرام الحق. انتهى.

وهذا الذي أورده الماوردي حسن في الوجه الأول، وفيه عليّ إشكال في الثاني، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿ **قد سمع اللّه قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى اللّه واللّه يسمع تحاوركما**﴾ [المجادلة : ١] فما ساغ للنبي ﷺ بل ما وجب عليه أن يفعله كيف يجل عنه غيره ممن يكون عنه خليفة؟! فانظر ذلك.

وأمّا من لم يركن إلى أحد من هؤلاء الوجهاء، فقد قيّض اللّه له في قوّام الدولة إهمال الحق المكنى عن جريرته باسم الاحتياط، ومن درء الحدود بالشبهات، الممسوخ في قالب تبطيلها البتة، ومن استشكال طرق ثبوتها للركب على سبيل التسامح في صورة رفعها جملة، معرضين أيضاً في ذلك عمّا نُقل عن مالك ـ رحمه اللّه ـ من الشدة في هذا المعنى. قال البهلول بن عبيدة: كنت عند مالك فأُتي برجل ملبّب، فقالوا له: الأمير يقرئك السلام ويقول لك: هذا خنق رجلاً فقتله. فقال مالك: اخنقوه حتى يموت كما فعل به. فذهبوا به، وركبت مالك صفرة وتشوّف، حتى مرّ به رجل فأخبروه أنهم خنقوه، فرجع إلى وجهه الدم، فقال له ابن كنانة في ذلك، فقال: أظننتم أني

ندمت لكنّي خفت أن يبطل حكم من أحكام اللّه . وقال عبد الجبار بن عمر: حضرت مالكاً وقد أحضره الوالي في جماعة من أهل العلم فسألهم عن رجل عدا على أخيه حتى إذا أدركه دفعه في بئر وأخذ رداءه، وأبوا الغلامين حاضران. فقال جماعة من العلماء: الخيار للأبوين في العفو أو القصاص. فقال مالك: أرى أن تُضربَ عنقه الساعة. فقال الأبوان: أيقتل ابناً بالأمس ويفجع الآخر اليوم؟ نحن أولياء الدم وقد عفونا. فقال الوالي: يا أبا عبداللّه ليس ثم طالب غيرهم وقد عفوا. فقال مالك: واللّه الذي لا إله إلا هو لا تكلّمت في العلم أبداً أو تضرب عنقه. وسكت، وكُلّم فلم يتكلم، فارتجت المدينة وصاح الناس: إذا سكت مالك فمن يُسأل ومن يجيب. وكثر اللغط: لا أحد بمصر من الأمصار مثله ولا يقوم مقامه في العلم والفضل. فلما رأى الوالي عزمه على السكوت قدّم الغلام فضرب عنقه، فلما سقط رأسه التفت مالك إلى من حضر وقال: إنما قتلته بالحرابة حين أخذ ثوب أخيه، ولم أقتله قوداً إذ عفا أبواه. فانصرف الناس وقد طابت نفوسهم حين رأوه برّ في يمينه، إذ كان لا يعلم أنه يحنث. وقال حفص بن غياث: كان مالك بن أنس يجلس عند الوالي فيعرض عليه أهل السجن فيقول: اقطع هذا، واضرب هذا مائة، وهذا مائتين، واصلب هذا، كأنه أنزل عليه الكتاب. وقال أشهب: أتى بعض الأمراء مالكاً يستشيره في شيء، فدخل عليه، وأشار بقتل قوم وقطع قوم، وخرج علينا يتبسم ويقول: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾ [البقرة: ١٧٩]. اهـ

ما قصدت نقله عن مالك في القصد المناقض للحال الواقعة من إضاعة الحكم وتعطيل القصاص. حتى إذا أيقظ اللّه القلوب وشحذ العزائم وسدّد النظر في الحكم بالبصائر فأمكن من واحد من ألف ممن وجب عليه الحد وأباح سفك مهجته القصاص، وهذا هو الأقل، أو أمكن من اثنين من عشرة ممن استحق

التعزير على حسب اجتهاد الحاكم من بلوغ به أو وقوفه دونـه فتجـووز الحـد في كليهما وتغولي في نكالهما مـن المثلـة في الواجـب عليـه مـن القصـاص، إمـا بالرماح وإما بالذبح بعد السياط، ومن إماته النفس فيمـن يجـب عليـه مـا دون ذلك من التعزير بالسوط، وهذا أعظم من الأخرى، وإن كان كلاهما عظيماً؛ فقد قال معن: أفتى مالك عند والي المدينة بقتل رجل، فأمر الوالي بضرب وسطه، فتهيأ للقيام، وقال: لا أقعد في مكان مُثّل فيه بأحد، قال اللّه تعالى: ﴿**فضرب الرقاب**﴾ [محمد: ٤]. فقال الوالي: اقعد يا أبا عبداللّه لا نضرب وسطه، اضربوا عنقه. انتهى.

وهذه المعاني التي انجرَّ بنا الكلام إليها، وإن لم يكن من جنس ما تكلّمنا فيه، فهي فيما أعتقده اعتقاداً تامّاً من آكد ما تُستدفع بـه التهمـات، إذا امتثـل ما أمر به العلماء، وتوقّي مانهوا عنه، ولرقّت الجادّة، وشوهد الإسراف على النفوس، فروجعت التوبة، واعتمدت التقوى حسبما سبق.

ولنعطف عنان هذا الكلام إلى ما كنا بصدده. فإن كان الابتلاء يأتي مما ينتجه شر حاسد أو لحي كاشح، فالاستعاذة هنا دائمة مشروعة، على حسب ما نصّت عليه خاتمة سورة الفلق، ولما علم اللّه من وقـوع هـذه الخلـة الذميمـة التي هي الحسد حرّمها وختم هذه السورة الكريمة بالاستعاذة من شـر المتصـف بها وورد عن النبي ﷺ الاستعاذة من شماتة الأعداء لا سيّما إن لزّ الاضطرار إلى مداخلته، ودعا موجب المداراة إلى ملابسته، وفي ذلك يقول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحـرِّ أن يرى   عدواً له ما من صـداقته بد

وحسد هذا العدو الكاشح، والحسود المنافس، من أعظم مـا يلحـق مـن لدنه الابتلاء، فهو بنفسه من أشد التمحيص، فكيف بما يسعى فيه من ضر! أو

يتسبب فيه من شر؟! ولذلك لا ينبغي للعاقل أن يحقر من هذا الجنس أحداً كما قال الشاعر:

لا تحقرن أحداً عاديته أبداً وكن على حذر ما عشت من ضرره
فالسقط ليس بمأمون لقلّته والسهم يقتل من بُعد على صغره

وأعداد القضايا في هذا الباب كثيرة، وغائلة الحسد على قديم الزمان شهيرة، ومداراة المنافسة صعبة عسيرة.

ومما يخفف الآلام عمّن لحقه أثر الحسادة كون الحاسد من حسده في بلاء مقيم، وجهد عظيم، كما قال بعضهم: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود. ونظمه ابن المعتز فقال:

لجّ الزمان فليس يعتب طرفةً إن الزمان على الكريم لئيم
لم يدر ما تحت التجمّل حاسد بالغيظ يقعد مرة ويقوم
قل للحسود إذا تنفّس صعدة يا ظالماً وكأنه مظلوم

وقال الآخر: الحسود يأخذ نصيبه من غموم الناس، وينضاف إلى ذلك غمّه بسرور الناس، فهو أبداً مهموم. ولهذا المعنى قال ابن المعتز ـ رحمه الله ـ: يشفيك من الحاسد أنه يغتمّ عند سرورك. وفي الوصاة بعدم الاغترار بما يبدو من ضحك الحاسد إليك، وإقباله بالبشر عليك، يقول أبو علي محمد بن الحسين بن الشبل البغدادي:

فلا تغترر بالبشر من وجه حاسد فبرد ابتسام الثغر غطى على الحقد
فإن مشوب السم لا شك قاتل وإن هو أخفت طعمه لذّة الشهد

وقال ابن وكيع الصدقي: الحاسد وإن لم تودعه وترا، ولم تبغه شرّاً، يفرح بما يضرّك، ويغتمّ بما يسرك، ولا يرحمك في المصائب، ولا يعينك على

النوائب، أرضى ما يكون من الدهر إذا أسخطك، وأسخط ما يكون عليه إذا أرضاك، ولا ينفعك عنده أن تشركه في الحال، أو تعود عليه بفضل المال، ولا يرضى إلا بعدم النشب، وربما لم يقنع إلا بالعطب، قال: ومما روي في ذلك: قال الاسكندر لسقراط: أيها الحكيم! ممن ينبغي للإنسان أن يتحفّظ؟ قال: من مكر أعدائه ومن حسد أصدقائه. وكان معاوية يقول: كل إنسان أقدر أن أُرضيه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها. وكان يقال: الحاسد عدو مهين لا يدرك وتره إلا بالتمنّي. وقال ابن بسام:

لا راحة لحسود من مغائظه ... ولا رضا أبداً ما عاش من أحد
كأنما خلق اللّه الحسود لكي ... يغتاظ فهو رهين الغيظ والكمد
يرى الحسود عليه نعمة عظمت ... زوال نعمة من يرميه بالحسد

وقال بعض أهل العلم: إذا أردت أن تسلم من الحاسد فغمّ عليه أمورك.

ودخل بعض المتطببين على رجل مريض، فقال له: ما تشكو؟ قال: ما بي من علّة إلا حسد للناس. قال: فليس تُعافى إلا يوم القيامة لأنّه يوم تزول فيه نعم المخلوقين. وقال العتبي: عجباً للحسود المعذّب نفسه بإحسان اللّه إلى خلقه يرى أنّ النعمة عليهم نقمة عليه والنقمة عليهم نعمة عليه فهو عند من جهله مظلوم وهو عند من خبره ظالم، والناس في راحة وهو في تعب من خوف دائم ونفس متتابع، فيالها من طبيعة ما أدناها ونفس ما أشقاها. وكان يقال: الحسود مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه. ولابن أبي طاهر:

وحاسد يحسب في حطّه ... إياي ما يدعو إلى رفعه
أصبحت بالفضل الذي لم أزل ... أجمع ما فرّق من جمعه
بموضع الطرفة من عينه ... وموضع الوقرة من سمعه

وليس لي ذنب سوى ما رأى	من نعمة اللّه ومن صنعه

وإذا أدرك الحاسد بغيته من خمول رتبة من حسده وزوال نعمة من فوّق إليه سهم بغيه وسدده، فقد يستفاد في أثناء ذلك من نشر الفضائل واجتناب الرذائل ما يرغم الحسود بعد انقضاء زمن الابتلاء، وعودة ما عوّد اللّه من الآلاء، كما قال حبيب بن أوس:

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة	يوماً أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت	ما كان يعرف طيب فضل العود

وكما قال أبو حيان:

عداتي لهم فضل عليّ ومنّة	فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلّتي فاجتنبتها	وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وكما أن غائلة الحسد ابتلاء لمن سلّط اللّه الحاسد عليه، وفوّق أسهم شره إليه، فكذلك هذه الخلة الذميمة هي من أعظم الإملاءات لمن اتسم بصفتها الدنية، لرجاء من حسد أن يعظم اللّه أجره، وتعلّق حقه عن حسده وخلو الحاسد من ذلك، وإنما هو كما سبق في وصفه مغموم بنعم اللّه على خلقه، مكروب بإحسان الرب على عبيده، فهل ينتهي كمن يتعلق بمدح الجود الإلهي، وفيض المنح الرباني، و للّه في كل لحظة على عبيده نعم لا تحصى ومنح لا يمكن أن تستقصى، فمن أعظم ابتلاء ممن يكون ذلك سبباً في كربه، وموجباً مستقلاً في إثارة غمّه، أعاذنا اللّه من ذلك، وعافانا من مثل هذا الابتلاء، وجعلنا ممن يسر بما يسني اللّه لخلقه من نعمه، ويبتهج بما يدفع عنهم من نقمه.

وقد وقفت للإمام فخر الدين الرازي على فضل بيّن فيه الأصول التي ينشأ عنها؛ فقال في تفسير الفاتحة: اعلم أن المداخل اللاتي يأتي الشيطان من قِبلها في الأصل ثلاثة: الشهوة والغضب والهوى، فالشهوة بهيمية، والغضب سبعية، والهوى شيطانية، فالشهوة آفة لكنّ الغضب أعظم منه، والغضب آفة لكن الهوى أعظم منه. وقوله تعالى: ﴿ **وينهى عن الفحشاء**﴾ [النحل: ٩٠] المراد منه آثار الشهوة، وقوله: ﴿**والمنكر**﴾ المراد منه آثار الغضب، ﴿**والبغي**﴾ المراد منه آثار الهوى؛ فبالشهوة يصير الإنسان ظالماً لنفسه، وبالغضب يصير ظالماً لغيره، وبالهوى يتعدّى ظلمه إلى حضرة جلال اللّه، فلهذا قال: الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفَر، وظلم لا يترك، فالظلم الذي لا يغفر هو الشرك باللّه سبحانه، والظلم الذي لا يترك هو ظلم العباد بعضهم بعضاً، والظلم الذي عسى اللّه أن يتركه هو ظلم الإنسان نفسه، فمنشأ الظلم الذي لا يغفر هو الهوى، ومنشأ الظلم الذي لا يترك الغضب، ومنشأ الظلم الذي عسى اللّه أن يتركه هو الشهوة. ثم لها نتائج؛ فالحرص والبخل نتيجة الشهوة، والعجب والكبر نتيجة الغضب، والكفر والبدعة نتيجة الهوى. فإذا اجتمعت هذه الستة في بني آدم تولّد منها سابع، وهو الحسد، وهو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة، فلهذا السبب ختم اللّه مجامع الشرور الإنسانية بالحسد، وهو قوله تعالى: ﴿ **ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ [الفلق: ٥] كما ختم مجامع خبائث الشيطان بالوسوسة، وهو قوله تعالى: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس ۝ من الجنة والناس**﴾ [الناس: ٥-٦] فليس في بني آدم أشر من الحاسد، كما أنه ليس في الشيطان أشر من الوسواس، بل قيل: الحاسد أشر من إبليس ؛ لأن إبليس روي أنه أتى باب فرعون وقرع الباب، فقال فرعون: من هذا؟ فقال إبليس: لو كنت إلهاً لما جهلت. فلما دخل قال فرعون: أتعرف في

الأرض شرّاً منك ومني؟ فقال: نعم، الحاسد، وبالحسد وقعت في هذه المحنة. انتهت.

فتأمل الحسد ثمرة ما هو من الأخلاق الرديئة، وقانا اللّه منه.

وقد أبدع ابن شرف في رسالته المسماة بـ «سرِّ البرّ» في الاستهانة بأمر الحاسد والإبانة عن مجامع القبائح التي اشتملت عليها هذه الخلّة الذميمة، فقال: «واعلم أن كل عدو يحتاج معه إلى مجاهدة واستعداد للمدافعة إلا من عاداك من حسد، فإنه قد كفاك جُلّ أمره، وتولّى دونك حرب نفسه، لأن الحسود مغلول اليد مشغول بالكمد، وهو ككاتم النار تحته، إن خفّضها أحرقته، وإن رفّعها فضحته، فصار بذلك جنداً على نفسه وعونا عليها لعدوّه، فالحسد من مجامع القبائح، لأنه مؤلّف عن الغضب والشهوة والفضول والغدر والعجز والبخل، فأما الغضب فإن الحسد لا يكون إلا عن غضب على النعم، إلا أنه أسوأ الغضب لأنه غضب على الخالق في حكمه، وغضب على المخلوق فيما لم يجنه عليه، فهو أسوأ الغضب. وأما الشهوة فإن الحسد لا يكون إلا بشهوة لا يصل إلى مشتهيها منها شيء، فهذه خساسة بلا أرش. وأما الفضول فلأن الحسد لا يكون إلا برغبة وطلب لما لا يعني من أمر نفسه متكلف لضر غيره، وإنما غاية الفضول أنه عمل لا يضر أحداً، ولا ينفع متكلّفه، وهذا يضر بالقاصد له، والمقصود به، فهو أخس الفضول. أما الغدر، فلأن الحسد إنما يكون طائراً عن كامن، وطارئاً عن آمن، إلا أنه أسوأ الغدر، لأن الغدر يكون لنيل فائدة أو شفاء من ترةٍ، وغدر الحسود لا يكون إلا ابتداء من غير علة توجبه. وأما العجز فإن الحسد لا يكون إلا من مقصر عن نعمة للحسود، والقصور عجز، إلا أنه هاهنا من ألأم العجز لأن العجز إنما يكون عن تعذّر

الطلب لمانع ما، وعجز الحسود إنّما يكون مختصّاً بالعجز عمّا يعني للشغل بطلب ما لا يعني، وهذا ألأم العجز. واعلم أن الحسود وحيد مع الكثرة، متوحِّش مع الأنس، خائف مع البراء، وهو مع الدعة في هرج، ومع النعمة في فقر، ومع الصحة في سقم، أما وحدته فلأن الحسود مبغض للناس مبعض من الناس، ولا محبة مع البغض ولا ألفة مع فقد المحبة ومن لا ألفة له فهو وحيد مع الكثرة، وأما خوفه فلأنه مرتاب بما يكتمه، خائف من ظهور ما يسره، وأما هرجه في الدعة فلأنه مشغول عن الاستمتاع بدعته بوقوعه في خزال أهل النعمة، ويبغض أهل الفضل على فضيلته، وإيثاره البغي وشر السعي. وأما فقره في حال النعمة فلأنه لا يستسيغ مضغها ولا يلذ بنعمة، فكأنه قد فقد السعة، وفارق النعمة، ومن فارق النعمة فهو فقير وأما سقمه في الصحة، فلأن قلبه حرّان، وصدره ملآن، وجع الحقد يطرقه، وحمّى الحسد تقلقه، ونار الأسف تحرقه، فداؤه عضال، وعيشه أهوال، وغايته في سوء الحال لا تنال».

كما حكى المدائني قال: كان الوليد بن يزيد مكرماً لطريح بن إسماعيل الثقفي، وكانت له منه منزلة ومكانة، فكان يدني مجلسه، وجعله أوّل داخل عليه وآخر خارج عنه، ولم يكن يصدر إلا عن رأيه فاستفرغ مديحه كله فيه، وعامّة شعره، فحسده ناس من أهل بيت الوليد، وقدم حمّاد الراوية الشام يشكو ذلك إليه، وقالوا له: قد واللّه ذهب طريح بالأمير فما لنا منه ليل ولا نهار، فقال حمّاد: ابغوني من ينشد الأمير ببيتي شعر وأسقط منزلته. فطلبوا من الخصيّ الذي يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم، أن ينشدهما الأمير في خلوة، فإذا سأل عن قول من ذا؟ قال من قول طريح. فأجابهم الخصيّ لذلك وعلّموه البيتين. فلما كان ذات يوم دخل طريح على

الوليد، وفتح الباب، فأذن للناس فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد فدعا بغدائه، وتغديا جميعاً، ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزله، وترك الوليد في مجلسه، وليس معه أحد، فاستلقى على فراشه، فاغتنم الخصي خلوته، فاندفع ينشد:

سيري ركابي إلى من تسعدين به   فقد أقمت بدار الهون ما صلحا
سيري إلى سيّد سمحٍ خلائقه   ضخم الدسيعة قرم يحمل المدحا

فأصغى الوليد بسمعه إلى الخصيّ، فأعادها الخصيّ غير مرة، فقال الوليد: ويحك يا غلام! من قول من هذا الشعر؟ قال: من قول طريح. فغضب الوليد حتى امتلأ غضباً، ثم قال: والهفاً على أمٍّ لم تلدني، قد جعلته أوّل داخل وآخر خارج، ثم يزعم أن هشاماً يحمل المدح ولا أحملها. ثم قال: عليّ بالحاجب، فأتاه، فقال: لا أعلم ما أذنت لطريح ولا أريّنه في بسيط الأرض، فإن حاولك فاحطمه بالسيف. فلما كان بالعشي وصلّيت العصر جاء طريح للساعة التي كان يؤذن له فيها، فدنا من الباب ليدخل، فقال له الحاجب: وراءك، فقال: ما لك؟ هل دخل على وليّ العهد أحد؟ قال: لا، ولكن ساعة ولّيت من عنده دعاني وأمرني ألا آذن لك، وإن حاولتني في الإذن حطمتك بالسيف. فقال: لك عشرة آلاف درهم، واذن لي في الدخول عليه. فقال له الحاجب: واللّه لو أعطيتني خراج العراق ما أذنت لك، وما لك من خير في الدخول، فارجع. قال: ويحك، هل تعلم من دهاني عنده؟ قال الحاجب: لا واللّه قد دخلت عليه وما عنده أحد، ولكنّ اللّه يحدث ما يشاء في الليل والنهار. قال: فرجع طريح، فوقف بباب الوليد سنة، لا يخلص إليه ولا يقدر على الدخول،وأراد الرجوع إلى بلده وقومه، فقال: واللّه إنّ هذا لعجز من غير

أن ألقى وليّ العهد، فأعلم ما دهاني عنـده. ورأى أناسـاً كـانوا لـه أعـداء قـد فرحوا بما كان من أمره، فكانوا يدخلـون علـى الوليـد ويحدّثونـه ويصـدر عـن رأيهم، فلم يزل يلطف للحاجب ويمنيه حتى قال لـه الحـاجب: أمـا إذ أطلـت المقام، فإني أكره أن تنصرف على حالك هذه، ولكنّ الأمير إذا كان يوم كـذا وكذا دخل الحمام، وأمر بسريره فـأبرز، وجلـس عليـه وأذن للنـاس فدخلـوا، والوليد ينظر إلى من أقبل. وبعث الحاجب إلى طريح، فأقبل وقـد تتـامّ النـاس، فلمّا رآه الوليد من بعيد صرف وجهه استحياء أن يردّه مـن بـين النـاس، فدنـا فسلّم، فلم يردّ عليه، فقال طريح يستعطفه:

نام الخلي من الهـموم وبات لي ليل أكـابده وهمّ مضـلع
وسريت لا أكرى ولا في لـذّة أرقى وأغفل ما يفيد الشـجّع

في قصيدة طويلة، فأدناه الوليد وقرّب، وضحـك إليـه، وعـاد لـه مـا كـان عليه.

ولقد ذكرني رد الحاجب طريحاً هذا، وموقفـه موقـف ذلـك الخزي الـذي نسأل اللّه أن يعيذنا منه في الدنيا والآخـرة، أبياتـاً لمحمـد بـن حـازم عـدّد فيهـا أنواعاً من البلاء، وأصنافاً من العذاب، وجعلها أهون عليه من عبوسة الحاجب فما الظنّ منه بمثل ذلك الردّ! فقال:

لقلع ضرس وضيق حبس وقتل نفـس ورد أمس
وبعد دار وحمْل عـار وبيع جـار بربع فلـس
وقـوْد قِـرد ونسْج بُـرد ودبغ جلـد بغير شمس
وصـدُّ إلْفٍ وأكـل كف وضـيق خف وسوم بخس
وقتل غـمٍّ وطـول هـمٍّ وشُـرب سُمٍّ وإلفُ قلس

أهــون من وقفــة بباب   يلقاك حجـــــابه بعبس

وإذا آلمَ الناس الا ستشراف إلى ضروريات المعاش، والتطلع إلى مـا بـه قوام الحياة، أو ما لحق ذلك من المتعـات بالجـاه أو غـيره مـن مقتنيـات الدنيـا، وأعوزها ذلك فإنما سعد لها للأماني التي قال فيها أبو تمام رحمه اللّه :

من كان يرعي حزنه وهمومه   روض الأماني لم يزل مهزولا

لا سيما إن اشتدت الضرورة بما يفتقر إليه من مال أو جاه أو سـكن أو غير ذلك إن كانت الأنفس المستشرفة طامحة من الدنيـا إلى مـا فـوق الكفايـة، فهنالك يتسع النطاق وتعظم الأشواق ويستغرب الاتفاق.

كما يحكى عن عبداللّه بن عمر وعبداللّه بن الزبير وعبدالملك بن مـروان ومصعب بن الزبير أنهم كانوا بمكة إما بفنـاء الكعبـة أو بالمسـجد الحـرام، ثـم تحدّثوا فيما تشوّفت إليه نفوسهم، واتفقوا على أن يقول كل واحد منهم ما في نفسه ويدعو به، فقال عبداللّه بن الزبير إنه يرغب اللّه في ولاية ملك الحرمـين، وقال أخوه المصعب إنه يرغب اللّه في ملك العراقين ونكاح عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، وقال عبدالملك بن مروان إنه يرغب اللّه في الخلافـة وأن يؤتى برأس كل من ينازعه، وقال عبداللّه بن عمر إنه يرغب اللّه في الجنة، فنال كل واحد ممن طلب عرضاً من الدنيا ما أمّلـه، والظـن اليقـين المضـارع لليقـين عند العلماء أن عبداللّه بن عمر قد نال ما أمّله من الآخـرة، واللّـه أعلـم. وإنمـا نقلت الحكاية بالمعنى دون اللفظ.

وقد يوجد من يتمنى فيتم مناه، وتتفق هواه، ويكمل له مقتضاه، كمثـل هذه الحكاية. وقد يتعذر على آخر مُنْيَته، وقد يمكن أن تكون في أمانيـه مَنيَّتـه،

وربما يستدل بذلك على مقدار ما يكون في القلب من الرضا بما قدّر اللّه وقضى.

يحكى أنه كان لذي الأصبع العدواني أربع بنات، وكنّ يخطبن إليه فيعرض عليهن ذلك فيستحين فلا يزوجهن، وكانت أمهن تقول: لو زوّجتهن، فلا يفعل، فخرجن ليلاً إلى مُتَحدَّث لهن، فاستمع إليهن وهن لا يعلمن، فقلن: تعالين فلتتمنين ولنصدق، فقالت الكبرى:

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى حديث الشباب طيب الريح والعطر
طبيب بأدواء النساء كأنه خليفة جار لا ينام على هجر

فقلن لها: أنت تحبين رجلاً ليس من قومك. فقالت الثانية:

ألا هل أراها مرة وضجيعها أشم كنصل السيف عين المهند
لصوق بأكباد النساء وأصله إذا ما انتهى من سر قومي ومحتدي

فقلن لها: أنت تحبين رجلاً من قومك. فقالت الثالثة:

ألا ليته يملأ الجفان مريئة له جفنة تشفى بها النيب والجزر
له حكمات الدهر من غير كبرة تشين فلا الفاني ولا الضرع الغمر

فقلن لها: أنت تحبين رجلاً شريفاً. وقلن للصغرى: تمنّي. فقالت: ما أريد شيئاً. قلن: واللّه لا تبرحين حتى نعلم ما في نفسك. قالت: زوج من عود خير من قعود. فلما سمع أبوهن قولهن زوّجهن أربعتهن. فمكثن برهةً، ثم اجتمعن عنده فقال للكبرى: يا بنية ما مالكم؟ قالت : الإبل. قال: كيف تجدونها؟ قالت: خير مال، نأكل لحومها مُزعاً، ونشرب ألبانها جرعاً، وتحملنا وضعفتنا معاً، قال: كيف تجدن زوجك؟ قالت: خير زوج يكرم الحليلة، ويعطي الوسيلة. قال: مال عميم وزوج كريم. ثم قال للثانية: ما مالكم؟

قالت: البقر. قال: كيف تجدونها؟ قالت: خير مال تألف الفِناء، وتودك السقاء، وتملأ الإناء، ونساء مع نساء. قال: كيف تجدين زوجك؟ قالت: خير زوج يكرم أهله وينسى فضله. قال: حظيت ورضيت. ثم قال للثالثة: ما مالكم؟ قالت: المعزى. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: لا بأس بها نولدها فطماً ونسلخها لدماً. قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: لا بأس به، ليس بالبخيل الحكر، ولا السخيّ البذر. قال: جذو مغنية. ثم قال للرابعة: ما مالكم؟ قالت: الضأن. قال: فكيف تجدونها؟ قالت: شرّ مال، جوف لا يشبعن، وهيم لا ينفعن، وصمّ لا يسمعن، وأمر مغويتهن يتبعن. قال: فكيف تجدن زوجك؟ قالت: شرّ زوج يكرم نفسه ويهين عرسه. قال: أشبه امرؤ بعض بزه. انتهت.

فاعتبر هذه الحكاية، وكيف ظهر من تضجر صغراهن المفهوم في سياق قولها: زوج من عود خير من قعود. ما أوجب لها شرَّ زوج وشر مال، ويظهر أيضاً من قلة رضاها بما قسم لها ما جعلت به زوجها شرّ زوج ومالها شر مال، ولذلك قال لها أبوها: أشبه امرؤ بعض بزِّه.

وإذا كان الابتلاء بمثل اختلاس العلق، واغتصاب الملك، ففي السبب بعد التوكل راحة عظيمة، وفي التعلق بأولي الأمر فائدة جسيمة، كما حكي أن رجلاً جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته، وكانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها ـ وكان اليوم شديد الحر، وعرقه يتصبب ـ دعته نفسه إلى التبرد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، ودخل النهر، فمرّت حدأة فاختطفت الصرة، تحسبها لحماً، وصعدت بها في الأفق، فلما

عاينها التاجر قامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر على استرجاع ذلك بحيلة، فأسرّها في نفسه، ولحقه من ذلك علّة اضطرب فيها، وحضر الدفع إلى التاجر، فجلس المنصور لذلك بنفسه، واستبان ما بالرجل من الكآبة وسوء الحال، وفقد ما كان عنده من النشاط، وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيتنا بحدثان وقوع الأمر فكنّا نستظهر على الحيلة! هل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها. فقال: مرّ بشرب أعلى سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك - يعني الرملة - فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة. فجاء بهم سريعاً. فأمرهم بالبحث عمن غيّر الإقلال منهم سريعاً، وانتقل عن الضيقة دون تدريج. فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا ما نعلمه إلا رجلاً من ضعفائنا، كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناوبون السنو بأيديهم عجزاً عن شراء دابة، فابتاع الآن دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة. فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدوّ إلى الباب. وحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه، والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسقط إليك فما فعلت به؟ فقال: هو ذا يا مولاي. وضرب بيده إلى حجر سراويله وأخرج الصرة بعينها، فكاد التاجر يطير فرحاً، وقال المنصور: صف لي حديثها. قال: بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، ودعتني فاقتي لأخذ عشرة مثاقيل عيوناً كانت معها مصرورة، وقلت: أما يكون في كرم مولانا أن يسمح لي بها. فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها واصدقني عن عدّها. ففعل وقال: وحقِّ رأسك يا مولاي إن كان ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وأنا قد وهبتها له. فقال المنصور: نحن أولى بذلك منك ولا ننقص عليك

فرحتك. ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكــان ثوابه موفوراً عليها. ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره، وإلى الجنّان بعشرة دنانير صواباً لإفشاء ما وقع بيده وقال: ولو بدأنا بالاعتراف قبل البعث لأوسعناه جزاء. وأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاود نشاطه، وقال: واللّـه لأبثن في الأقطار عظيم ملكك، ولأشيعن أنك تملك طير عملك، كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك. فضحك المنصور وقال: اقصر في قولك يغفر اللّه لك. فعجب الناس من تلطف المنصور في حيلته، وتفريج كربه، رحمه اللّه . انتهت.

وكما أن فوت القنية الجاهية أو المالية أو مجموعهما ابتلاء لمن كان ذلك في يديه، فكذلك التلبس بهما أو بإحداهما لم يكونا في يديه على سبيل الزهد فيهما، والمطلوب من التقلل منهما، ثم هيأ اللّه منهما لمن هذه صفته ما يصرف عن وجهته، فذلك ابتلاء أيضاً، ولعله أعظم من الابتلاء بالفوت. كما حدّث أبو القاسم أحمد بن يوسف معلّم الخليفة هشام قال: لما انصرفت من الحج صيرني وليّ العهد الحكم لمقابلة كتبه، وأجرى بذلك رزقاً، فأتاني ابن السليم، وهو يومئذ معتزل عن السلطان على غاية من التقشف، فقعد عندي وأقبل يعذلني، ويقول لي: يا أبا القاسم ! بعد طلب العلم وتقييد الحديث والرحلة فيه ركنت إلى هؤلاء القوم واستهوتك دنياهم! فقلت له: وأي شيء وليت لهم؟ إنما هي كتب علم لمثلها كان سعيي أصححها بأجرة. فقال: لا تقل هذا فقد غلّتك حبالهم ولن تفلتها، ومن هذا يرقّونك إلى غيره، ولا يمكنك خلافهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون على عظيم المصاب بك. ثم شد يده إلى كمه وأخرج منه حجرين، وقال لي: خذهما فاضرب بهما صدرك ونُحْ على نفسك. فخرج عني وتركني أبكي على نفسي. فما مضت الأيام حتى صار إلى منزلتي، ثم ارتقى منها إلى الشورى، ثم إلى المظالم، ثم إلى قضاء الجماعة، فانتهى إلى الغاية،

فأردت معارضته؛ فأمرت جاراً لي من المختارين بحمل حجرين أصمين، وبعثت معه غلاماً لي بعد صلاة العتمة، حتى أنزلهما بباب القاضي ابن سليم، وأسندهما إلى مصراعه. فلما قام القاضي لصلاة الفجر، وفتح بابه، ألفى الحجرين مسندين إليه، فبقى مفكراً، فمضى إلى المسجد، مشغول البال، إلى أن دخلت عليه غدوة، فما هو إلا أن رآني، اهتدى إلى وجه القضية، فقربني وقال لي: أنت صاحبهما؟ فقلت له: هما الحجران اللذان دفعت إليّ، رفعتهما عندي إلى أن كبرا، وصرفتهما إليك، إذ كبرت حالك. فبكى وقال: هو حقك، والبادئ أظلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون على عظيم محنتنا وخسران صفقتنا. انتهت.

وقد كان ابن السليم من الزهد والتقشف والاقتصاد والتقلل من الدنيا على حالة عظيمة تنافي ملابسة السلطان والدخول في القضاء، ولكنّه ابتلي به، وإن كان فيه على أكمل الأحوال من القيام بالحق، والحكم بالعدل. لطف اللّه بنا وبأمثالنا.

تتميم

لا يرجّح النظر آكد من هذا المحل للاستكثار من حمد اللّه، وأن يكون التلفّظ به هجّيرى الألسن، والتفكّر في مدلوله نصب الأعين. ويتبين هذا بأن الموضع موضع إنعام جسيم، وفضل متسوّغ من ذي الفضل العظيم. ومحصول هذه الصورة إنما هو طروق ابتلاء، ثم الإدالة منه بمتوالي الآلاء. فعلى أي فرض يقصر في القضية حمد اللّه؟ أعلى التدارك والإقالة من النقمة؟! أم على الامتنان بما أجزل من الموهبة وأتمّ من النعمة؟! أم على اللطف في كون التمحيص مما جعله اللّه لعبده في معرض التذكرة والموعظة؟! أم على التنبيه الذي أعقبه الرفق الموجب لاعتبار الأنفس اليقظة؟! فلو أن الأنفاس المتردّدة، والأوقات المتجددة، نطقت بحمد اللّه ، بأزكى ما لديه من المحامد، وأقربها إلى مرضاته بحسب الشاكر الحامد، لما بلغ من ذلك معشار المعشار، ولما تنوهي من ذلك إلى حظّ يتبع أو مقدار. كما قال شمس الدين أبو المكارم بن عبدالسلام بن محمود:

لو كنت ألف عام في سجدة لربّي ... شكراً لفضل يوم لم أقضِ بالتمام
العام ألف شهر والشهر ألف يوم ... واليوم ألف حين والحين ألف عام

فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله، فهو المحمود بكل لسان، وهو المحمود بما أولى من جود، وأسبغ من إحسان، وإليه نضرع أن يوفّقنا بحمده بتوفيق من تحقق بمعرفته، واستوعب الرشد بما قدّس من ذاته وعظم من اسمه ونزه من صفته.

۞۞۞

الصورة الثالثة

● **أن يكون الابتلاء فيها ـ أي المقتنيات العزيزة على النفوس ـ واقعاً في الحال، إلا أنه غير مأمول الجبر، ولا مرجو الزوال.**

وقد تقدم في الصورة قبلها، أن ما تحت هذه الصورة هو ما حال دون عودته بعينه من هذه المقتنيات الجاهية والمالية مانع يمنع من عودته بعينه أو من عوضه المغني عنه، أو يكون من الندور بحيث لا يُلفى له عوض، ولا يوجد منه بدل. وما سبق في تلك الصورة من المطلوبات الشرعية، كالصبر والتسليم والرضا والتفويض وسواها، مما ذكر معها، ففرضيته هنا أرجح وشرعيته أوضح. وتزيد هذه الصورة بتوطين النفس على اليأس مما أعوزت استعادته، واعتاصت استعاضته، وهنا يتأكد ترفيه الهمة عن التعلق بمثل هذا المفقود من الأعراض، ويتوجه القلب برؤية زوال الدنيا بجملتها، وهذا الزائل فرد من أفرادها. فما الذي يستنكر من زوال بعض ما هو كله زائل بلا إشكال؟! وما الذي يستعظم من ذهاب جزء مما هو كله ذاهب بلا امتراء؟! ومَن أراد مِن الفاني أن يكون باقياً، ومن الذاهب أن يكون دائماً، ومن الزائل أن يكون ثابتاً، فقد أراد ما ليس بموجود، فلا يتمارى اثنان في جهله، بسخافة عقله ومغالطته لنفسه، في مدركات حسّه.

فإن ادعى انه يعلم من حال هذه المقتنيات مثل ما قُرِّر، ويعرف من طباعها

مثل ما حرر، وإنما أسف من ذلك لاختلاس ما اختلس منه في مدة هذه العاجلة، إذ كان له به استمتاع، وبمحصول الفائدة منه انتفاع، فربما أحال بهذه المقالة حجة، وأوهم أنه سلك من الاستمساك بما سوّغ له من حظ محجة، فلا يخلو هنا: أن يكون ذهاب ما عزّ عليه من هذه الأشياء بأمر إلهيّ؛ إما شرعي وإما سماوي، فهنا لا متكلم له فيه، ولا مستمسك إلا بما قرّر في هذه الصور كلها من التفويض لله، والتسليم له في حكمه، والرضا بما أجرى به أقداره، والضراعة له في إعظام الأجر، وتخفيف الوزر. وهنا يتنزل كل ما ورد شرعاً من الوصايا الحكمية، والأحاديث النبوية، بتخفيض حال الدنيا، واحتقار زينتها، واستصغار متاعها.

أو يكون ذهابه على يدي من تعلّق به الشريعة حقاً، وتوجب له عليه من الضمان والتبعة حظّاً، فلا خفاء بجريان ما سبق من الأحكام هنا، ويزيد هذا الموضع بأحكام أُخر، من جواز التسبب في استرجاع الحق إن قدر عليه، واتباع ذمّة الجاني في الدنيا والآخرة بما يصحّ من ذلك لديه. والاسترجاع في مثل هاتين الصورتين متأكّد المشروعية، لأنه نقص من الأموال.

وإذا استعصى على المبتلي بذهاب هذه القنية الجاهيّة أو المالية عَوْدُ ذلك الشيء بعينه أو العوض منه، إن كان موجود العوض، أو يئس من بدله لندوره، فالواجب عليه أن يوطّن نفسه على التسلّي، وإقامة أوده دونه وفيما سلم له مما لم يطرقْه الفقد غنىً عمّا فقد.

وإن كان التمحيص في القنية مستأصلاً، ففي النظر لما حفظ اللّه من مهجة وأعضاء وقوى، ولما حفظ اللّه من زوج وبنين وأقارب وأصدقاء، مرقاة عظيمة لشهود جميل الصنع من اللّه، وباب كريم كبير لتسلّي القلب عن هذه

القنية، السريعة الذهاب، الزائدة في المتاعب البدنية، دون الزيادة فيما لا عيش دونه، مما تكفّل بضمانه من هو مليء الذمّة. وفي قوله تعالى: ﴿**واضربْ لهم مثلاً رَجُلَيْن**﴾ [الكهف:٣٢] إلى آخر الآية، ما يقتضي التسلّي من وجهين، وذلك بالنظر أولاً إلى صاحب الجنتين، وما وقى اللّه برحمته منه من الأخذ أخذةً رابية، كمثل أخذ هذا الرجل فيما دون ابتلاء صاحب الجنتين من الرفق واللطف والتخويف، ليرجع إلى الحق ما يجب عليه شكر اللّه تعالى، ورؤية المنة منه فيما منع منه. ورضي اللّه عن الذين يقولون: لا يشاهد العطاء في المنع إلا صدِّيق. فلقد أرشدونا إلى هذا النظر اللائق بمقامهم الأعلى من حضيض حالنا. وإلى هذا المعنى بعينه قصد البُحْتُري:

والشيء تمنعه تكون بفـــوته ... أجدى من الشيء الذي تُعْطَاهُ

وبالنظر ثانياً إلى صاحب ربّ الجنّتين المستبصر في الثقة باللّه، المشير عليه بأن يقول: ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه في حال دخوله لجنّته، والاعتبار فيما منحه اللّه من تمام قصده فيما أمّل من المعافاة - وسلّط على صاحبه من الابتلاء، الذي أصبح به يقلّب كفّيه، على ما أنفق في جنته، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. وقد ورد عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ما أنعم اللّه على عبدٍ نعمةً في أهلٍ ومالٍ وولد فقال ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه فيرى فيها آفة دون الموت**»[1] وهذا الحديث الكريم مطابق للآية الكريمة في شأن الرجلين. وفي التسلّي بما بقي عمّا ذهب يقول الخطيب أبو محمد بن جُزيّ رحمه اللّه:

يقولون لي نال منك الزمـــان ... وأجحف منك بحال ومـــال

---

(١) ابن ماجه (٣٨٠٥) وأحمد ٤٠٣/٢.

فقلت لهم لا أرى همّــــــتي لديها اهتمــــــام بغير المعالي
إذا ترك الدهر علمي وشعــري وطرفي وسيفي فــما أن أبالي

وينبغي أن يكون من المعلوم لنا علماً يقيناً، والمحقق لدينا تحقيقاً مبيناً، أن كل ما لنا من هذه المحبوبات التي هي زبرج الدنيا، من مال وجاه، إنما هي عوار، لمعيرها ـ جل ثناؤه ـ ارتجاعها منّا إذا شاء، وكيف شاء، ودفعها إلى من شاء. ولو فرضنا تركها لمن اعترف له، وعدم ارتجاعها فيه، لما انتمت إلينا، ولّما تمت بها النعمة علينا. وقد يعتقد أنه إذا ارتجعها من قبلنا، بأيدي غير الأودّاء لنا، أنه قد أساء إلينا، فيجب أن نطوي عقدنا على أن المعيرَ، له ارتجاع قُنيته المعارة، إذا أراد، وعلى يدي من أراد، ولذلك تتأكد الرغبة عن الاستكثار من هذه الأمور المؤدّية للتأسّف على فوتها، إذا فاتت، والتلهُّف على فقدها، إذا فقدت، وتلك الرغبة عن هذه الأشياء هي المسمّاة من مقامات الأولياء زهداً؛ ولذلك حُكي عن سقراط الأثيني أنه قيل له: ما بالك لا تحزن؟ فقال: لأنّي لا أقتني ما إذا فقدته حزنت عليه. انتهت.

وكون شيء من هذه القنية المالية في غاية الندور، لا يتبيّن إلا بما يؤثر في الوجود منه، على سبيل القلّة، من حكاية عنه، أو تخصيصه باسم، أو ما أشبه ذلك. فقد حكى الجوهريون أنّ لملك سرنديب* قطعة ياقوت مستطيلة، على هيئة نصاب السكين، يديم تقليبها في كفّه، وتزن خمسة وخمسين مثقالاً، ولم يخبر أحد بأكبر من هذا المقدار. وفي كتاب أخبار الخلفاء أن المتوكل جلس لهدايا النيروز، فقدّم إليه كل علق نفيس وكل طريف فاخر، وأن طبيبه بختيشوع بن جبريل دخل فكان يأنس به. فقال: ما ترى في هذه ؟ فقال: مثل

* وهي ما يعرف بسيلان حالياً

خرباشات الشحّاذين؛ إذ ليس لها قدر، وأقبل على ما معي. ثم أخرج من كمّه درج آبنوس مضبّب بالذهب، وفتحه عن حرير أخضر انكشف عن ملعقة جوهر كبيرة لمع منها شهاب، ووضعها بين يديه، فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله، وقال له: من أين لك هذه؟ قال: من الناس الكرام. ثم حدّث بأنها صارت له من أمّ جعفر زبيدة؛ وذلك أنها شكت عارضة في حلقها منذرة بالخناق، فأشار عليها أبي بالفصد والتطفية والتغذّي بحسو وصفه، فأحضر على لحته في غضارة صميلية عجيبة الصنعة، وبها هذه الملعقة فغمزني أبي على رفعها، فرفعتها، ولففتها في طيلساني، وجاذبنيها الخادم. فقالت: «لاطفه وأمره بردّها وعوِّضه منها عشرة آلاف دينار». فامتنعت. وقال أبي: يا سيدتي إن ابني لم يسرق قطّ فلا تفضحيه في أوّل كرّاته فينكسر قلبه. فضحكت ووهبتها لي. قال الحاكي لها: هذا وإن لم يكن في الخبر لمع الملعقة، فلمعان الشعاع يدلّ من اليواقيت على أحمرها.

وذكر الأخوان الحسن والحسين الرازيّان الجوهريان أنه اشتُري للأمير الشهيد مسعود ـ رحمه الله ـ أيام مقامه بالريّ وأرض الجبل ياقوت أحمر مستطيل على صورة أسد[1]، بسبعة آلاف دينار نيسابورية، وقيل إنه الجبل، وكأنه الذي كان تملّكه شياه وزير أخي قابوس بن وشمكير وأنه أخذه عوضاً من حصّته من ملك أبيه، فكان يُحكى أنه كأسد إذا قبض الكفّ عليه كان بادياً من جانب الخنصر والإبهام.

---

(١) وهذا مخالف شرعاً لا يجوز اقتناء مثل تلك الأشياء المصورة على شكل الأحياء كالتماثيل وغيرها وهي أشد حرمة من الصور

وذكر البيروني في كتاب الأحجار أنه كان في خزانة الخلفاء - يعني من بني
العباس - حجر مستطيل، معقف رأسه، اسمه العنقاء، وزنه أحدٌ وعشرون مثقالاً، قال: وكان فيه المنقار بوزن خمسة عشر مثقالاً، ذكروا أنه كان على خلقة طائر من ياقوت أحمر، ومنقاره أصفر، وهو أعجوبة. انتهى.

وإنما نقلنا هذا الفصل ليتميّز منه ما هو في غاية الندور من هذه القنية المالية، فتتبين به هذه الصورة التي أبرزها التقسيم، وأنّ فاقد مثل ذلك، والمبتلى بالأسف عليه، هو الذي تتنزّل عليه هذه الصورة، ويعوز العوض مما يقرب من هذا، يخف على من طرقه التمحيص في مثله، على قلة جدواه، إذا تؤمِّل بعين البصيرة.

ومما يجري مجرى التمثيل لما بُوِّبت له هذه الصورة من كون القنية المفقودة معدومة النظير، أو نادرة العوض، ما ذكره الكندي حكيم العرب في بعض رسائله، فإنه قال: يحكى عن ايزن ملك رومية أنه أهدى إليه مهد قبّة بلّور ثمينة عجيبة الصنعة، فعرضت عليه وعنده جماعة من الناس فيهم رجل فيلسوف كان على عهده، فعظم بهجه بها، وكثر وصف من حضر محاسنها، فالتفت إلى الفيلسوف فقال: ماذا تقول في هذه القبّة؟ فقال: أقول قد أظهرت منك فقراً، ودلت على مصيبة عظيمة أنت تعرضها. فقال له: وكيف ذلك؛ قال: لأنها إن عدمت فما يؤنس لك أن تملك مثلها، فأبدت فقرك عن مثلها، وإن عرضت لك آفة أعدمتكها أُدخلت عليك مصيبة عظيمة. هذا القول أو ما هذا القول موافق له في المعنى، فذكر أن الأمر في ذلك كان كما قال الفيلسوف؛ فإنّ الملك فيما ذكروا خرج متنزها أيام الربيع إلى بعض الجزائر

القريبة، وأمر بحمل القبة فيما حمل لتبنى في متنزهه، فغرق المركب الذي كانت فيه القبة، فلم يقدروا عليها، فدخل على الملك مصيبة عظيمة، تبيّنها جميع من بحضرته، وجهد أن يصيب لها شبيها، فلم يصبه، حتى مات. فلذلك ما نقول: من أحبّ أن تقلّ مصائبه فلتقلّ قنيته من الخارجات عنه وهو القائل:

من سرّه أن لا يرى ما يسوءه   فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقرا

وقد حكي عن سقراط الحكيم أنه كان في بعض الحروب يأوي إلى جبّ مكسور في العسكر الذي كانوا فيه. فقال يوماً من الأيام وبحضرته بعض العيّابين: ينبغي ألا نقتني لئلا نحزن. فقال له العائب: فإن انكسر الجبّ؟ فقال سقراط: إن انكسر الجبُّ لم ينكسر المكان. ونحو ما قال الفيلسوف: لأنّ من كلّ مفقود خلفاً. انتهى ما ذكره الكندي.

وذكر إبراهيم بن الهندي أن أباه اشترى حجر ياقوت أحمر على أقصى النهاية من النفاسة، وكان يسمّى الجبل، بثلاثمائة ألف دينار، وكانت أكياسُها لما نُضّد بعضها على بعض كالجبل، وأنه وهبه للهادي، ووهب للرشيد الخاتم المعروف بإسماعيل، من زمردة لم يُر مثلها، وفيها قبة، طلب لها سنين ما يشاكلها ليستر تلك الثقبة به، حتى وجدوه بعد حين وعمل له منه ما ينهدم فيها، وأحضروا الصواغ يصاغ بين يديه خاتماً، وطلي المنحوت بمصطكي ليركبه في ثقب الفص. ووضعه الرشيد في كفه ينظر إليه معتبراً للمشابهة بينهما، فوقعت عليه ذبابة وتعلّق برجلها، فطارت وذهبت به، فقال الرشيد: صدق الله في قوله: ﴿ضَعُفَ الطالب والمطلوب﴾ [الحج:٧٣]. ولما استخلف الهادي دخل عليه الرشيد رأى الإسماعيلي في يده فحسده عليه، وأراد أن يقترن بالجبل، وحين خرج من عنده اتبعه الفضل بن الربيع مع إسماعيل الأسود بأن

يبعث الإسماعيلي إليه، وإن لم يفعل فجئني برأسه، ولحقه الربيع وأخبره بالقصة، فقال: واللّه لا أعطيه إلا بيدي. ورجع معه إلى أن بلغا الجسر وأخرجه من أصبعه، وقال: يا فضل: أهو الإسماعيلي؟ قال: نعم. فرمى به في دجلة، وطلبوه فلم يوجد، إلى أن استخلف الرشيد ومضت من خلافته سنة، وكان بالخلد يذكر ما عامله به موسى، فتذكر الخاتم، وأمر الفضل بالغوص لتطلُّبه فقال: ياسيدي قد طلب مراراً وإني لأظن أن قد علاه أكثر من أربع أذرع من الطين لتطاول المدة. ثم مضى الفضل بالغواصين، فقال له أحدهم: قف موقف الرشيد وارم بمدرة في قدر الخاتم كما رمى به. ففعل، وأول ما غاص الغواص في مسقط المدرة بعد أن قدّر ما يميل الماء به إلى أن يبلغ القرار أخرج الخاتم وقرنه الرشيد بالجبل كما أراد الهادي و لم يكن. انتهت.

وهذه الحكاية في حق الهادي غريبة في الدخول تحت هذه الصورة من حيث فقده لهذا الخاتم العديم النظير المنقطع الشبيه الذي حمله الحسد على استخلاصه من أخيه الذي آثره به أبوه، واستفاضته إلى ما كان قد خصه من حجر الياقوت المسمّى بالجبل. وهي في حق الرشيد بما جمع اللّه له من الذخيرتين المذكورتين ظاهرة الدخول تحت الصورة التي قبلها. وانظر ما أعجب ما اتفق له من جبر الخاتم، فإنما ذلك - واللّه أعلم - لمكان بغي أخيه عليه وعدم البغي منه. رزقنا اللّه القناعة بما منح من نعمة.

ومما ينخرط في هذا السلك ما حكي عن المأمون أنه لما قدم بغداد منصرفاً من خراسان أهدى له الفضل بن الربيع فصّ ياقوت لم يُر مثله، فأخذ المأمون يقلّبه ويحوله من يد إلى يد فيقول لجلسائه: ما رأيت أحسن من هذا . حدّثهم بأن أبا مسلم سرّح زياد بن صالح إلى الصين، فوجّه زياد إليه بفصّ

وقع من جهته إلى أبي العباس السفّاح فوهبه لعبد اللّه بن علي فصار منه إلى المهديّ ثم الرشيد، فبينا هو يرمي بقوس جُلاهق إذ برز الفص من خاتمه، وفتّش ذلك الموضع وحواليه و لم يُعثر له على أثر، فاغتمّ جداً. واشترى صاحب المصلّى فصاً عديم المثل بعشرين ألف دينار وبعثه إليه ليسلّيه به، فلما نظر إليه قال: وأين هذا من فصّي. ثم قال المأمون: لأضعنّ من قدر هذه الحجارة التي لا معنى لها، وردّه على الفضل، وقال لرسوله: قل ذُهيت دولتك يا أبا العباس. ولما رجع الفصّ إلى الفضل وجمه وقال لأحد بطانته إن المأمون لا يعيش من يومه إلا أقلّ من سنة. وما أمسى إلا وقد أتاه الخبر بالقصة فأسرّها و لم يُبدها إلى أن حال الحول وركب في تشييع جنازة العبّاس بن المسيب، فعرض به بباب الشام بعض أولاد الفضل، ودعا له، وانتسب فاستدناه حتى قرب من ركابه، فانحنى له، وأدنى إليه رأسه مُسرّاً وقال له: أعلم أبا العباس أن ذلك الوقت قد مضى. انتهى.

وما حكاه المأمون من اغتمام الرشيد لفقد الفص الذي ضاع له على هذا الوجه من الرمي بالقوس الذي نسمّيه نحن قوس البندق وعدم تسلّيه بما اشترى له من عوض منه متمكن في هذه الصورة. ورأي المأمون في وضعه من هذه الأحجار أرجح وأصوب، وقد يكون أصبع الرشيد أميل إلى الاغتباط بمثل هذه القنية النفيسة من ابنه المأمون رحمهما اللّه. فقلّما تتفق الهمم والقرائح على معنى واحد.

ومما يشهد بما ظُنّ من طبع الرشيد ما حكاه نصر الجوهري عنه فإنه قال: كان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصاً على اقتنائها. وإنه بعث بالصبّاح الجوهري جدّ الكندي إلى صاحب سرنديب لابتياع جواهر في

ناحيته، فأكرمه الملك، ورحّب به، وأراه خزانة جواهره وهو يقلّبها ويتعجب من حلاتها وعظم أجرامها، إلى أن بلغ ياقوتاً أحمر و لم يكن رأى في خزائن الخلفاء مثله، فاشتد إعجابه بها. وقال له الملك: هل لك عهد بمثله؟ قال: لا. قال: فهل تقدر على تقويمها إذ عجز الكل عنه؟ قال: أفعل. وشقّ ذلك على الملك. وقال له: كنت استرجح عقلك فكذبت فراستي فيك لادّعائك ما أعجز الكافّة. قال الصبّاح: ما أخطأت فراستك، وإن أردت صدقتها فاجمع من عندك من ذوي البصر بأمر الجواهر. واستحضر الصبّاح ملاءة وبسطها ودفع أطرافها إلى أربعة نفر يمسكونها في الهواء، ثم رمى بالياقوتة فوق الملاءة بأقصى قوّته. ولما سقطت على الملاءة قال للملك: قيمتها أن يُصبّ العين على الأرض إلى أن يعلو حيث بلغت بالرمي. فاستحسن القوم قوله، وجلّ في عينه وأعينهم، وأمر فحشي فوه بالجوهر الرائق وخلع عليه وصرفه بقضاء ما ورد له. انتهى. وفي هذه الحكاية مثل ما سبق قبل من إيضاح الندور في هذه الأمور، والنادر عندنا مما لم يوجد مثله كالنادر في سرنديب كذلك.

وقال عبد الرحمن بن صاحب صلاة الكوفة: دخلت على أمّي يوم أضحى فرأيت عندها عجوزاً في أطمار، وذلك سنة تسعين ومائة، وإذا لها بيان. فقلت لأمي: من هذه؟ قالت: هذه خالتك عيّابة أمّ جعفر بن يحيى، فسلّمت عليها فردّت. وقلت: أصارك الدهر إلى ما أرى! قالت: نعم يا بنيّ إنما كنا في عوارٍ ارتجعها الدهر منّا. فقلت: حدّثيني ببعض شأنك. قالت: خذه جملة، لقد مضى عليّ أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين وعلى رأسي أربعمائة وصيفة، وأنا أزعم أن ابني عاقٌّ بي، وقد جئتكم اليوم أطلب جلْديْ شاتين أجعل أحدهما شعاراً والآخر دثاراً. قال: فبكيت ووهبت لها دثاراً . انتهت.

وهذه الصورة قد تقدّم الكلام في صدرها على ندور ما لا يوجد منه عوض، و لله الفضل في ذلك، وأنّ الأكثر إنما هو أن يمنع من عودة الفائت بعينه مانع كالذي فقدته أمّ جعفر في هذه الحكاية المرسومة ثانياً فإن وجاهة الوزارة الرشيدية بعد موت ولدها مستحيلة في حقّها، وكل حكاية يفقد فيها القائم بمصالح من يحكى عنهم ممن لا يستقل بنفسه كالنساء ومن ماثلهن فإنها تندرج تحت هذه الصورة الثالثة؛ فإن عدم العوض من شيء مفقود من هذه القنية يصوّره الذهن، وقد لا يوجد في الخارج إلا ومنه عوض، وفي غيره عنه بدل، إلا أن يحكم الهوى في كون ما خالف هذا المفقود ليس بمماثل له من كل الوجوه، فهذا أيضاً يفضي إلى أن لا عوض من شيء مفقود إلا في المثليات خاصة على استكراه شديد في ذلك، ولا اعتبار بذلك بنظر الحقّ، فالوجه أن يكون التقسيم إنما أبرز الصورة التي يندر العوض منها، أو يمنع المانع من عودة مثل المفقود كما سبق أو يكون لشرفه واحداً في العالم.

كما يحكى عن مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي في صبابته ببلده مكة لما قُضي عليه بالجلاء عنها وذلك أن قومه جُرهماً بغوْا في الحرم، فنهاهم مضاض عن ذلك، وحذّرهم نقمة اللّه، فلم ينتهوا، فسلّط اللّه عليهم خزاعة، فقاتلوهم حتى نفوهم عن الحرم وغلبوهم عليه. وكان بنو إسماعيل ممن اعتزلوا جرهماً وخزاعة عند وقوع الحرب بينهم، فلما استقرّت خزاعة بمكّة سألهم بنو إسماعيل السُكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم، فلما رأى ذلك مضاض بن عمرو وكان قد اعتزل جرهماً و لم يُعنْهم في حرب خزاعة وقال: "قد كنت حذّرتكم هذا"، وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة أمر عظيم، أرسل إلى خزاعة يستأذنها ومتّ إليهم باعتزاله الحرب وتوريعه قومه عن القتال وسوء العشرة

في الحرم، واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن يقرّوهم ونفوهم عن الحرم كله، وقال عمرو بن لحّ لقومه: من وجد منكم جُرهمياً قد قارب الحرم فدمه هدر. فنزعت إبل المضاض بن عمرو من قَنْونى تريد مكة فخرج في طلبها حتى وجد أثرها قد دخلت مكة، فمضى على الجبال من نحو أجياد حتى ظهر على أبي قبيس فأبصر الإبل في بطن وادي مكة تنحر وتؤكل، ولا سبيل له إليها، فخاف إن هبط الوادي أن يُقتل فولّى منصرفاً إلى أهله وأنشأ يقول:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
ولم تتربّع واسطاً فجنوبه ... إلى المنحنى من ذي أراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربّي بها دار غربة ... بها الذيب يعوي والعدو المحاصر
فهل فرجٌ آتٍ بشيءٍ تحبُّه ... وهل جزع ينجيك ممّا تحاذر

في أبيات طويلة تركت خيفة التطويل، وما أعذر مضاض بن عمرو في وجده مكة، وجزعه من فراقها، ومن كان مجاوراً لبيت الله وساكناً في حرمه، فأُخرج منه غلبة وقهراً، فهل هو إلا كآدم ﷺ حين أُخرج من الجنة، وأين يجد في البسيطة عوضاً من مكة في شرف قدرها وهوى الأفئدة إليها؟! فهي في هذا المعنى فذّة، وهي في البلاد ندرة، جعلنا اللّه ممن قُسم له حظٌّ من زيارتها والوفادة عليها في سبيل الامتثال لأمره والاشتياق لبيته.

وممن طرقته البليّة في الجاه والمال فلم يتمكن له الاستعاضة منها أبو النصر بدر مولى عبدالرحمن بن معاوية الداخل رحمه اللّه، قال الرازي: وكان من أكبر من أمضى عليه الأمير عبدالرحمن بن معاوية حكم سياسته وقومه مولاه بدر المتعلّق منه بكل ذمّة محفوظة، الخائض معه لكل غمرة مرهوبة،

وكل ذلك لم يُغن عنه نقيراً، لما سلف عليه في إدلاله عليه وكثر من الانبساط لحرمته فجمح به مركب تحامله حتى ورده مورداً لم يُطق الصدر عنه، وأسف أمره ومولاه حتى كبح عنانه كبحة أقعى بها. قال: فانتهى في عقابه لمّا سخط عليه إلى أن سلبه نعمته وانتزع منه دوره وأملاكه، وأغرمه على ذلك كله أربعين ألفاً من صامته، وأقصاه عن قربه ولم يقله العثرة إلى أن هلك فدفع به طمع هوادة عن جميع ثقاته وخدمته، وصيّر خبره مثلاً في الناس بعده. انتهت. وهذه الرتبة الجاهية والمالية لمثل بدر هذا من القنيات التي يندر له وجود مثلها كما سبق. وفي سلامة نفسه ما يسلّيه عن مفقوده، لطف اللّه بنا في قضائه.

وذكر الصولي أن المعتصم لما فرغ من بناء قصر عبّاسة عقد مجلساً رائعاً جمع فيه أهل بيته، وتتوّج بالتاج الذي فيه الدرة اليتيمة، فاستأذن اسحق الموصلي في الانشاد وقال:

يا دار غيّرك البلى ومحاكِ ياليت شعري ما الذي أبلاكِ

فتطيّر المعتصم بذلك، وتغامز الحاضرون متعجّبين كيف ذهب عليه هذا مع طول صحبته للخلفاء والملوك، وصحّ التطيُّر بخروج المعتصم إلى "سُرّ من رأى" [سامراء حالياً] فإنه لم يعد إلى ذلك القصر، وخرب ولم يجتمع فيه من ذلك المجلس بعده اثنان. انتهت.

ولما كان ما تحت هذه الصورة من مفقود القنية الجاهية أو المالية قد فرض من الندور بحيث يعزّ الاعتياض منه، ويتعذّر الاستغناء عنه، اقتضى ذلك بحسب ما جُبلت عليه النفوس من الحرص على ما منعت منه الاستشراف لما لم تجد بدلاً عنه أن يكون الأسف على فقده عظيماً والكمد من أجل فوته شديداً، والنفوس في هذا المعنى متفاضلة والقرائح متفاوتة فقد يتأثر بعض

النفوس من فقد ما يجد منه العوض ما لا تتأثر منه نفس أخرى من فقد ما لا تجد منه بدلاً، ولكن إنما أخّرنا الكلام على هذا إلى هنا لأن التأثير النفساني مما لا يوجد منه عوض في الأمر الأكثر أغلب، والنفس في الاهتمام من فوته أعذر، وليكون ذلك شاملاً للصورتين المتقدّمتين قبل هذا.

فنقول: إن الأسف لفوت شيء إذا حقَّ إنما هو ضرر يدخله المبتلى على نفسه متى سامح داعية هواه، وخاف مقتضى عقله، فإنه إذا لحقه من فوت ما لا يجد منه بدلاً، كما في هذه الصورة، أو من فقد ما يجد منه البدل، ولم يحصل له بعد، فإنه يجد الأسف في ذلك قبيحاً إذا كان لا يُجدي شيئاً في رد ما فقده، ولا في استرجاع ما ذهب عنه أبداً، لا يسترسل مع شيء لا ينفعه عاجلاً ولا آجلاً، فإنه إن كان في الصورة الثانية حيث يوجد منه العوض، ويتهيأ منه البدل، فالواجب هنا صرف النفس عن التعلّق به والجنوح إليه، وقطع الرجاء عن ذلك حتى يثمر هذا المعنى للمبتلى بهذا الفقد راحةً لا يجدها ما دام معمور القلب بالأسف الذي قد فرضناه لا يغني عنه شيئاً ولا يجدي عليه نفعاً، وإنما يُشغل به نفسه عن رؤية حكم اللّه ومشاهدة أمره وملاحظة قهره، ثم عن الترقّي صعوداً إلى اقتباس نور اللّه الذي هو ثمرة العقل في رجاء كون ما يمنع منه هذا الفقد، ولعله مما تكون فيه الخيرة ويبدو بعد الوقوع ما أخفى اللّه في ضمنه من لطف، أو عسى أن يكون في علم اللّه ما لا يعلمه المبتلى من رجحان ما زوي عنه على استمرار انتفاعه به، فقد وقعت التجربة من العقلاء على ذلك ما يبهر عقولهم ويبهج نفوسهم. وقد مرّ من ذلك في بعض الحكايات ما فيه للصدور انشراح وللقلوب ابتهاج. ولهذا المعنى قال يعقوب الكندي حكيم العرب: "إن هذه القُنيات الحسية والطلبات الحسية

موقوفات لكل واحد، ومنديل لكل يد، لا يمكن تحصينها، ولا يُؤمن فسادها وزوالها وتبدّلها، فتصير بعدما تؤنس بقربها موحشة، وبعد الثقة بطاعتها عاصية، وبعد إقبالها مدبرة، وليس في الطبع أن يكون ما ليس في الطبع، فإن أردنا من الأموال المشتركات، التي ليس منها شيء خاص لأحد دون أحد بل هي مال لكل أحد، أن تكون لنا خاصة، ومن الفاسدة ألا تكون فاسدة، ومن المدبرة أن تكون مقبلة فقط، ومن الزائلة في كل حال أن تكون ثابتة، فقد أردنا من الطبع ما ليس في الطبع. ومن أراد ما ليس في الطبع فقد أراد ما ليس بموجود، ومن أراد ما ليس بموجود عدم طلبته، والعادم طلبته يشقى، فمن أراد الموقوفات وأراد أن يكون قنيته ومحابّه منها شقي، ومن تمّت له إرادته فسعيد، فينبغي إذاً على أن نكون سعداء ونحترس من أن نكون أشقياء.

❁❁❁

تتميم

هذا المحل بحمد اللّه أوجب، وهو فيه أبهج وأعجب، أمّا أوّلاً فإن من هانت عليه زخارف الدنيا حتى لا يؤسفه فُقْدُ زهراتها ولا تستفزّه خدع لذاتها، فقد منحه اللّه من فضله جزاء لا يفضله فيه إلا من أوتي أعظم منه، فيضمحل لديه زبرجها الزائل وزخرفها الذاهب، وتلك سيماء الصالحين من عباد اللّه الذين علموا أنها غزارة فرفضوها وتحققوا أنها خدّاعة فنبذوها، ولو فرض أنها لا تغرّ، وقدّر أنها تنفع ولا تضر، أليس في ذهابها ومكان انقلابها، ما يوجب على العاقل أن يزهد، فيها، وينصرف بهمته عنها، ويقبل بقلبه على آخرته التي هو مستبق إليها، وقادم بأحثّ السير عليها. أما واللّه إن في ذلك لعبرة لأولي النهى. وأما ثانياً فإن من وفّقه اللّه إلى عمل صالح وإن قلّ، وأرشده إلى فعل جميل فكمل وتمّ، لجدير أن يحمد اللّه على ما دله عليه وأرشده إليه، ولعل رحمة اللّه تسدده إلى مثل ما عمله، وتقوده إلى نحو ما فعله، إذا حمده على ما منح من رشده، وشكره على ما وهب من توفيقه، فقد قال اللّه تعالى: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧] فقد تبيّن بهذا كله تأكد الاجتهاد في حمد اللّه على كل حال، ولزومه للعبد في كل مقام ومقال، فله الحمد ملء السماوات والأرض، وله الحمد الذي يكافي نعمه ويوجب المزيد منها، وله بمثل ما يحمده به نبيه محمد ﷺ نبي الحمد في المقام المحمود، الذي يبعثه اللّه فيه، حمداً كثيراً حتى يرضى.

❖❖❖❖

الصورة الرابعة

● أن يكون الابتلاء في النفوس، أو ما لحق بها من أعضاء وقوى، متوقعاً في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

ولا بد أن تكون مخائل وقوعه قريبة، وإلا فالاهتمام بما لم يظهر لوقوعه مخيلة ضرب من الوسواس الذي ليس بجار على وفق أنظار العقلاء.

ثم لا يخلو هذا المتوقع القريب المخائل من الوقوع أن يكون إلهياً محضاً لا كسب فيه لمخلوق جلباً ولا دفعاً، كالريح العاصف والرعد القاصف، وكاستشعار الطيرة، وما أشبه هذا مما لا اكتساب لأحد في إيقاعه، ولا في صرفه، ولا في جلبه المخوف منه، ولا في منعه، فيتعين هنا الاستكثار مما ورد من الذكر، مخصوصاً بكل محلٍّ مخوف فيه، وكل محذور يخشى منه؛ كما إذا هبّت الريح عاصفة فإن النبي ﷺ كان يقول في مثل ذلك: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به**»(١).

وقال فرقد مولى المهدي: هاجت ريح زمن المهدي، فدخل المهدي بيتاً في جوف بيت، فألزق خدّه بالتراب، ثم قال: اللهم إني بريءٌ من هذه

---

(١) أخرجه مسلم (٨٩٩) واللفظ له وأصله عند البخاري (٤٨٢٩) وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها.

الجناية، كل الخلق عبيدك، فإن كنت المطلوب من بين خلقك فها أنا ذا بين يديك، اللهم لا تشمِّت بي أهل الأديان. فلم يزل كذلك حتى انجلت الريح.

وهذا المخوف في هذه الأحوال كلها إنما هو متوقع قريب الوقوع وليس بواقع بعد، والمتوقع منه قد ضمن الذي يندرج تحت علمه ما يتسبب به رفع مثل هذه الآفات، أن هذا القول المعين لهذا المحل المعين من خشية ريح أو رعد أو غيرهما كفيل بالسلامة من ذلك.

وليس هناك طريق للتسبب بأكثر من الأسباب الحملية المتقدمة الذكر، كالتوبة والتقوى، أو هذه الأذكار المخصوصة على التعيين، أو أن يكون لمخلوق فيه اكتساب، وهنا يتسع النظر في الأسباب الجائزة، وذلك مثل خشية جور أو خيفة ظلم أو توقّع مرض أو تخوُّف ضرر على الحملة، فخشية كل ما فرض واقعاً غير سماويّ في الصورتين بعدها فلا نطوّل بتفصيلة إذ الأولى به ذلك المحل. وقد يتأكد في مثل هذا الموضع الإشارة في تعيين السبب المستدفع به هذا المتوقع وفي أرجحيته، فقد كان عمر بن الخطاب يستشير في الأمر حتى أنه ربما استشار المرأة فأبصر في رأيها الشيء يستحسنه فأخذ به، وقال الشاعر في هذا المعنى:

إذا الأمر أشكل إنفاذه ... ولم تر منه سبيلاً فسيحاً
فشاور بأمرك في سرّه ... أخاك أخاك اللبيب النصيحا
فربّما فرّج الناصحون ... فأبدوا من الرأي رأياً صحيحا
ولا يلبث المستشير الرجال ... إذا هو شاور أن يستريحا

وقال بعض الفلاسفة: إذا كنت مستشيراً فتوخّ ذا الرأي والنصيحة فإنه لا يُكتفى برأي من لا ينصح ولا بنصيحة من لا رأي له. وإنما تتأكد

الاستشارة ليرتكب من الأسباب ما يشار به مما هو مباح أو مطلوب.

وهذه الصورة المرسومة أخفُّ من تينك الصورتين اللتين بعدها بأضعاف كثيرة، وكل ما استعمل هنالك، من التفويض والتسليم والرضا والصبر والعزاء والتأسي والتسلّي، فواجب هنا استعماله أو استعمال ما يليق بالمحل منه. ويتأكد هنا قوة الرجاء في اللّه تعالى أن يصرف هذا المتوقع قبل وقوعه لقول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه: « **أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً** »[1]. وللصدقة أيضا في ذلك فائدة كبيرة وسيأتي الكلام فيها وما ينجر معها من الحكايات في الصورة بعد هذه.

تقسيم أسباب متوقعات الهلاك

فإن كان هذا المتوقع سطوة من ملك أو عداء من جائر أو استطالة من ظالم أو موتاً خافه المتوقع على نفسه أو على غيره ممن يعزّ عليه فقده، أو مرضاً من تلك الأمراض المفسّرة هنالك، أو غيرها مما لم يذكر يخشاه على نفسه أو على غيره كذلك، أو فقداً لبعض الأعضاء إلى سائر ما وقع تفصيله في تينك الصورتين، فإن من الواجب هنا أن ننظر في هذا المتوقع هلاكاً كان أو غيره مما فسر معه، فإنه لا يخلو أن تكون الأسباب الموجبة له والمقتضية لحصوله داخلة تحت قدرتنا وراجعة إلى اكتسابنا أو لا:

القسم الأول: وهو المقدور عليه فالوقاية منه واجبة

فإن كان القسم الأول وهو حيث تكون الأسباب الموجبة له مقدورة لنا كما إذا قيل إن القصد إلى كذا يثمر من الملوك كذا أو مداخلتهم في كذا

---

(١) أخرجه بدون زيادة «**فليظن بي خيراً**» البخاري (٧٤٠٥) ومسلم(٢٦٥٥) وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ. والزيادة أخرجها أحمد والدارمي (٢٧٣١) عن واثلة بن الأسقع.

تقتضي من الابتلاء كذا، أو أن الطعام الفلاني مضر بمن طبعه كذا أو مزاجه كذا فيولد له الهلاك والمرض المخوف، أو أن سلوك الطريق الفلانية يخشى منه كذا، أو المداومة على كذا يتولد منه كذا من عمىً أو صمم أو خدر وما أشبه ذلك، وكذلك إذا قيل إن المجذوم يخاف من ملاصقته، وما أشبهه من الأمراض التي اتفق الأطباء على أن مجانبتها أكيدة لقول النبي ﷺ : « **فرّ من المجذوم فرارك من الأسد** »[1]. ولم تغفل عن قضيّة معيقب الدوسي ولا عن قوله: «**لاعدوى ولا طيرة**»[2] . وفي تأليف ابن صفوان الذي سمّاه "تحرير المقبول" من الدعوى في هذه القضية الشفاء لمن يريد الوقوف عليه، ولسنا للكلام في ذلك وإنما نتكلّم هنا في هذه الأسباب إذا تعيّنت فالواجب علينا ألا نفعلها إذ وهي تسبب لنا ما نريده وما نهتم من أجله.

القسم الثاني: ما لا قدرة عليه فإن أمكن دفعه دفع وإلا فالواجب التوكل

وإن كان القسم الثاني وهو: حيث تكون الأسباب الموجبة للموت أو المرض أو التعب أو المشقّة على الجملة غير داخلة تحت قدرتنا ولا راجعة لاكتسابنا فلا يخلو إن حدثت مسبباتها أن يكون لنا أسباب نقدر بها على دفعها أو لا.

فإن كان القسم الأول فالواجب علينا أن نفعلها ونتسبب فيها إذ ومن قُدرتنا ندفع هذا المؤذي لنا بما جُعل لنا من السبب الموجب لدفعه، وهذا كله بقيد الجواز الشرعي والإباحة الدينيية، وبعد ملاحظة التوكل على اللّه في السبب المرتكب، والتحرّز بقيد الجواز الشرعي من مثل الفرار من الوباء، فإن القول

(١) البخاري معلقاً عن أبي هريرة وأحمد

(٢) متفق عليه وروى هذا الحديث أنس وأبو هريرة وابن عمر وجابر وغيرهما.

المشهور المطابق لنص الحديث الصحيح الوارد بالنهي عن الفرار منه والقدوم عليه هو عدم الجواز، وهو المعتمد في المذهب، إلا أن ابن رشد في "البيان والتحصيل" جعل هذا النهي عن الفرار منه للإرشاد، فوقع عن مرتكبه الإثم.

وفي الحض على التوكل على اللّه كتب بعض الحكماء إلى صديق له: أما بعد فإن في التوكل على اللّه غنى النفس وصيانة العرض وانتظار الفرج وهو محض الإيمان، وفي الشره ذُلّ عاجل ومقت من القلوب، وقنوط لازم، وتعب فادح، وعيش نكد، وشك دائم. انتهى.

ويعتمد على اللّه في ذلك ويوثق به، وبهذا يحصل القصد، ويتم الغرض، وترتاح النفس، وينشرح الصدر.

وإن كان القسم الثاني: وهو حيث تكون الأسباب الصارفة له غير داخلة تحت قدرتنا، ولا راجعة لاكتسابنا، ولا مندرجة تحت نطاق قوتنا، فمن الواجب هنا صرف النفس عن الفكرة في هذا، وعدم استعجال الكرب به، والاهتمام منه، والأسف من أجله، والحزن على ما يُخشى به فوته، إذ ومن الممكن أن لا يقع هذا المتوقع، فيكون الكرب به والاهتمام منه استعجالاً للغمّ في غير وقته، فلعل الذي بيده الابتلاء به أن يصرفه عنا ويريحنا منه، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ أبو محمد عبداللّه بن الحسين القرطبي ـ رحمه اللّه:

سهدت أعين ونامت عيون   لأمور تكون أو لا تكون
فاطرد الهمّ ما استطعت عن النفـ   ـسِ فحملانك الهموم جنون
إنّ ربّاً كفاك بالأمس ما كان   سيكفيك في غدٍ ما يكون

ولذلك قال الحسن البصري ـ رضي الله عنه : لا تحملن على يومك همّ غدك، فحسب كل يوم همّه. انتهى. وهذا هو محل تقوية الرجاء في اللّه ، وموضع

تحسين الظن به، وهنا يقول بعض الحكماء: لا يكون كل ما يُخاف منه. ويقال أنّ هذا المعنى في التوراة ونصّه فيها: أكثر ما يخاف العبد لا يكون. وإنما ذلك، والله أعلم، لما يكفي اللّه عبده من هذه المتوقعات. قال اللّه تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ [الزمر:٣٦] وما أعجب قول الشاعر في هذا المحل:

كفاية اللّه خير من توقينا.

ولا سيما إن كان العبد قائماً بحكم شرعي، أو سالكاً من الحق على سبيل سويّ، فلا أثر لما يلقاه في ذلك بما أجراه من عادته في تأييده لمن يذبّ عن دينه أو ينصر سُنّته.

ابتلاءات العلماء بمداخلتهم الملوك

كما يحكى عن مالك أنه كان جالساً مع أبي جعفر المنصور فعطس فشمّته مالك، فما خرج أنكر عليه الحاجب ذلك وتهدّده إن عاد لتشميته، فلما كان بعد ذلك جلس عنده فعطس أبو جعفر، فنظر مالك إلى الحاجب ثم قال للمنصور: أي حكم تريد يا أمير المؤمنين أحُكم اللّه أم حُكم الشيطان؟ قال: بل حكم اللّه ، قال: يرحمك اللّه . انتهت. و لم تنقل هذه الحكاية وما يشبهها على أنها محض الابتلاء المتوقع الذي قصد الكلام فيه، ولكنّها وأمثالها من أوائله، فإنّ التهديد من ذلك الحاجب لمثل مالك ﷺ عظيم، ولكنّه لقيامه بالحق، ورسوخه في توخّي الصدق، لم يحفل بتهديده، و لم ينثن عن إرشاد الملك وتسديده.

وقريب من ذلك ما نقل عن مطرّف وابن نافع وغيرهما، وبعضهم يزيد على بعض، قالوا: لما قدم هارون المدينة وجّه إلى مالك، البرمكي وقال له: قل له احمل لي الكتاب الذي صنّفته حتى أسمعه منك. فوجد مالك من ذلك،

واغتمّ، وقال للبرمكي: اقرئه السلام وقل له: العلم يـزار ولا يـزور، وإن العلـم يؤتى ولا يأتي. فرجع البرمكي إلى هـارون، فأخـبره بذلـك، فغضـب، وأشـار عامّة أصحاب مالك عليه أن يأتي هارون، وقال البرمكي للرشـيد: يبلـغ أهـل العراق أنك وجّهت إلى مالك فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك. فإذا بمالك قد دخل عليه فسلّم وليس معه كتاب. فقال له هارون في ذلك، فقال مـالك: يـا أمير المؤمنين! إن اللّه تعالى بعث إلينا محمداً، وأمـر بطاعتـه واتّبـاع سـنّته، وأن نرعاه حيّاً وميتاً، وقد جعلك اللّه في هذا الموضع لعلمك، فـلا تكـن أنـت أوّل من وضع العلم، فيضيعك اللّه، واللّه لقد رأيت من ليس في حسـبك ونسـبك، من الموالي وغيرهم، يعزّ هذا العلم ومحلّه، ويوقّر حملتـه، فـأنت أحـرى أن تجـلّ علم ابن عمك. و لم يظل يعدّد عليه حتى بكى. ثـم قـال لـه: حدّثـني الزهـري وذكر حديث زيد بن ثابت : كنت بين يـدي رسـول اللّه ﷺ: ﴿ **لا يسـتوي القاعدون والمجاهدون في سبيل اللّه** ﴾ [النساء: ٩٥]. وابـن أم مكتـوم عنـد النـبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه ! قد أنزل اللّه في فضل الجهـاد مـا أنـزل، وأنـا رجـل ضرير، فهـل لي مـن رخصـة؟ فقـال رسـول اللّـه ﷺ: «**لا أدري**». قـال زيـد: وقلمي رطب لم يجف، حتى غشي النبي ﷺ الوحي ووقع فخذه على فخـذي، فكادت تندق من ثقل الوحي، ثم خلّي عنه، فقال: «**اكتب يازيد!** ﴿**غـير أولي الضرر**﴾» فيا أمير المؤمنين هذا حرف واحـد بعـث فيـه جـبريل والملائكـة مـن مسيرة خمسين ألف عام، حتى أنزل على نبيه، أفـلا ينبغـي أن أُجلّه وأعـزّه؟!. فقال هارون: قم بنا إلى مـنزلك. فـأتى هـارون مـنزل مـالك، فدخـل مـالك، واغتسل، ولبس ثياباً جدداً، وتنظّف، ووضع مجامير فيها عود، وجلـس فقـال: هات. فقال هارون: تقرأ علي. فقال: ما قرأت علـى أحـدٍ منـذ زمـان. قـال: فأخرج عني الناس حتى أقرأه عليـك. فقـال مـالك: العلـم إذا مُنـع مـن العامـة

لأجل الخاصة لم تنتفع به الخاصة. قال: فأمر بعض أصحابك يقرأه. فأمر المغيرة، فقرأه له على مالك. وفي رواية أن الذي قرأه له معن. قال: فكان هارون قد استند إلى جنب مالك، فلمّا بدأ يقرأ، قال له: يا أمير المؤمنين! من تواضع لله رفعه اللّه . وفي رواية أبي مصعب: من إجلال اللّه إجلال ذي الشيبة المسلم. فقام فقعد بين يديه فحدّثه، فلما فرغ عاد إلى مكانه. قال مالك: لما كان بعد مدّة قال لي الرشيد: تواضعنا لعلمك، فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به. وكان يأتيهم فيحدثهم. انتهى.

وهذا أقلّ ما يبتلى به من قبل الملوك في مثل هذه الأغراض السنية والمقاصد الدينية، فما الظن في مداخلتهم على نحو مداخلتنا، وملابستهم على الوجه المستنكر من ملابستنا؟!، لطف اللّه بنا لطفاً يليق بفضله، وتولانا في تقصيرنا في الأمور بحمله.

ومن هذا الباب الذي يكاد الابتلاء أن يلحق العلماء بملابستهم للملوك ما حُكي عن أبي يوسف قال: دعا المنصور أبا حنيفة، فقال الربيع حاجب المنصور، وكان يعادي أبا حنيفة: يا أمير المؤمنين! هذا أبو حنيفة يخالف جدّك. كان عبداللّه بن عباس يقول: إذا حُلف على اليمين ثم استثني بعد ذلك بيوم أو يومين جاز الاستثناء. وقال أبو حنيفة: لا يجوز الاستثناء إلا متصلاً باليمين. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين! الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب جندك بيعة. قال: وكيف. قال: يحلفون لك ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم. فضحك المنصور. وقال: يا ربيع لا تعرض لأبي حنيفة. فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع: أردت أن تشيط بدمي فخلّصتك وخلّصت نفسي. انتهى.

فتأمل ملابسة الملوك ــ وإن قلّت ــ ما تجني، فانظر كيف تقود إلى الدخول فيما لا يعني.

وعن عبد الواحد بن عتاب قال: كان أبو العباس الطوسي سيّئ الرأي في أبي حنيفة، وكان أبو حنيفة يعرف ذلك، فدخل أبو حنيفة على أبي جعفر أمير المؤمنين، وكثر الناس، فقال: الطوسي: اليوم أقتل أبا حنيفة، فأقبل عليه، فقال: يا أبا حنيفة! إن أمير المؤمنين يدعو الرجل منا فيأمره بضرب عنق الرجل لا يدري ما هو، أيسعه أن يضرب عنقه؟ فقال: يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أو بالباطل؟ قال: بالحق. قال: أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه. ثم قال أبو حنيفة لمن قرب منه: إنّ هذا الرجل أراد أن يوثقني فربطته. انتهى. وهذا من نسبة ما سبق فيما يلقى العلماء من إتيان أبواب الملوك، والضرورية داعية لهم لذلك، والله الذي يتكفّل بنجاتهم.

ومن نحو ذلك ما وقع لفقهاء قرطبة مع الناصر لدين اللّه ــ رحمه اللّه. قال ابن عفيف: إن الناصر احتاج إلى شراء محشر من أحباس المرضى بقرطبة، عدوة النهر، فتشكى إلى القاضي ابن بقيّ أمره، وضرورته إليه، لمقابلته متنزّهه، وتأذّيه برؤيتهم أوان تطلّعه من علاليه، فقال له ابن بقيّ: لا حيلة عنه لي فيه، وهو أولى بحفظ حرمة الحبس. فقال له: تكلم مع الفقهاء فيه، وعرِّفهم رغبتي، وما أبذله من أضعاف القيمة فيه، فلعلهم يجدون لي في ذلك رخصة. فتكلم ابن بقيّ معهم فلم يجعلوا إليه سبيلاً، فغضب الناصر عليهم وأمر الوزراء بالتوجيه فيهم إلى القصر وتوبيخهم، ففعلوا، فلما وصلوا إلى بيت الوزارة بالقصر، انبرى لهم رجل جديد من الوزراء، فأفحش في خطابهم، وقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين: يا مشيخة السوء! يا آخذي الرشى! وملقّني الخصوم!

وملقحي الشرور! وملبسي الأمور! وملتمسي الروايات لاتّباع الشهوات! تبّاً لكم ولآرئكم. فهو ـ أعزّه اللّه ـ واقف على فسوقكم قديماً، وخونكم الأمانة، ومغضٍ عنه صابر عليه، ثم احتاج إلى دقّة نظركم في حاجة مرةً في دهره، فلم يتسع نظركم للتحيّل له؟! ما كان هذا ظنّه فيكم، واللّه ليقارضنكم من يومه، وليكشفنّ ستوركم، وليناصحنّ الإسلام فيكم. وكلاماً في مثل هذا. فبدر شيخٌ منهم ضعيف المنّة إلى الاعتراف، واللياذ بالعفو، وقال: نتوب إلى اللّه مما قال أمير المؤمنين ونسأله الإقالة. فردّ عليه كبيرهم محمد بن إبراهيم بن حيّون، وكان ذا منّة، فقال: ممّ تتوب يا شيخ السوء؟! نحن بُرآء إلى اللّه من متابك. ثم أقبل على الوزير المخاطب لهم، فقال: يا وزير بئس المبلّغُ أنت، وكلُّ ما ذكرته عن أمير المؤمنين ممّا نسبته إلينا فهي صفتكم معاشر خدمه، أنتم الذين تأكلون أموال الناس بالباطل، وتستحلّون ظُلمهم بالإخافة، وتتحيّفون معاشهم بالرشى والمصانعة، وتبْغون في الأرض بغير الحق، وأما نحن فليست هذه صفتنا ـ ولا كرامة ــ لا يقوله لنا إلا متّهَم في دينه، فنحن أعلام الهدى ــ وسُرج الظلمة، بنا يتحصّن الإسلام، ويُفرَّق بين الحلال والحرام، وتنفّذ الأحكام، وبنا تُقام الفرائض، وتثبت الحقوق، وتحصّن الدماء، وتُستحل الفروج، فهلاّ إذ عتب علينا أمير المؤمنين بشيء لا ذنب فيه لنا، وقال بالغيظ بعض ما قاله، تأنّيت بإبلاغنا رسالته بأهون من إفحاشك؟! وعرّضت لنا بإنكاره، ففهمنا منك وأجبناك عنه؟! فكنت تزيّن على السلطان ولا تفشي سرّه، وتستحينا قليلاً فلا تستقبلنا بما استقبلتنا به، فنحن نعلم أن أمير المؤمنين ـ أيده اللّه ــ لا يبقي على هذا الرأي فينا، وأنه سيراجع بصيرته في تعزيرنا، فلو كنّا عنده على الحال التي وصفتها عنه ـ نعوذ باللّه من ذلك ، لبطل عليه كلُّ ما صنعه وعقده من أوّل خلافته إلى هذا الوقت، فما ثبت له كتاب بيع ولا سلم ولا بيع ولا

شراء ولا صدقة ولا حبس ولا هبة ولا عتق ولا غير ذلك إلا بشهادتنا، هذا ما عندنا والسلام. ثم قال هو وأصحابه منصرفين، فلم يبعدوا إلى باب القصر الأوّل إلا والرسل خلفهم تصرفهم إلى موضعهم من بيت الوزراء، فتلّقوهم بالإعظام والاعتذار مما كان من صاحبهم المخاطب لهم، وقالوا لهم: أمير المؤمنين يعتذر إليكم من موجدته، ويعلمكم بندمه على ما فرط، وأنه مستنصر في إعزازكم، وقد أمر لكل واحد منكم بصلة وكسوة علامة لرضاه عنكم. فدعوا له وأثنوا عليه وانصرفوا أعزّة. انتهت.

فلولا ملابسة هؤلاء العلماء للسلطان، لما لحقهم شِواظ هذا الامتحان، ولكنّ اللّه كفاهم المتوقع من ذلك، ووفّقهم بالصدق إلى أهدى المسالك.

وقد يتوقع منهم الابتلاء وإن لم تحصل الملابسة، ويُتخوّف الامتحان وإن لم تقع المداخلة، كما قال غير واحد من العلماء: أنه: كان سحنون قد حضر جنازة، فتقدم ابن أبي الجواد الذي كان قاضياً قبله، وكان يذهب إلى رأي الكوفيين، يقول بالمخلوق، فصلّى عليها، فرجع سحنون، ولم يصلِّ خلفه، فبلغ ذلك الأمير زيادة اللّه، فأمر بأن يوجّه إلى عامل القيروان بضرب سحنون خمسمائة سوط، ويحلق رأسه ولحيته، فبلغ ذلك وزيره علي بن حميد، فأمر البريد أن يتوقّف، ولطف حتى دخل على الأمير وقت القائلة، وقد نام، فقال له: ما شيءٌ بلغني في كذا؟ قال: نعم. قال: لا تفعل فإن العكّيَّ إنما مُقِتَ في ضربه للبهلول بن راشد. قال: وهذا مثل البهلول؟ قال: نعم، وقد حبست البريد شفقة على الأمير. فشكره، ولم ينفذ أمره. وبينا سحنون يقرأ للناس، إذ أتاه الخبر بما أزاح اللّه عنه، وقيل له: لو ذهبت إلى عليّ بن حميد فشكرته! قال: لا أفعل. قيل له: فلو وجّهت ابنك لذلك! فأبى. قيل له: فاكتب إليه!

فأبى. قال: ولكنّي أحمد اللّه الذي حرّك عليّ بن حميد لهذا، فهو أولى بالشكر، وأقبل على استماعه. فقال له قوم من أصحابه: لهذا واللّه كُتب اسمك بالحبر على الرقوق. انتهت.

ومثل سحنون ﷺ من يكون من صدق الوجهة بهذه المثابة، وهذا من كرامته الظاهرة رضي اللّه عنه وأرضاه.

ويقرب من توقّع الابتلاء، ووجود اللطف من اللّه في صرفه، ما اتفق للشافعي ـ رحمه اللّه ـ، قال الفضل بن الربيع: بعث إليّ الرشيد في وقت لم يكن يبعث إلي فيه، فدخلت عليه في مجلس خاصّته، وبين يديه سيف، وقد أربد وجهه، فقال لي: يا فضل! اذهب إلى هذا الحجازي محمد بن إدريس فأتني به، فإن لم تأتني به أنزلت بك ما أريد به. فأتيته، فألفيته في مسجد بيته يصلّي، فانفتل من صلاته، فقلت له: أجب أمير المؤمنين. فقال: بسم اللّه. وحرّك شفتيه، ثم نهضت أمامه وهو يقفوني، حتى أتيت القصر، وأنا أرجو أنه قد نام، فإذا هو جالس، فقال: ما فعل الرجل؟ قلت: بالباب. قال: لعلّك روّعته، قلت: لا. قال: أدخله. فلما دخل تزحزح له عن مجلسه، وتهلّل وجهه، وضحك إليه، وصافحه، وعانقه، وقال له: يا عبداللّه ! لم يكن لنا عليك من الحق أن تأتينا إلا برسول؟ فاعتذر بعذر لطيف. فقال: إنا أمرنا لك بأربعة آلاف دينار. فقال: لا أقبلها. قال: عزمت عليك لتأخذنّها، يا فضل احملها معه. قال الفضل: فلما انصرفت قلت له: بالذي أنجاك منه وأبدلك رضاه من سخطه ما قلت في إقبالك إليه ودخولك عليه؟ قال: نعم قرأت شهد اللّه أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم، ربّ العرش العظيم، اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك، وبركة جلالك، من كل آفة وعاهة، أو طارق

يطرق، إلا طارقاً بخير، يا أرحم الراحمين. اللهم أنت عياذي، فبك أعوذ، وأنت ملاذي فبك ألوذ، يا من ذلّت له رقاب الجبابرة، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أعوذ بكرمك من غضبك، ومن نسيان ذكرك، ومن أن تُخزني أو تكشف ستري، أنا في كنفك ليلي ونهاري، وظعني وأسفاري، ونومي وقراري، فاجعل ثناءك دثاري، وذكرك شعاري، لا إله غيرك، تنزيهاً لوجهك، وتعظيماً لسبحات قدسك، أجرني من عقوبتك وسخطك، واضرب عليّ سرادقات حفظك، واعطني خير ما أحاط به علمك، واصرف عنّي شر ما أحاط به علمك، وأمّن روعاتي يوم القيامة، يا أرحم الراحمين. قال الفضل: فما دخلت على سلطان فدعوت بهذا الدعاء إلا ضحك في وجهي وأكرمني وضمّني. انتهت.

وقد سبق لهذا نظائر كثيرة، وقضية الشافعي ﵁ من ذلك وفيها أنموذج من الكرامات، نفعنا اللّه به وبمثله من علماء الملّة وعُمُد الشريعة السمحة.

البلاء من اللسان

وإن من أعظم الأسباب التي تجرّ الابتلاء اللسان، فينبغي التحفظ من سقطاته، ولذلك قال النبي ﷺ: **«كلام ابن آدم كله عليه ما خلا أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وذكر اللّه ﷻ له لا عليه»**[(1)] ، فكم من ممتحن لم يجن عليه الجناية إلا لسانه! وكم من مبتلى لم يورّطه في الابتلاء إلا كلامه! وفي هذا المعنى قال القائل وأظنه ابن المعتز:

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرجل

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٢) وابن ماجه (٣٩٧٤) وفيه أم صالح مجهولة

ومن أظرف الحكايات عمّن نجا من غائلته بعد تورّطه، ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي، قال: إن أوّل خطبة خطبها السفاح في قرية يقال لها العباسية، فلما وصل إلى موضع الشهادة من الخطبة قام رجل في عنقه مصحف، قال: أذكّرك باللّه الذي ذكّرتني إلا أنصفتني من خصمي وحكمت بيني وبينه بما في هذا المصحف. فقال له: من ظلمك؟ قال: أبو بكر الذي منع فاطمة فدك. فقال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: عمر. قال: فأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: عثمان. قال: فأقام على ظلمكم؟ قال: نعم. قال: وهل كان بعده أحد؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب. قال: وأقام على ظلمكم؟ قال: فأسكت الرجل، وجعل يلتفت وراءه يطلب مخلّصاً فقال له: والذي لا إله إلا هو لولا أنه أوّل مقام قُمته و لم أكن تقدّمت إليك في هذا قبل لأخذت الذي فيه عيناك، اقعد. انتهت.

ومن لم يتأمّل ما يتكلّم به فكثيراً ما يجني عليه لسانه، ولذلك قال النبي ﷺ: **«كلام ابن آدم كلّه عليه إلا ماكان»** كذا لأقوال من البر عيّنها أو كما قال.

وقد يحدث بالتشاحّ في الحقوق مع أولي القدرة ما يثير الحفيظة، ويوقد نار الأحقاد، إلاّ أن يتدارك اللّه بلطفه، كما حُكي أن عبد اللّه بن الزبير كانت له أرض تتاخم أرض معاوية، وكان فيها لمعاوية عُبدان يعمرونها، فاغتصبوا قطعة أرض من أرض ابن الزبير، فكتب إلى معاوية: أما بعد، يا معاوية! فإن غلمانك اقتطعوا لك قطعة من أرضي، فكفّهم، وإلا كان لي ولك شأن. فلما بلغه الكتاب دفعه إلى ابنه اليزيد، وقال له: ما ترى يا بُني في هذا؟ قال: أرى أن تبعث إليه من يأتيك برأسه. قال: أو خير من ذلك؟ ثم دعا بداوة

وقرطاس، فكتب إليه: أما بعد، فقد وقفت على كتابك ابن حواري رسول اللّه ﷺ وساءني ما ساءه، والدنيا عندي هينة في جنب رضاه، وقد كتبت على نفسي صكاً له بالأرض والعبدان، فليضف ذلك إلى أرضه وعُبدانه والسلام. فلما بلغه ذلك كتب إليه: وقفت على كتاب أمير المؤمنين ـ أطال اللّه بقاءه ـ فلا عدم الرأي الذي أحلّه من قريش هذا المحلّ. فلما وقف معاوية على كتابه دفعه إلى ابنه اليزيد، وقال له: يا بنيّ! إذا بُليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء. انتهت.

معاملة كل حالة بما يناسبها شرعاً مع إيمان بالقدر وذكر ودعاء.

ولا خفاء أن توقّع البلاء في النفس والولد عظيم، ولكن أعظم منه الحالة التي يصير هذا الابتلاء غير الواقع للناجي منه متمنى له من عظيم ما هو فيه، استحضار مثل ذلك مما يخفف عن المتوقع لشيء مما فسر آنفاً وقوعه ويسهّل للصبر رجوعه، وذلك إذا تؤمّل بعين البصيرة، مثل قوله ﷺ: « **لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**»[1]. وهذا من أشد ما يُستدفع به ثقل المتوقعات المستقبلة، وقانا اللّه من هذا الزمان، فكأن زماننا قريب به.

وإذا لم تكن مخائل المتوقع قريبة، ولا أسباب وقوعه ظاهرة، فكثير ما يطرق المفكرين فيه تصميم فكرتهم، ومطابقة الواقع لما سنح في أنفسهم، وذلك إما ثمرة التطيّر فإنه نوع منه، أو نتيجة سوء الظن باللّه فإنه أنموذج منه، أو شعور من النفس بالمكروه الذي أزف به القدر.

ولا بد من النظر في كل حالة تعرض للعاقل بما شرع فيها من الدعاء وما يناسبها إن لم يكن قد ورد فيها شيء على التعيين، كما إذا خاف سلطاناً،

(١) البخاري (٧١١٥) ومسلم (١٥٧) وغيرهما عن أبي هريرة.

وكما إذا خاف العين، والعين حق لما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ، أنه قال: «**العين حق**»[١] ففي صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين: «**أُعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة**» ويقول: «**إن أباكما كان يُعوِّذ بها إسماعيل وإسحق**»[٢].

يحكى أن نبياً من الأنبياء ـ صلوات اللّه عليهم ـ نظر إلى قومه يوماً، فاستكثرهم وأعجبوه، فمات منهم في ساعة سبعون ألفاً، فأوحى اللّه سبحانه إليه أنك عينتهم، ولو أنّك إذ عينتهم حصّنتهم لم يهلكوا. قال: وبأي شيء أحصنهم؟ فأوحى اللّه إليه: حصنتكم بالحي الذي لا يموت أبداً، ودفعت عنكم السوء بلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

وكما إذا خاف قوماً ففي سنن النسائي عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً، قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»[٣]. وكما إذا راعه شيء أو فزع منه، ففي جامع الترمذي، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّه ﷺ كان يعلمهم من الفزع كلمات: «**أعوذ بكلمات اللّه التامة من غضبه ومن شرّ عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون**»[٤].

وفي هذا المقام يجب تجديد النظر في الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومرّه، فإنه موضع مزلّة قدم. والذي ينبغي للمؤمن باللّه والقدر أن يجزم الجزم التام بأن ما قضى اللّه فلا محيص عنه ولا نجاة له منه ولا ملجأ له من حلوله،

---

(١) البخاري (٥٩٤٤) ومسلم (٢١٨٧) وغيرهما عن أبي هريرة.

(٢) البخاري (٣٣٧١) وغيره

(٣) أبو داود (١٥٣٧) وأحمد ٤/٤١٤ ـ ٤١٥.

(٤) الترمذي (٣٥٢٨) وأبو داود (٣٨٩٣) وأحمد ومالك في الموطأ (١٧٧١).

ولا معقل ينجيه من نزوله. وهنا تسكن النفس وينبسط القلب، فإن الذي لم يُقدِّر كونه من الأمور على تناهي شدّته الحيلة في الوهم وعظم مكروهه المنطبع في الخيال قد أغنى اللّه عن الاهتمام به، وأزاح من الكرب من أجله وضمن لها الأمان التامّ منه والسلامة الكافية من محذوره. وما قضى اللّه من الأمور وقدّر منها وكتب على العبد أنه لا بد له منه فالحذر منه لا يُغني، والتسبب في صرفه لا يُجدي. ولذلك قيل:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي   إذا المرء لم يجعل له اللّه واقياً

ولهذ العقد راحة كبيرة في مواطن السوء التي تخشى فيها النوائب، تتوقع فيها المصائب.

وكالذكر فيما يستحضر الفكر من المتخوفات التي أوشكت أن تكون وقاربت متوقعاتها الوقوع، على تعدد ما يطرق من ذلك بحسب تلوّن الزمان من استحكام أمن واستشعار خيفة، مثل موطن سوءٍ حضرته في الدولة اليوسفية يوم القبض على القائدين أبي الحجاج يوسف بن كماشة وأبي القاسم بن السرّاج ـ أعظم اللّه مثوبتهما ـ، وذلك أنّي كنت في تلك الأيام على مالا يخفى من حال من طرقه الابتلاء من خواص دولة قد انتسخت بدولة أخرى مضادة لها وضعاً وطبعاً، فلم تكن النفس تسكن إلى أمان تام ولا تخلو عن خوف مستجدٍّ، وكنت متى استدعيت للحضور في مشاهد تلك الدولة ومحافل شوراها ومجالس مفاوضتها ألجأ إلى ما اعتمده أهل كتب الصحيح من التعوّذات الواردة في ذلك عن النبي ﷺ وأضرع إلى اللّه في استكفاء شرّ كل ذي شر. ولم يكن إيجاس النفس للخيفة من قبل ذلك السلطان، فقد كنت أراه مائلاً للخير بطبعه مباعداً للشر بقوله وفعله، وإنما كنت أستثقل بعض أرباب دولته ممن أتوسم فيه غلاًّ أو أستشعر منه حسداً، وخصوصاً ذلك الموسوم بوزارته، فقد كانت عندي مداراته

صعبة ومصانعته عسيرة. وكان القائد أبو القاسم بن السراج ـ حفظه اللّه ـ بما كان بيني وبينه من أذمّة المحبة في الأزمنة السالفة لا يزال يتشفع لي ويعاملني بما يليق بأصالته من المبرّة، ويمتُّ لي بوسيلة للمصافاة في الأيام السابقة، وتقلّد لذلك السلطان وظيف الوزارة واضطلع له بما أُسند إليه من هذه الخطة، وقد كانت تفرّقت الظباء على خداش(١) وانعقد عزل ابن علاّق عنها إجماعاً في أخبار تقتضي طولاً ليست من غرضنا.

وكان هذا القائد المتولّي للوزارة من الوثوق بالدولة والطمأنينة بالموالاة وعدم المبالاة بأربابها من المعروف عنها قبله ممن دونه على حالة متناهية، وكثيراً ما كان يستدعيني للتناجي فيما يخصّه والتسارّ فيما هو بسبيله، وكنت أنا آخذاً بالتقية مستشعراً للحذر من قِبَل أولئك الناس الذين لم أكن على ثقة من مطابقة بواطنهم للظواهر، ولا موافقة علانيتهم للسرائر، إلى أن توالت النمائم وكثرت الأراجيف وتنوعت السعايات فيما بين قوّام تلك الدولة والقائد بوادي آش الوزير أبي إسحق إبراهيم بن عبد البر، وهمٌّ لزمهم على سبيل البلاغات عنه ما ساءهم، فوجه عني في أوائل العشر الأُخر من رمضان من عام تسعة وأربعين وثمانمائة صبيحة يوم، فحضرت مع من كان رسمه أن يحضر في مفاوضات تلك الدولة، وتحدّثوا مليّاً فيما تعيّنت لهم به التهمة وتحقّقت الظنّة قبل القائد المذكور واستخرجت صحائف بغير خطّة مكتتبة عنه ترك فيها موضع بياض يصحّ فيه اسمه، وقد كتب فيه بخط يشبه خطّه شبهاً ليس هو بالبعيد ولا هو أيضاً مما يجزم به، وسُئلت عما عندي فيه، فتأمّلته

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خداش ... فما يدري خداش ما يصيد

تأمّلا كافياً فلم ينقدح لي فيه تحقيق نقطع به الشهادة من نسبته إليه أو عدمها. وتذكّرت قضية عثمان وتشديد مالك في الشهادة على الخطّ، فتبين لي وجهه وأشكل عليّ إشكالاً يقتضي الحق فيه التوقيف، ورأيت أنه لا ينجي إلا الحقّ كرهه من كرهه ورضيه من رضيه، فقلت ما انتهى إليه علمي وأنا لا أُثبته له ولا أنفيه. فنظر إلي ابن علاّق شزراً وتبيّن لي في وجهه الشرّ، واستعذت باللّه منه، ثم لم يزل في تلك المواطن كلّها يُصرّح أن الخطّ خطه ويعرض بأنّ التوقف فيه تشكيك في الحق وتغطية على الباطل. فجعل اللّه في قلب السلطان الميل إلى اعتقادي والتصحيح له، وذلك عندي شاهد على إنصافه وقوله للحق وإن لم يوافق غرضه، وجهر عن ذلك بمحضره، فكفّ عنّي تعريضه، ومحض أبو القاسم النصيحة له بأن يستصلح قائد وادي آش ما أمكنه وضمن عنه الوفاء وعدم التحرك إن توجهت أنا والقائد يوسف بن كماشة إليه، وأطلق لنا عن السلطان ضمان استقرار عزّه واستدامة ولايته، وأعلمه أن لا يركن لغير قولنا لما بيننا وبينه من مودّة صادقة جعل لي فيها التقدّم وللقائد يوسف زيادة القربى ومشابكة الصهر ومواشجة الرحم. وكنت أكره قوله لما تضمّن من إعلامه بهذا المعنى، وخيفةً من غمسي في هذه الظنّة التي كنت منها بريئاً. وكان هو ممّا انطوى عليه من قصده لنصحه وكدحه في عزّه لا يتحفظ مما كان يؤلمني من ذلك.

ثم عاودوا ذلك المجلس من الغد بالرياض من القصور السلطانية والقائد يوسف ابن كماشة حاضر في اليومين، ثم تواعدوا العودة صبيحة اليوم الثالث. وصرف ابن علاّق هذا الموطن صرفاً يرتاب له لو فكر فيه القائدان المضمر لهما الشر وأراهما أنّ قولهما واضح وصرح لهما بقبول إشارتهما في توجيهي

وتوجيه القائد يوسف في صحبتي وتوجيه رئيسهم الفقيه أبي القاسم بن طركاط، ووقع في هذا الموطن بل وفي الذي قبله من اعتراف القائد يوسف بخطيئة القائد إبراهيم وطلب الرضا له والعفو عن زلّته ما استنكرته.

ووقع الوعد بالاجتماع صبيحة غد ذلك اليوم وفي ضحوته ما أعادوا التوجيه عنّي وعن القائد يوسف. واستقررنا بالرياض محلّ مجتمعنا بالأمس، وأقمنا في ارتقاب خروج السلطان مدة طويلة كما كنّا بالأمس لم ينقص منا عدا قاضي الجماعة فإنه اعتذر بما سومح به في تخلّفه، ولم يزدد إلا القائد محمد القبصاني. وفي أثناء ذلك تردد ابن علاّق بالدخول والخروج والتظاهر بما كان يتعاطاه من الرماية مع أولئك الموكّلين برحبة فلفل من رجال بُرجة ودلاية المعبّر عنهم عُرفاً بالغنادير.

وبينا نحن وقد طال أمد الانتظار وإذا بولد ظئر السلطان الملقّب بلورنسة اسماً أعجمياً قد دخل علينا القبة ومعه عليّ التركي يعرّفنا به، وخلفهم لُمّة من حاشية ذلك العُليج المذكور ومن انضوى إليه من شاكريه، والجميع منهم متأبّطون لخناجرهم بادية أمارات الشر في وجوههم. فخاطب لورنسة المذكور القائد يوسف بقوله: سيدي يوسف موكّلنا يأمرك أن تدخل أنت وسيدي أبو القاسم في تلك القبة وأشار لهما إلى القبة الصغرى من الرياض. فأذعنا لما أمرهما به، وانتزع من القائد يوسف سيفه إذ كان متقلّداً به ومهمازه، وغلق عليهما باب القبة، ووكل بحفظ الباب المقفل عليهما تلك الزعنفة من الرجال. فوقع البهت وعظم الهول، واستدعيت حاشية السلطان من القادمين معه من المريّة، فارتجت الأرض لمواطئ أقدامهم، ودخل ابن علاّق يقدمهم وقد تبيّنت النكرى في وجهه وعلته قترة علاوة على المعهود من تجهّمه. وبقيت أنا وابن

طركاط والقبصاني لا نعرف أوّل الأمر من الآخر إلى أن استدعي القبصاني منا، وبقيت أنا والآخر لا ننبس برجمة ولا ننطق بكلمة، فأشرت عليه أن يستعلم من الأمر شيئاً فقال لي: ومن يتجاسر على ذلك؟ وأقمنا برهة في أسوأ حالة من استعظام المتوقعات واستخفافهما، ولم أجد هنالك أولى من جزم العقد بما افتتحت به أوّل الكلام ترديداً لقوله تعالى: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾ [التوبة: ٥١] ولجأً إليه واستجارةً به، إلى أن وقف علينا أحد أقادم خدّام السلطان آتياً من الباب النافذ لقبّة الرياض من الأسطوان الذي بين الدار السلطانية والرياض، فجدد إليّ النظر شزراً كالمستثبت في كوني هنالك، فأيقنت بالشر، وتنوّعت لدي المتوقعات، وانعطفت متذكّراً للاحق كالتوقّف في الشهادة الخطية بما سبقها من تقرير القائد أبي القاسم لمصافاة الوزير وانقياده لقولي وركونه لنقلي، بما لا يُحصى كثرة مما تقدّم بيني وبين ابن علاّق من مراجعة على غير الموافق لقصده، ومرتباً عليها مبلغ هذا الترقب من المحذور المتخوّف، إلى أن عاد ذلك المذكور ثانية فاستدعاني بخاصّتي دون من كان معي، فتبعته على ذلك الباب وهو غثّ المسلك، ولم أكن ولجته قبل ذلك، فساعتئذ تعيّن لي الشر مقصوداً فيه التفرقة بيني وبين من سبق اعتقالهما في القبة، وصار سجن أرباب الجرائم عندي أفسح ساحة وأضوأ بيتاً من تلك القصور السلطانية، إلى أن وصلت إلى آخر ذلك الدهليز حيث يتصل بالدار فوجدت السلطان هنالك واقفاً بالباب، فتبسم إليّ متكلّفاً قاصداً بذلك ـ والله أعلم ـ رفع ما توهمّته، وأشار لي بالقرب منه والدنو إليه، وأومأ إلى من كان بحذائه بالتقهقر حتى أقامني مقامه فسلّمت عليه، ودفع لي كتاباً بخط القائد إبراهيم بن عبد البر، فسألني عنه. بخط من هو؟ فقلت له: خطُّ قائد وادي آش. فقال لي: أتشهد بذلك؟ فقلت: نعم. فقال لي: اقرأه على هؤلاء الناس.

فقرأته إلى أن بلغت ذكره ـ وكان ذكره فيه غير حسن ـ فقال: اقرأه فأقسمت له أنـي لا أقرأ ذلـك. فـأخذه مـن يـدي وقـرأه. ودار بينهـم الحديـث طويـلاً وعريضاً في شأنه. وصار السلطان ـ رحمه اللّه ـ يؤنسني بما يشهد بكـرم خيمـه وشرف ذاته وطهارة نفسه.

وطال بابن طركاط الانتظار، فولج من حيث ولجـت، فألفـاني هنـالك. ثم انعطف السلطان عليّ بالحديث وقال لي: أريد أن تكتب عنّـي لأهـل وادي آش بوثوقي بهم وطُمأنينتي فيهم وهذا هـو السـبب في تقديمـي لابـن عبـد البر ببلدهم فهوّن من شأنه ومن قصته وقصدي أن توفي لي هـذا الغـرض في تـأكيد الاعتقاد فيهم وتمكين التنفير لهم عن ممالأة هذا الكذا. وإذ ذاك نفّس اللّـه عـني تلك الكربة وأذهب عني تلك الغُمّة، و لله الحمد واصباً والمنّة دائبا.

وكان من توجيه الجيش إلى وادي آش بتلك الكتب ثم انحفاز السـلطان بالتوجّه إليها بعد عودة الجيش بخُفّي حنين ما وقعـت الإشـارة إليـه في موضـع آخر وليس هذا موضعه. إنما كان القصد تقرير ما صـرف اللّـه عنّـي مـن هـذا المتوقع الذي كِدْتُ أن أكون فيه مـع القـائدين في مـا وقـع بهمـا علـى سـواء، فسبق القدر بنجـاتي وتورُّطهمـا ووقـو ع ذلـك المتوقـع بهمـا، فـأنّى ينجيهمـا الحذر، وقد نفذ القدر؟! ولا بُد أن كان بلغهمـا ذرء مـن الخـبر فلـم يصدّقـاه، ولذلك يقول ابن الرومي:

طامِنْ حشـاك فإن الدهر مُوقعٌ ... بك ما تحبُّ من الأمـور وتكره
وإذا حذِرت من الأمور مقـدّراً ... وفررت منه فنـحوه تتوجّه

وفي الصبر عليها يقول القائل، وهو أبو دُلَف:

هي المقادير تجري في أعنّـتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تُريك خسيس الحال ترفعه ... نحو السماء ويوماً تخفض العالي

وفي هذا الموضع يتأكد الأمر بالتفويض والتسليم لما في عاقبة ذلك من الخير الذي هو محجوب عمّن لا يعلم العواقب. وتأمّل قول مؤمن آل فرعون: ﴿**وأفوّض أمري إلى اللّه إن اللّه بصير بالعباد**﴾ [غافر: ٤٤] وما أعقبه ذلك من وقاية اللّه له وما حاق بأعداء اللّه من أليم النكال. قال اللّه تعالى: ﴿**فوقاه اللّه سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب**﴾ [غافر: ٤٥]. ومقام التفويض من أرفع المقامات التي يترقى عليها في السلوك، وكلامنا نحن منه إنما هو فيما يليق بنا، وذلك أنّا لا نرجع إلى شيء من معنى التفويض إلا اضطراراً. وفي القدر الذي تسكن إليه نفوسنا منه ما نعلم أنه من فضل اللّه علينا، وأن التمحيص هو الذي قادنا إليه قهراً لغلبة أحوال الغفلى علينا وإذا علم العبد علماً يقيناً أن الخير والشر لا يكون منهما إلا ما أراد اللّه كونه، فإن التفويض يجب عليه بحسب جزمه بهذا المعتقد وعدم تردده فيه. ومن تأمّل قوله تعالى: ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون**﴾ [التوبة: ٥١] فلن يستقرّ التردّد في خاطره مع الجزم بمقتضى هذه الآية الكريمة.

ومثلها قوله ﷺ لعبد اللّه بن مسعود: «**ليقلّ همّك ما قُدِّر يكون وما لم يقدّر لا يأتيك واعلم أن الخلْق لو جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه اللّه ﷻ لك لم يقدروا على ذلك**»(١) وفي هذا المعنى قال القائل:

إذا عقد القضاء عليك عقداً   فليس يحله إلا القضاء

قال أبو مدين: احرص أن تصبح وتمسي مفوضاً مستسلماً لعله ينظر إليك فيرحمك.

---

(١) أخرج الترمذي (٢٥١٦) وأحمد ٢٩٣/١ في هذا المعني حديث ابن عباس الشهير: «**يا غلام أعلمك كلمات احفظ اللّه يحفظك ...**» الحديث.

وينبغي لمن يتصف بمعنى التسليم والتفويض أن يلزم ما ورد في الحديث الصحيح الذي خرّجه مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب أن رسول اللّه ﷺ قال: «**إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت**»[1]، ففي هذا الحديث الكريم يزداد معنى التسليم والتفويض على من يستعمله في كل يوم، فلا يبعد عليه استحضار هذا المعنى المقصود فيه مع التكرار على الأيام. وفي مثل هذا الموضع الذي يتأكد فيه التفويض، حيث تتعارض النُظّار، وتخالف الأنظار، ويشكل صوب التدبير، ويخفى وجه الترجيح، وكان الحجاج بن يوسف[2] ينشد هذا البيت:

دعها سماوية تجري على قدر لا تفسدنها برأي منك منكوس

فهذا معنى التفويض والتسليم، لكنّه بغير لفظه الوارد في السنة.

وينبغي أن يلتزم المفوّض إلى اللّه في حكمه، والمسلّم إليه في قضائه، معنى الرضا عن اللّه فيما قدّر من أمر أو أنفذ من حكم، وإنه لرتبة عظيمة ودرجة رفعية، قال اللّه تعالى: ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ۝ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي اللّه عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه**﴾ [البينة: ٦ - ٧] فانظر هذه الدرجة ما أعلاها، واعتبر هذه الرتبة ما أسماها. وقال تعالى: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي اللّه عنهم ورضوا عنه**﴾ [التوبة: ١٠٠] وهذا مثل ما تقدم، وانظر أهل هذه الخصوصية من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧) وفي مواضع غير هذا ومسلم (٢٧١٠) وغيرهما.

(٢) وهو الشاعر غير الثقفي الأشهر.

هم من صدور الأمة ومن تبعهم ـ رضي اللّه عنهم ـ وقال تعالى: ﴿ **ورضوان من اللّه أكبر**﴾ [التوبة: ٧٢] قال عز الدين بن عبدالسلام: أي أكبر من جنات عدن. ومما يدرك بقريب من الضرورة أنه من رضي بالقضاء حلي له كل حادث وإن كان مرّاً، وخفّ عليه كل طارق وإن كان ثقيلاً، وسهل عليه كل واقع وإن كان صعباً، فليرض به، وما أنجح قصد من آثر اختيار اللّه له على اختياره لنفسه.

الصدق من أنفع أسباب صرف البلاء

ومن أنفع الأسباب في صرف هذه الابتلاءات المتخوفة: الصدق قولاً وعقداً وعملاً، وقد تيقّنت صحة ذلك حين توجّهي من قبل مولانا الغالب باللّه ـ أيده اللّه ـ أيام كونه بمالقة إلى حافده مولانا المستعين باللّه، وهو بالحضرة، في غرض الاستنزال له، للإقامة بمالقة، وتسليم الأمر له عن تراض، فبذلت الجهد في توفية قصد مرسلي من غير هوادة مني لمن أُرسلت إليه ولا مصانعة له، فلما تمّ الأمر للمستعين باللّه، استدعاني للسفارة عنه إلى ملك المغرب، واستدناني بعد ذلك إلى مجال مفاوضته، ولم يزل يعرض لي على جهة الانبساط بكوني لم أنصح له في تلك الوجهة التي جئت إليه من مالقة، فكنت أجيبه بما معناه لو ناصحتك وتركت النصح لمرسلي هل كنت تثق في فيما استدعيتني إليه من السفارة للمغرب؟! فيقول: لا، فأقول: وهل كنت تثق بي للحضور في مجالس شوراك؟! فيقول: لا. فأقول: فكيف تطلبني أن أفعل ما يكون موجباً صحيحاً لعتبي، وسقوط منزلتي عند من أرسلني، وعند من أرسلت إليه، ويلومني كل واحد منهما، وكلاهما في لومني بحق؟! نسأل اللّه أن يقينا مواقف الخزي في الدنيا والآخرة.

وإذا كان الصدق منجياً مع من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، ولا يقدر أن يجلب خيراً ولا يدفع شراً، فهو إذن في جناب اللّه أنجى، والقائم به في ذات اللّه أحجى، كالواقع من ذلك لإبراهيم بن محمد بن طلحة، وذلك أنه لما استولى عبدالملك بن مروان على الحجاز قدم عليه الحجاج ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال له: يا أمير المؤمنين إني قدمت عليك برجل الحجاز في الشرف والمروءة، لم أدع نظيراً له بالحجاز في كمال المروءة والأدب والطاعة وحسن المذهب مع القرابة، فافعل معه ما يستحقه مثله. قال: ومن هو؟ قال: إبراهيم بن محمد بن طلحة. قال: أذكرتنا حقّاً واجباً ورحماً قريبة. ثم أذن له فدخل والحجاج بين يديه فلمّا سلّم وقعد قال له عبدالملك: إن أبا محمد ذكر ما لم نزل نعرفك به من الشرف والمروءة مع القرابة والنصيحة، فلا تدع حاجة إلا سألتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين لي حوائج وعندي نصيحة لا أجد بدّاً من ذكرها. قال: أهي دون أبي محمد؟ قال: نعم، فأشار إلى الحجاج فخرج خجلاً لا يبصر أين يضع قدمه. ثم قال: اذكر نصيحتك يا ابن طلحة. قال: يا أمير المؤمنين! إنك عمدت إلى الحجاج على ظلمه وجوره وبعده عن الحق، فولّيته الحرمين وفيهما ما فيهما من أبناء المهاجرين والأنصار وأصحاب رسول اللّه ﷺ يسومهم الخسف، ويطؤهم بالعنف، بطغام أهل الشام. فأطرق عبدالملك ساعة، ثم قال: كذبت وما نصحت، وظنّ الحجاج بك غير ما أنت أهله. ثم قال: اخرج عني. وقال للحرسيّ: اشدد يدك عليه. فخرج مع الحرسيّ إلى موضع. ثم دعا عبدالملك بالحجاج. قال إبراهيم: فحادثه طويلاً ولم أشكّ أنهما في أمري، ثم استدعاني فلقيت الحجاج في الصحن خارجاً فقبّل بين عينيّ وقال: جزاك اللّه خيراً من صديق. ودخلت على عبدالملك فأجلسني مجلسي الأوّل ثم قال: يا ابن طلحة هل شاركك أحد في نصحك؟

قلت: لا، والله ما أردت إلا الله ورسوله والمسلمين، وأنت قد علمت ذلك. قال: وقد عزلت الحجاج عن الحرمين بقولك ووليته العراق وأعلمته أنك استقللت له الحجاز، وسألت ذلك له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني ثواب نصحك، فسِرْ معه فإنك سوف تحمد صحبته. انتهت.

ولا خفاء بأن الثمرة التي جنى إبراهيم بن طلحة، هذا الناصح، من النجاة من شرّ الحجاج، ومخدومه، المتوقع له منهما القريب الدلالة من الوقوع، إنما هي من إخلاص النصح لله ولرسوله وللمسلمين وإمامهم كما ذكر رحمه الله.

وقد وقع من ذلك غير قليل للصادقين من العلماء، كما حكى الشافعي عن محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، قال: فأتى الغفاريون شكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: سَلْ عنهم ابن أبي ذيب، قال: فسأله، فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين! أشهد أنّهم أهل تحكم في أعراض المسلمين، كثيرو الأذى لهم. قال أبو جعفر: قد سمعتم؟! فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين! سلْه عن الحسن بن زيد. فقال: يا ابن أبي ذيب! ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن ما قال ابن أبي ذيب؟! فقال: يا أمير المؤمنين سله عن نفسك. فقال: ما تقول فيّ؟ قال: أو يعفيني أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذيب وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذيب: قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا بالحق، وقسّما بالسويّة، وأخذا بأقفاء

فارس والروم. قال: فخلّى أبو جعفر قفاه، وخلّى سبيله وقال: والله لولا أنّي أعلم أنك صادق لقتلتك. فقال له ابن أبي ذيب: والله يا أمير المؤمنين! إني لأنصح لك من ابنك المهدي. انتهت.

ومثل ابن أبي ذيب - وأين له عندنا مثل؟! - يقوم هذا المقام المحمود بين يديْ المنصور - على هيبة ملكه وخشية سطوته - صادعاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم، ولا بطشة ظالم.

وقد يكون برهان القائم بالحق واضحاً، ودليله في المناظرة لائحاً، مع توخي الصدق، وتحرّي الحق، فينجح قصده، ويعلو جدّه كما حكى صالح بن عليّ الهاشمي: حضرت المهتدي بالله أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ وقد جلس للنظر في أمور المتظلمين، في دار العامة، فنظرت إلى قصص الناس تُقرأ عليه من أولها إلى آخرها، فيأمر بالتوقيع فيها، ويختم، ويدفع إلى صاحبه بين يديه، فسرّني ذلك، واستحسنت ما رأيت منه، فجعلت أنظر إليه، ففطن ونظر إليّ، فغضضت عنه، حتى كان ذلك مني ومنه مراراً ثلاثاً، إذا نظر غضضت، وإذا اشتغل نظرت، فقال: يا صالح!. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. وقمت قائماً، فقال: في نفسك منا شيء يجب أن تقوله. قلت: نعم، يا سيدي. قال لي: عد إلى موضعك. فعدت، وعاد إلى النظر، حتى إذا قام قال للحاجب: لا يبرح صالح. وانصرف الناس، وأذن لي، وهمّتني نفسي، فدخلت فدعوت له. فقال لي: اجلس. فجلست. فقال: يا صالح، تقول لي ما دار في نفسك، وأقول لك ما دار في نفسي، إنه دار في نفسك أنك استحسنت ما رأيت منا. فقلت: إن خليفة خليفتنا لو لم يكن يقول: القرآن مخلوق. فورد على قلبي أمرٌ عظيم، ثم قلت يا نفس هل تموتين قبل أجلك، هل تموتين إلا مرّة، هل يجوز الكذب في

جدٍّ أو هزل!! فقلت: يا أمير المؤمنين: ما دار في نفسي إلا ما قلت. فأطرق ملياً ثم قال: ويحك اسمع مني ما أقول فوالله لتسمعن الحق. فسُري عني فقلت: يا سيدي من أولى بقول الحق منك وأنت خليفة ربِّ العالمين وابن عم سيد المرسلين من الأولين والآخرين؟! فقال: ما زلت أقول: القرآن مخلوق، صدراً من أيام الواثق حتى أقدم ابن أبي دؤاد علينا شيخاً من أهل الشام، فدخل الشيخ على الواثق مقيداً، وهو جميل الوجه، تام القامة، حسن الشيبة، فرأيت الواثق قد استحيا منه، ورق له، فمازال يدنيه ويقرِّبه، حتى قرب منه، فسلّم الشيخ فأحسن، ودعا فبالغ وأوجز، فقال له: اجلس فجلس، فقال: يا شيخ! ناظر ابن أبي دؤاد ـ على ما يناظر عليه. فقال له: يا أمير المؤمنين! ابن أبي دؤاد يضيق ويضعف عن المناظرة. فغضب الواثق، وعاد مكان الرقة غضباً عليه، وقال: أبو عبدالله يضيق ويضعف عن مناظرتك أنت؟! فقال الشيخ: هون عليك يا أمير المؤمنين، وأذن في مناظرته. فقال: الواثق: ما دعوتك إلا للمناظرة. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تحفظ عليّ وعليه ما نقول! قال: أفعل. فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك حتى يقال فيه بما قلت؟ قال: نعم. قال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن رسول الله ﷺ، حين بعثه الله ﷻ إلى عباده، هل ستر شيئاً مما أمر الله ﷻ عباده في أمر دينهم؟ فقال: لا. قال: فدعا النبي ﷺ الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد. فقال الشيخ: تكلّم. فسكت. فالتفت الشيخ إلى الواثق فقال: يا أمير المؤمنين! واحدة. فقال الواثق: واحدة. فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله ﷻ، حين أنزل القرآن على رسوله ﷺ فقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ [المائدة:٣] كان الله الصادق في إتمام دينه أو أنك الصادق في نقصانه، حتى يُقال فيه مثل مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي

دؤاد. فقال الشيخ: أجب يا أحمد. فلم يُجب. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! اثنتان. فقال الواثق: نعم، اثنتان. فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك هذه، علمها رسول اللّه ﷺ أم جهلها؟ قال ابن أبي دؤاد: علمها. قال: فدعا الناس إليها؟ فسكت. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ثلاث. قال الواثق: ثلاث. قال الشيخ: يا أحمد، واتسع لرسول اللّه ﷺ أن علمها وأمسك عنها فلم يُطالب أُمته بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: فاتسع لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي ـ رضي اللّه عنهم ـ؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم. فأعرض الشيخ عنه. وأقبل على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين! قد قدمت القول في أن أحمد يضيق ويضعف عن المناظرة. يا أمير المؤمنين! إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول اللّه ﷺ ولأصحابه ـ رضي اللّه عنهم ـ فلا وسّع اللّه ﷻ على من لم يتسع له ما اتسع لرسول اللّه ﷺ. أوقال: لا وسّع اللّه عليك. فقال الواثق: نعم، إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول اللّه ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي اللّه عنهم ـ فلا وسّع اللّه علينا، اقطعوا قيد الشيخ. فلما قُطع القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه، فجاذبه الحداد عليه. فقال الواثق: يا شيخ! لم جاذبت الحداد؟ فقال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصي إليه إذا أنا مت أن يجعله بيني وبين كفني، حتى أخاصم هذا الظالم عند اللّه ﷻ يوم القيامة، وأقول يا ربِّ سل هذا الظالم لم شدّني، وروع أهلي وولدي وإخواني بلا حقّ أوجب ذلك عليّ. وبكى الشيخ، وبكى الواثق. ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة مما ناله. فقال له الشيخ: واللّه يا أمير المؤمنين لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم، إكراماً لرسول اللّه ﷺ، إذ كنت رجلاً من أهله. فقال الواثق: لي إليك حاجة. فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلت. فقال الواثق: تقيم قبلنا

ينتفع بك فتياننا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن ردّك لي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي لديك، وأخبرك بما في ذلك: أصير إلى أهلي وولدي وأكفُّ دعاءهم عليك فقد خلّفتهم على ذلك. فقال له الواثق: فتقبل منا صلة تستعين بها على دهرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تحل لي، أنا عنها غني، وذو مرة سوي. فقال: سل حاجتك. فقال: أوتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: تأذن في أن تُخلى لي السبيل الساعة إلى الثغر. قال: قد أذنت لك. فسلّم عليه وخرج. قال صالح: قال المهتدي باللّه: فرجعت عن هذه المقالة، وأظن الواثق كان قد رجع عنها منذ الوقت. والشيخ الذي ناظر بحضرة الواثق أبو عبدالرحمن بن عبداللّه بن محمد.

واعلم أن مثل هذا اللطف الخفيّ والصنيع الجميل، لا يكون ـ واللّه أعلم ـ إلا مع صدق التوجّه للّه تعالى، واعتماد الرضا بما يجري به حكمه، وينفذ به قضاؤه.

قال حاتم الأصم: لقينا الترك. وكانت بيننا جولة، فرماني تركيّ بوهق فأقلبني عن فرسي، ونزل عن دابته، فقعد على صدري، وأخذ لحيتي هذه الوافرة، وأخرج من خُفِّه سكيناً ليذبحني، فوحقِّ سيدي ما كان قلبي عنده ولا عند سكينه، وإنما كان قلبي عند سيدي، أنظر ما ينزل به القضاء منه، فقلت: سيدي قضيت عليّ أن يذبحني هذا التركي، فعلى الرأس والعين، أنا لك، وملكك. وأنا أخاطب سيدي، وهو على صدري قاعد، آخذ بلحيتي ليذبحني، إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت أنا إليه، فأخذت السكين من يده، فذبحته بها. فما هو إلا أن تكونوا عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لا ترونه من الآباء والأمّهات. انتهت.

ومن كان مثل حاتم الأصم في تحققه مقام الرضا، واستيلائه على درجاته العلى فيحقّ أن يتفق له مثل هذه القضية، واعظم منها، فإنها من جنس الكرامات، ومن لنا نحن بمثل ذلك؟! لضعف نفوسنا وعمى قلوبنا، فنسأل اللّه أن يعاملنا بلطفه، وأن لا يكلنا إلى أحد من خلقه.

روي عن عبداللّه بن عمر قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا اللّه بصالح أعمالكم فقال رجل منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا ولداً، فإني في طلب النحر فلم أرغ عليهما حتى ناما فحملت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً وولداً فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون عند الباب، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يقدرون على الخروج منه. وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس إلي فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى انتجت في سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت لا يحلُّ لك تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحبُّ الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة عنهم، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أُجرتهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أُجرته حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد اللّه هات أُجرتي. فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. قال: يا عبداللّه لا تستهزئ بي. فقلت له: إني لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللّهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما**

نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[1] انتهت. وفيها ما يعتبر فيه من لطف اللّه وسرعة الإجابة وفيها التوسل بالعمل الصالح الخالص لوجه اللّه.

مداخلة ذوي السلطان سبب للبلاء المتوقع

ومن أقرب الابتلاء توقُّعاً ما يتفق بين خُدّام الملوك وبين من يلي الأمر من بعدهم لأسباب يقتضيها حفظ الخدمة ويوجبه اختلاف غرضي السابق واللاحق فيقع من ذلك تمحيصات عظيمة أو تقرب من الوقوع، كما حكى محمد بن جرير الطبري أن عبد اللّه بن مالك ، قال: كنت أتولّى الشرطة للمهدي وكان يبعثني إلى الندماء والمغنين الملازمين لموسى الهادي ويأمرني بحبسهم وضربهم فيبعث إلي الهادي فيسألني تركي إياهم والرفق بهم، فلا ألتفت إلى ذلك وأمضي ما أمرني المهدي فيهم. فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف، فبعث إليّ فتكفّنت وتحنّطت وأوصيت وصيتي ودخلت عليه وإذا هو على كرسي والسيف والنطع بين يديه، فسلّمت، فقال: لا سلّم اللّه عليك، تذكر ما كنت أبعث لك فيه من الرفق بندمائي فلا تلتفت إليّ وتمضي فيهم ما أمر به أمير المؤمنين من ضربهم وحبسهم؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في الحجة؟ قال: نعم. قلت: نشهدك باللّه يا أمير المؤمنين لو ولّيتني ما ولاّني أبوك وأمرتني بأمر فبعث إليّ بعض بنيك يخالف به أمرك أيسرك أن اتبعت أمره وعصيت أمرك؟ قال: لا. قلت: وكذلك أنا لك وكذلك كنت لأبيك. فقال: ادن. فدنوت، فقبّلت يده ورجله. فأمر بخلع فصُبت عليّ وقال: قد وليتك ما كنت تتولاّه فامض راشداً. فخرجت وسرت إلى منزلي مفكراً في أمري وأمره. قلت: هو حدث والقوم الذين أسأت إليهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه، وكأنّي

---

(١) البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (٢٧٤٣) وغيرهما.

بهم حين يغلب عليه الشراب قد أزالوا رأيه فيّ وحملوه في أمري على ما كنت أتخوّفه. قال: فإني لجالس وبين يدي بُنية لي ورقاق أغمس منه في كامخ وأطعم منه الصبيّة حتى تيقّنت أن الدنيا قد زُلزلت لوقع الحوافر وكثرة الضوضاء فقلت: كان واللّه ما ظننت ووافاني ما تخوفت به. فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا بين يدي أمير المؤمنين الهادي وهو على حمار. فلما رأيته وثبت عن مجلسي مبادراً، فقبّلت يده ورجله وحافر حماره. فقال لي: يا عبداللّه إني فكّرت في أمرك فقلت: يسبق إلى قلبك أنّي إذا شربت وحولي أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك، وأقلقك وأوحشك، فصرت إلى منزلك لأؤنسك وأُعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي لك، فهات فأطعمني مما كنت تأكل لتعلم أني قد تحرّمت بطعامك، ووافيت منزلك، فتزول وحشتك. فأدنيت ذلك الرقاق والكامخ، فأكل منه ثم قال: هات الزلّة التي أزللتها لعبد اللّه من مجلسي. فأُدخلت إلى أربعمائة بغل موقّرة مالاً وأثاثاً فقال: هذه زلتُك فاستعن بها على أمرك واحفظ لي هذه البغال عندك لعلّي احتاج إليها إلى بعض أسفاري. ثم قال: اظلّك اللّه بخير. وانصرف. انتهت.

فأنت ترى هذا الرجل كيف اجتنى ثمرة الصدق في خدمة سلطانه وامتثال أمره ورعاية مصلحة دولته. وهو نحو ما تقدمت حكايته فيما وقع لي مع السلطان أبي الحجاج.

وليس توقع المخوف في خدمة الملوك بمقصور على من يلي الأمر من بعدهم، فقد يجب التحفظ من ممالأة الملك على من يكون من قلبه بمكان مكين، ومن اختصاصه بمثابة أثيرة من حظيّة لديه أو عزيز من الصفوة عليه، فيماشي غرضه الحادث له من عتبه السريع الذهاب عنه، ويتابع قصده في

مذمّته المرتكبة له ضرورة، المستثقلة من سواه، فيهوي من موجدته في مهواة صعبة، كالواقع كان من ذلك للحسين بن الضحّاك فيما حكى عنه بعض إخوانه فإنه قال له: يا أبا علي قد تأخرت أرزاقُك وانقطعت مواردك وأنت على كثرة إنفاقك فمن أين ذلك؟ قال: من بقايا ذخائر الأمين وهبات جاريته فلانة، فإنها أغنتني غناء الأبد لأمر جرى. قال: حدِّثني به. قال: نعم، دعاني الأمين يوماً فقال لي: يا حسين إنّ جليس الرجل عشيره وثقته وموضع سرِّه وأنيسه، وإن جاريتي فلانة أحسن الناس وجهاً وغناءً، وهي منّي بمحلِّ نفسي وقد كدّر عليّ صفوها عُجبها بنفسها وتسحُّبها ذيول التيه عليّ لما تعلمه مني، وأنا أُحضرها الساعة وأُحضر صاحبةً لها ليست مثلها في شيء، فإذا غنّت لك وأومأت إليك فلا تصغْ لها وإن كان أمرها أبين من أن يخفى عليك، ولا تستحسن الغناء ولا تشرب ولا تطرب، وإذا غنّت الأخرى فاشرب واطرب وشُق ثيابك، وعليّ مكان كل ثوب مائة ثوب. فقلت: السمع والطاعة. فجلس في حجرة الخلوة وأحضرني وخلع عليّ وسقاني وغنّت المحسنة وقد أخذ الشراب مني فما تمالكت أن استحسنت وشربت وطربت حتى فعلت هذا مرّات، فأومأ إليّ وقطّب لي وجهه. وغنّت الأخرى فما قدرت أن أتكلّف قولاً ولا فعلاً. ثم غنّت المحسنة فأتت بما لم أسمع قطّ أحسن منه فما تمالكت نفسي أن شربت وطربت حتى فعلت هذا مرّات، وكلما زاد شُربي ذهب عقلي وزدت مما يكره، فشتمني وأمر بجرّ رجلي فأُخرجت، وأمر أن أُحجب عنه. وجاء أصحابنا يتوجّعون لي ويسألون عن قصّتي، فأقول: غلبني النبيذ حتى أسأت أدبي فقوّمني أمير المؤمنين. ومضى لذلك شهر ثم أمر بإحضاري، فحضرت وأنا خائف. فما دخلت عليه أعطاني يده فقبّلتها، وضحك إليّ وهو في تلك الحجرة بعينها، ولم يحضر غيري، وغنّت تلك المحسنة التي من أجلها

نالني ما نالني فسكتُّ فقال لي: قل ما شئت يا حسين ولا تخف فقد خار اللّه لك بخلافي، وجرى لك القدر بما تُحب، وإن هذه الجارية عادت إلى الحال التي أُريد منها ورضيت كل أفعالها فأذكرتني بك وسألتني الرضا عنك وصلتك واختصاصك، وقد وصلتك بعشرة آلاف دينار ووصلتك هي بمثل نصفها، واللّه لو كنت فعلت ما قلت لك وعادت إلى مثل هذا الحال ثم تحقد ذلك عليك لضربت عنقك. فدعوت له وشكرته وحمدت اللّه على توفيقي وانصرفت، وقد حُمل المال معي، فما كان يمضي أسبوع إلا وألطافها تصل إلي من الجوهر والثياب والطيب والمال، وكل شيء أنفقته إلى وقتي هذا، فمن فضل نعمتها عليّ. فقال القوم: ما سمعنا أحسن من حديثك هذا ولا أعجب من توفيق اللّه . انتهت.

ومثل هذا الواقع لهذا الرجل هو من إرشاد اللّه له لما كان له أوفق، وبه أرفق، وإلا فالقضية التي طلب منه سلطانه الموافقة فيها والمساعدة عليها هي من اللهو واللعب اللذين هما محصول هذه الدنيا بل هي من الغاية في هذا المعنى، ولا خفاء بحكم اللّه في ذلك من حيث اشتداد الكراهة والترقّي للتحريم، ولكنّ إيثار الصدق لا غنى له من ثمرة، وتوخّي الحق لا بُد له من نتيجة، واجتناب الهوى محمود على كل حال، وترك الهوادة مرضيٌّ على كل تقدير، ولعل ما مُنح هذا الرجل من السلامة من مغبّة موجدة هذا الملك بارتكاب اختياره عاجلاً، المستلزم لعدم رضاه آجلاً كان بسبب ذلك ــ واللّه أعلم. وقد لا يخلو هذا الرجل في مخالفته لما أراد منه سلطانه من نظر سديد اعتمده ورأيٍ راجح ارتكبه، فلم تكن رتبة هذه الحظية لدى مولاها بخافية، ولا موجدته عليها بدائمة، ولا محبته لها مجهولة، ولا عاقبة التعرّض لمساءتها

مأمونة، ولم يكن خلاف السلطان أولاً بما لا يؤثره آخراً بمخوف ولا ترك هوادته ابتداءً بما لا مندوحة عن كراهته له انتهاءً بمحذور، فارتكب أخفّ الضررين واعتمد أرجح النظرين. وفي أمثال هذه المضائق تختلف الأنظار، ويتباين النُظّار، واللّه يوفق من يشاء لما فيه مصلحته ويقيه مما فيه مضرّته.

وعلى الجملة فمن أعظم الفضول الدخول بين الملوك وحظاياهم، والتعرض بالحديث في أمورهم وقضاياهم، كالحادث من ذلك لخالد بن صفوان مع أم سلمة بنت يعقوب المخزومية زوج السفاح. حدّث مصعب بن الزبير عن أبيه قال: كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبداللّه بن الوليد ابن المغيرة المخزومي عند عبدالعزيز بن عبدالملك بن مروان فهلك عنها، فبينما هي ذات يوم إذ مرّ بها أبو العباس السفاح وكان وسيماً جميلاً، فسألت عنه فنسب لها، فأرسلت إليه مولاةً لها تعرض عليه أن يتزوجها وأعطتها سبعمائة دينار تدفعها إليه إن هو أجاب، وكان لها مال عظيم وحشم، فأتته المولاة فعرضت ذلك عليه، فقال لها: أنا رجل مملق فكيف يتأتى لي ذلك؟ فعرضت عليه المال فأجاب، وسار لأخيها فخطبها إليه فزوّجه إياها فأصدقها خمسمائة دينار وأهداها مائتين، ودخل عليها من ليلته وإذا هي على منصّة، فصعد إليها، فإذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل إليها، فدعت بعض جواريها، ونزلت فغيّرت لباسها، ولبست ثياباً مصبغة، وفرشت لها فرش على الأرض دون ذلك، فلم يصل إليها، فقالت: لا يضرّك هذا كذلك الرجال يصيبهم مثل ما أصابك. فلم يزل بها حتى وصل إليها وحظيت عنده، وحلف ألا يتزوج عليها، ولا يتسرى، فولدت منه محمداً وريطة، وغلبت عليه غلبة شديدة، حتى لم يكن يقطع أمراً إلا بمشورتها، حتى أفضت الخلافة إليه، فلم يتخذ عليها

حرة ولا أمة، وفاءً لها بعهدها. فلما كانت ذات يوم خلا به خالد بن صفوان فقال: يا أمير المؤمنين، إني فكّرت في أمرك وسعة ملكك وقد ملكت نفسك امرأة واحدة واقتصرت عليها، فإن مَرِضَتْ مَرضتَ لمرضها وحُرمت نفسك التلذذ بالجواري الحسان، فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء والغضة البيضاء والعتيقة الأدماء والرقيقة السمراء والبربرية العجزاء، وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن، ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والسمرة اللعساء والصفراء العجزاء والمولّدات من البصريات والكوفيات ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المخصّرة والأصداغ المزيّنة والعيون المكحلة والثُدِيّ المحقّقة، لرأيت شيئاً حسناً. وجعل خالد يعيد الوصف ويكثر الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه. فلما فرغ من كلامه قال له السفاح: ويحك يا خالد! واللّه ما سلك مسامعي قطُ أحسن من كلامك، فأعده عليّ. فأعاد خالد كلامه أحسن مما ابتداه ثم انصرف. وبقي أبو العباس مفكّراً فيما سمع منه، فدخلت عليه أم سلمة فرأته مفكّراً مغموماً، فقالت له: إني لأُنكر حالك يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمرٌ تكرهه؟ قال: لا. قالت: فما شأنك؛ فجعل يوري عنها، فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد. قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال: سبحان اللّه ينصحني ونشتمه! فخرجت من عنده مُغضبة، وأرسلت إلى خالد بجماعة من الرجال وأمرتهم أن لا يتركوا منه عُضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت إلى منزلي مسروراً بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما حدّثته، ولم أشكّ أنّ صلتي ستأتيني، فلم ألبث حتى أقبلت الرجال وأنا قاعد على باب داري فلم أشُكّ أنها الجائزة. فلما انتهوا إلي سألوا عني، قلت: أنا خالد. فسبق إلي أحدهم بهراوة فلما أهوى إليّ وثبت فدخلت منزلي وأغلقت الباب دونهم،

ووقع في نفسي أنّى أوتيت من أم سلمة، وامتنعت من الخـروج أيامـاً. وطلبـني السفاح طلباً شـديداً، فلـم أشـعر حتـى هجـم علـيّ قـوم وقـالوا: أجـب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت، وركبت وأنا في غاية من الوجل حتـى دخلـت علـى السفاح فوجدته خالياً في بعض مقاصيره، فسـلمت وأشـار لي ونظـرت، فـإذا خلفي باب عليه ستور قد أرخيت، وسمعت خلفها حركة. فقال لي: يـا خـالد لم أرك منذ ثلاث. قلت: كنت عليلاً. قال: إنك وصفـت لي مـن أمـر النسـاء والجواري ما لم أسمع مثله فأعده عليّ. قلت: نعم يا أمـير المؤمنـين أعلمتـك أن العرب اشتقّت اسم الضرّتين من الضرر، وأن أحدهم لم يكن يتزوّج أكثر من واحدة إلا كان فيجهد. قـال: لم يكـن هـذا في الحديـث. قلـت: بلـى يـا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن الثلاث مـن النسـاء كأثـافي القـدر تغلـي عليهـن. قـال: برئت قرابتي من رسول اللّه ﷺ إن كنت سمعت هذا منك. قلت: وأخبرتك أن الأربع شرّ مجموع. قال: ويحك، ما سمعت هذا الكلام منك قلت: بلـى. قـال: أو تكذبني؟ قلت: وتريد أن تقتلني؟ قال: مُرّ في حديثك. قلـت: وأخـبرتك أن أبكار الجواري رجال ولكن لا خُصى لهنّ. فسمعت الضحك من وراء السِتر. قلت: وأخبرتك أنّ بني مخزوم ريحانة قريش وأن عندك ريحانة الريـاحين وأنـت تطمح بعينيك إلى غيرها من النساء. فقيل لي من وراء الستر: صدقت واللّـه يـا عماه وبررت. ثم خرجت وقد أيقنت بالنجاة فبعثت لي أم سـلمة لمـا وصلـت إلى منزلي عشرة آلاف درهم وتختاً بثياب وغلاماً وبرذوناً. انتهت.

ولشد ما لقي خالد بن صفوان من المتوقّعات في هذه القضيـة حتـى هيّـأ اللّه له النجاة، وما ذلك إلا من الدخول فيما لا يعني. ولذلك قـال ﷺ : **«من**

حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1] وعدّه العلماء ربع الإسلام. وقال ابن شرف في حكمه: عجبت لمن يقدر على الغنيمة بالكلام كيف لم يقدر على السلامة بالسكوت. انتهى.

وقد يحصل بعض الناس في أنشوطة هلاك، ومظنة امتحان فيخلّصه اللّه منها لبعد غوره ونُجح مكره وفرط دهائه وشدّة نكرائه ولطف احتياله وتزوير مثاله. كما يحكى عن الطفيلي المحترس بعليّ بن هشام وإسحق بن إبراهيم الظاهري، وذلك أن المأمون كان إن يظفر بإبراهيم بن المهدي لا يشرب النبيذ، وحرّم النبيذ وشدّد فيه غاية التشديد وعاقب عليه. قال: فلقي عليّ بن هشام كاتب المأمون إسحق بن إبراهيم الظاهري على الجسر فسلّم كل واحد منهما على صاحبه، ووقفا ساعة، ثم قال إسحق بكلام خفّي: قد زارتني اليوم فلانة وهي طلبة أمير المؤمنين وبُغيته فبحياتي عليك إلا سرت إلي لتأنس بها فقد طال انفرادنا. فأنعم له. وتفرّقا. وكان بالقُرب منهما طُفيلي يسمع كلامهما، فمضى من وقته ذلك فلبس ثياباً نظافاً كانت له مُعدّة واستعار من بعض جيرانه دابّة فركبها، ووافى باب عليّ بن هشام، وقال للحاجب: تُعرِّفه - أعزّه اللّه - أنّي صاحب إسحق، فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال: ادخل بأبي أنت. فدخل على علي بن هشام فسلّم فأحسن الكلام وقال: يا سيّدي يقول لك أخوك تعلم ما اتّفقنا عليه اليوم فلم تأخّرت عنّي. قال: قل له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب وغيّرت ثيابي وتأهّبت كما ترى. واستوى على الدابّة ووافى باب إسحق وقال للحاجب: تُعرِّف الأمير - أعزّه

(١) الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦) عن أبي هريرة والترمذي(٢٣١٨) ومالك (١٦٧٢) عن علي بن الحسين مرسلاً والحديث حسن لغيره.

اللّه ـ أنّي رسول عليّ ابن هشام. فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال: ادخل جعلني اللّه فداءك. فدخل وسلّم وقال: أخوك يُقرئك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب وغيّرت ثيابي وتأهّبت فما ترى؟ قال: قل له يا سيدي قد قتلتنا جوعاً فبحياتك إن تأخّرت عنّا ساعة. فرجع إلى باب عليّ بن هشام، فقال للحاجب: تُعرِّفه ـ أعزّه اللّه ـ أن الأمير ـ أيده اللّه ـ أمرني أن لا أبرح ويجيء معي. فغيّر ثيابه وركب وتبعه الطفيلي حتى نزلا بباب أسحق، ودخلا جميعاً فسلّما وجلساً فجاء الطعام وإسحق لا يشك في أنّه أخصّ خلق اللّه بعلي بن هشام، وعليّ لا يشك في مثل ذلك. ثم غسّلوا أيديهم وتطيّبوا وأخذوا في شرابهم. وجلست الجارية وإذا هي أحسن الناس زيّاً وخدّاً، فهش لها كل واحد منهما وبسطها حتى جيء بالعود فوضع في حجرها، فغنّت أحسن غناء ودارت الأقداح والأرطال، فلم يزالوا على ذلك إلى العصر، فأخذت الطفيلي بولة فصبر لها جهده حتى كادت تأتي على روحه، ثم إنه قام، ودخل إلى الخلاء وقد أيقن بالهلاك. فقال عليّ بن هشام لإسحق: يا سيدي ما أخفّ روح هذا الفتى! فمن أين وقع إليك؟ قال: أوليس هو صاحبك؟ قال: لا وحياتك[1] ولا عرفته قطّ قبل يومي هذا فإنه جاء برسالتك. وقصّ قصّته وقصّ عليه إسحق مثلها. فدخل إسحق من الغيظ ما لم يملك به نفسه وصاح: طفيلي يستجرئ عليّ وعلى النظر إلى حُرمي والدخول إلى داري؟! يا غلمان سياطاً وعقابين وجلادين. وكل ذلك يسمعه الطفيلي وهو في الخلاء. ثم إنه خرج وهو شائل ثوبه غير مكترث بما يقول إسحق مقبل على تكّته يشدّها ويتمشى في صحن الدار ويقول: هيه جعلت فداءك،

(١) هذا يمين لا يصح شرعاً وإنما الحلف باللّه وأما الحلف بغيره فذلك شرك لا يجوز.

أي شيء بقي لك من جهدك، فهل عرفتني مع هذا كله؟ قال له إسحق: ومن أنت؟ قال: صاحب خبر أمير المؤمنين وعينه وذو سرّه، واللّه لولا تحرّمي بطعامك وممالحتي لكما لتركتكما في عمىً من أمري حتى كنت أنت ترى عاقبة أمرك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد حالك عند أمير المؤمنين. فقام إليه عليّ وإسحق باستكانة وقالا له: يا هذا إنا واللّه لم نعرفك ولم نعرف حالك، فلك الفضل علينا بالتلطف إلى عشرتنا، فأنت المحسن المجمل، ولكن تمّم إحسانك بستر ما نحن فيه. ثم قال إسحق: يا غلام! احضر خلعاً فأوتي بثياب فاخرة فصُبّت عليه. وتقدم في إسراج دابةٍ هملاج بسرج حسن ولجام. ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحان وقت الانصراف فودّعهما وانصرف. وأتبعه إسحق بخادم معه صرّة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى. فلما كان من الغد، ودخل عليّ بن هشام على المأمون، قال له: يا عليّ قصّتك أمس. فتغيّر لونه، ولم يشكّ في الحديث أنه رُفع إليه. فقال: الأمان يا أمير المؤمنين وأكبّ على البساط يقبّله فقال: لك الأمان تكلّم. فأخبره بالقصة والخبر من أوّله إلى آخره. فضحك المأمون حتى كاد يُغشى عليه، وقال: أفي الدنيا أملح من هذا وأشدّ حيلة. ووجّه إلى إسحق بن إبراهيم وقال: هبه لي يا إسحق. فجعل إسحق يأسف عليه ويتلهّف. فقال المأمون: بحياتي هبه لي واطلبه وجئني به. فلم يزل إسحق يطلبه حتى وجده فجاءه إلى المأمون، فكان أحد ندمائه والثقات عنده حتى مات. انتهت.

وهذا من أظرف الطفيليين وأحضرهم جواباً وأعجبهم نادرة وأثبتهم جأشاً، وقد يسّر اللّه له بذلك مع الخلاص من الورطة ما لم يكن في حسابه مع

انخراطه في جملة ندماء المأمون وتوصّله بحيلته تلك إلى الانتظام في سلكهم. والتسبب في ذلك ظاهر حسبما أشرنا إليه في غير ما حكاية مما يبرزها نسق الارتياد.

ومما يقرب بعض القرب من قضية هذا الطفيلي ما حكاه البيروني في "الأحجار" أن أحد المموّهين أتى بحجر إلى وشمكير وزعم أنه باذزهر اغتراراً منه لعجمته وطمعاً في أن يذهب عليه أمره فقال: إن كان هذا دافعاً مضرّة السمّ فسأسقيكهما معاً فإن صدقت دعواك أجزلت حباءك. قال: نعم. واستخلاه ثم قال له: اعلم أن الشيطان سوّل لي عملي فارتبكت منه في الحبالة وعندي لك نصيحة إن قبلتها. قال: وما هي؟ قال: إن الملوك مقصودون من أعدائهم بالحيل لأرواحهم على يدي أوليائهم المحببين بالأموال، ومتى اشتهر فيما بينهم أن معك ما لا يضر معه سمّ يئس أولئك وهؤلاء من مكايدتك فنجوت من معار الأعداء ولم يفسد عليك الأولياء فأحضر سمّاً وشيئاً آخر مشتبهاً به تسقنيه واسقني بعده من هذا الحجر واخلع عليّ خزّاً مصدّقاً لدعواي وارتجع الخلعة مني والصلة سرّاً وخلّني أمضي إلى لعنة اللّه وناره الموقودة. فقال وشمكير: كنت تستحق باستخفافك بي وقصدك للتمويه عليّ العقوبة، وأما الآن فقد استحققت الخير بهذه النصيحة لا الحجر. وفعل ذلك، ثم صبّ عليه الخلع وأجزل صلته وجوائزه، وصرفه مكرماً، وقد نشر من بعد مماته. انتهت.

ولن يقصر هذا المموّه في حيلته عن الطفيلي، فكلاهما نجا بحيلته من متوقّع من البلاء متعيّن الوقوع، وحصل بلطف حيلته وفرط دهائه ونكرانه

على الفائدة التامة بما كان أعظم سبب في المحنة العظيمة. وبهذا المعنى وأمثاله يستدل على ثبوت القلب وحضور الفكر وحصافة الرأي وشدّة الحيلة.

الاحتجاج والاستعطاف بآيات كتاب اللّه وحسن الحديث

ومن استطاع ممن يتوقع الابتلاء بجر جنايته أن يدفع عن نفسه مما يناسب حالته من آيات كتاب اللّه العزيز إما احتجاجاً وإما استعطافاً فإن ذلك من أنجح الأسباب وأحمد الذرائع إلى تسني المقاصد.

كما يحكى عن مولىً لهشام بن عبدالملك، فأحسن إليه ففسد وأفسد عليه بعض مواليه، فهرب بهم. فقال هشام: إن ظفرت به لأجعلنّه عبرةً ولأبلغنّ فيه ما يستحقه. فلم يشعر هشام ذات يوم إلا بمولاه على رأسه يقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللّه وبركاته. فقال: لا سلّم اللّه عليك يا ابن اللخناء. قال المولى: ما هكذا قال اللّه عز وجل. قال: وماذا قال يا عدو اللّه؟ قال: قال: ﴿**وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب ..**﴾ الآية [النساء: ١٧]. فقال: صدق اللّه، وقوله الحق. وعفا عنه ورفعه إلى ما كان عليه. انتهت.

فهذا وأمثاله ممن لقن من الذكر الحكيم واقتنص منه لمن توقّع عاديته الموعظة فأمن مما خاف ونجا مما توقّع.

ويلي ذلك من وفق إلى معنىً مقبول في الأسماع مستخفّ على القلوب، داخل في باب التلطف والاستعطاف. كما يُذكر أن الحجاج أُتي برجل من الخوارج فأمر بضرب رقبته، فاستنظره يوماً، فقال له: ما تريد بذلك؟ قال: اؤمل عفو الأمير مع ما تجري به المقادير. فاستحسن قوله وخلاّه. فهذا الرجل

ممن سُدِّد منطقه وأُلهم للقول الذي نجح به مقصده، ولا أظنّ ذلك إلا للحق الذي تضمنه قوله: مع ما تجري به المقادير. فإن للحق نوراً.

وكذلك ما يُكيِّفُ اللّه من أبيات شعرية أو حجج نثرية. كما حدّث الأصمعي قال: كان بشر بن مروان شديداً على العصاة، وكان إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسيّ إلى الحائط وسمّر كفّيه في الحائط ثم ينزع الكرسيّ فيضطرب حتى يموت. وكان فتىً من بني عِجْل مع المهلّب في حرب الأزارقة يهوى ابنة عمٍّ له، فكتبت إليه تستزيره فكتب إليها:

لولا مخافة بشرٍ أو عقوبته وأن يُشدَّ على كفيَّ مسمار
إذا لعطّلت ثغري ثم زرتكم إن المحب إذا ما اشتاق زوّار

فكتبت إليه:

ليس المحبُّ الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في إلفه النار
إن المحب الذي لا شيء يمنعه أو يستقر بمن يهوى به الدار

فما قرأ كتابها عطّل ثغره وانصرف راجعاً إليها وقال:

أستغفر اللّه إذ خفت الأمير و لم أخش الذي أنا منه غير منتصر
فشأن بشر بلحمي فليعذّبه أو يعف عفو أميرٍ خير مقتدر
فما أبالي إذا أمسيت راضية ما نيل يا هند من نفسي ومن بشري

ثم قدم البصرة فما أقام بها يومين حتى وشى واش به إلى بشر. فقال: عليّ به. فلما أُتي به قال له: يا فاسق عطّلت ثغرك! هلَمّوا الكرسيّ. فقال: أيها الأمير إن لي عذراً. قال: وما هو؟ فأخبره خبره وأنشده الأبيات.

فرقّ له وكتب إلى المهلب فأثبته في أصحابه. انتهت. وقد نجى اللّه هذا الرجل بصدق محبته وحسن محاورته لابنة عمه بما دار بينهما من شعر وتقدّم له من ظنّ جميل في أميره بشر.

وأمكن من هذا في باب تقريب المستعطف إلى إيثار العفو وتنبيهه على استرجاع الحلم ما حُكي عن المنصور أنه أُتي برجل قد وجبت عليه عقوبة. فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والتجاوز فضل وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأوكس النصيبين دون أن تبلغ أفضل الدرجتين. فعفا عنه. انتهت. فهذا كما تراه من ثبوت الجأش وترتيب الحجة.

وأشدّ منه في ذلك ما حُكي عن رجل أُتي به إلى معاوية وكان قد أُسر من أصحاب عليّ ﵁ وكان أبلى بلاءً حسناً. فلما أقيم بين يديه قال معاوية: الحمد للّه الذي أمكنني منك. فقال: لا تقل هكذا ولكن قل إنّا للّه وإنا إليه راجعون فإنها مصيبة. قال معاوية: وأي نعمة أكبر من أن يكون اللّه قد أظفرني برجل قد قتل في ساعة واحدة من أصحابي جماعة!!. اضربوا عنقه. فقال الرجل: اللّهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك ولا لأنك ترضى قتلي ولكن قتلني في الغلبة على حطام الدنيا فإن فعل فافعل به ما هو أهله وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله. قال: قاتلك اللّه لقد سببت فبالغت ودعوت فتناهيت في الدعاء. وخلّى سبيله. انتهت. وهذا ممن أرشده اللّه من هذا الكلام البليغ المعنى إلى ما كان سبباً في نجاته. ومثل معاوية ﵁ في وفور حلمه وكمال سؤدده ورجاحة مروءته من يصدر منه مثل ذلك.

ومما عظم فيه أثر لطف اللّه لعدم وضوح التسبب في حصوله ما حُكي عن أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي شارح الشهاب فإنه

كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمراكش يوم دخول الموحّدين إياها على الوجه المشهور في استباحة دماء كل ما اشتملت عليه من الذكور البالغين إلا من تستّر بالاختفاء في سرب أو غُرفة أو منجى. وتمادى القتل فيهم ثلاثة أيام، ثم نودي بالعفو عمّن أسأرته تلك الفتكة الكبرى، فظهر من جميع الخلق بها ما يناهز السبعين رجلاً، وبيعوا بيع أسارى المشركين وهم ونساؤهم وذراريهم، وعُفي عن بعضهم، فكان أبو العباس ممن تخطّته المنية واستنقذه من الرق العفو وحسبك بها محنة. انتهت.

وهذا من أعظم ما يتوقّع من الابتلاءات فصرفه اللّه عن هذا الرجل، ولم أقف على أغرب من حكايتهم في تجافي القتل عنه في عدد يسير كالسبعين فيما ذكرته في نجاته من الرقّ من جملة السبعين أو من ندر مثله منهم وإن لم يذكر.

وقانا اللّه مصارع السوء وعظائم البلاء وجعل اجورنا تحت العافية.

وما أعظم ما صرف اللّه من الابتلاء المتوقّع المضارع للوقوع عن الخليل، والذبيح أحد بنيه إسماعيل أو إسحق على الخلاف الذي للعلماء - رضوان اللّه عليهم - في أيهما كان، وأن النفس التي رسخت في ذات اللّه يحسن أن يوصف بالوفاء، كما قال اللّه تعالى: ﴿**وإبراهيم الذي وفّى**﴾ [النجم: ٣٧] وأنّ الابن الذي بذل نفسه لما أمره به أبوه في مرضاة ربّه لعظيم المنزلة لديه وخطير الرتبة بالوسيلة إليه، وصلى اللّه على نبينا محمد وعليهما وسلم.

فإذا استحضر المتوقّع للابتلاء في عزيز عليه أو أثير لديه، ما كان من هذا الابتلاء العظيم الذي أظهر اللّه للعالمين صبر خليله إبراهيم على امتثال أوامر ربه، وتقرُّبه إليه بما أمره به من ذبح ثمرة كبده وقطعة قلبه، وما كان من لطف اللّه في التدارك بالفداء والإقالة من هذا الابتلاء فإن الرجاء يقوى في فضل اللّه

بصرف ما يخشى أن يؤلمه ودفع ما يتوقع أن يضره، وما ذلك على اللّه بعزيز. وقد صرف اللّه في قضية الخليل ﷺ عن عباده المؤمنين من الابتلاء ما صرف، وكشف من بلواهم في هذه المحنة الشديدة ما كشف، فلو استمر التكليف بذبح الأبناء والتقرّب إلى اللّه بهذا الابتلاء لكان المكلف دائراً بين ثُكل الولد أو سُخط الأبد، والعياذ باللّه من ذلك.

وقد أرانا اللّه هذا الابتلاء الذي كاد أن يقع وكرب أن يظهر سر ألطاف اللّه تعالى للعباد باستقامة أحوالهم، واستنجاح آمالهم. ولن يبرح المؤمن الموفق بفضل اللّه يلتمس أنموذجاً مما منح اللّه الخليل والذبيح صلوات اللّه عليهما من لطفه، وما أسدى إليهما من النعمة في كشف الابتلاء وصرفه، واللّه الكفيل بإسعاف أمله، وإنجاح قوله وعمله، بحوله وقوته.

وفي ألطاف اللّه الخفية الآتية من حيث لا يحتسب، والواردة بحيث تقاصر عن الوفاء بكنهها أمٌّ وأب، يقول ابن الرومي:

إن للّه غير مرعاك مرعى ترتعيه وغير مائك ماء

إن للّه بالبرية لطفاً سبق الأمهات والآباء

وأعظم ما في هذا الباب الذي يُتوقع فيه على النفوس الهلاك، ويُتخوّف منه على المبتلين به الحِمام، الأمور الواقعة بين يدي الملوك ومن جاراهم، والأسباب التي يبعد صدورها من سواهم، فهناك ينبغي أن يستكثر المضطّرُّ إلى مخالطتهم والممتحن بملابستهم من الاستعاذة منهم بربّه، وأن يلجأ إلى الاعتصام منهم بلسانه وقلبه، ويستعمل ما ورد عن النبي ﷺ منقولاً مما يقال عند الدخول على الملوك، أو عند الخوف منهم، وما يُحكى في ذلك عمن ابتليَ بهذا النوع. كما قال أبو بكر بن الطيب: قال لي شفيع: كنت إذا دخلت على

المعتضد كأنّي أدخل على ملك الموت، وكنت أضع ثيابي عند خادم صالحةٍ، قال: فشكوت إلى الخادم أنَّ رعدةً تأخذني إذا دخلت على سيّدي، فقالت: إذا وقعت عيناك على عينه فقل ـ ولا يسمعك ـ أطفأتُ يا أحمد غضبك بلا إله إلا اللّه. قال شفيع: فاستعملت ما قالت الخادم ـ وكان اسمهما خيزران ـ فقدّمني وقرّبني، حتى كأنّي ولده، فجئت إلى خيزران فقلت: من أين لك هذا؟ قالت: أنت مجنون؟! «لا إله إلا اللّه» تُطفئ غضب الربّ ـ تبارك وتعالى.

ومما كان المتوقّع فيه أقرب، والخيفة أعظم، لخلّو مسألة شفيع المنقولة أيضاً من سبب لخوفه، ومن موجب لروْعه وتغيّبه، فيما حكي عن الربيع قال: لّما استوت الخلافة لأبي جعفر قال لي: يا ربيع! ابعث إلى جعفر بن محمد. فقمت بين يديه فقلت: أيّ بلية يريد أمير المؤمنين أن يفعل! وأوهمته أني أفعل، ثم أتيته بعد ساعة، فقال: ألم أقل لك ابعث إلى جعفر بن محمد؟! فواللّه لتأتيني به، ولأقتلنّه شرّ قتلة. قال: فذهبت إليه فقلت له: يا أبا عبداللّه ! أجب أمير المؤمنين. فقام معي، فلما دنونا من الباب، قام فحرّك شفتيه، ثم دخل فسلّم، فلم يردّ عليه، ووقف ثم رفع رأسه، فقال: يا جعفر أنت الذي ألّبْت وكثرت، وحدثني أبي عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ قال: **«يُنصبُ للغادر لواء يوم القيامة يُعرف به»**[1] قال جعفر بن محمد: حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «**ينادي مناد يوم القيامة من بطنان العرش: ألآ فليقم من كان أجره على اللّه فلا يقوم من عباده إلا المتفضلون**» قال: فما زال يقول حتى سكن غضبه، ولان له، فقال له: اجلس أبا عبداللّه، ارتفع أبا عبداللّه. ثم دعا

---

(١) البخاري (٣١٨٧) ومسلم (١٧١٦) عن عبداللّه بن مسعود وكذلك أخرجاه عن أنس وابن عمر ومسلم والترمذي وأحمد وغيرهم عن أبي سعيد ومروي عن علي وغيرهم.

بمدهن غالية فغلفه بيده والغالية تقطر من بين أنامل أمير المؤمنين. ثم قال: انصرف في حفظ اللّه. وقال: يا ربيع، اعط أبا عبداللّه جائزته وأضعفها. قال: فخرجت فقلت: أبا عبداللّه تعلم محبتي لك. قال: أنت منا، حدثني أبي عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «**مولى القوم منهم**»(١) فقلت: أبا عبداللّه شهدت ما لم تشهد، وسمعت ما لم تسمع، وقد دخلت ورأيتك تحرّك شفتيك عند دخولك إليه؟ قال: دعاء كنت أدعو به. قلت: دعاء حفظته عند دخولك إليه، أم شيء تأثره عن آبائك الطاهرين؟ قال: حدثني أبي عن أبيه عن جدّه أن النبي ﷺ كان إذا أحزنه أمر دعا بهذا الدعاء، وكان يقول دعاء: «**اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك عليّ، أنت ثقتي ورجائي، فكم نعمة أنعمت بها عليّ، قلّ لك بها شكري، فلم تحرمني. ويا من قلّ عند بلائه صبري، فلم يخذلني، ويا من رآني على الخطايا والذنوب، فلم يفضحني، أسألك أن تصلّي على محمد، وعلى آل محمد، كما صلّيت وباركت وترحّمت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم أعنّي على ديني بدنياي، وعلى آخرتي بالتقوى، واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب ما لا ينقصك، واغفر لي مالا يضرك، يا إلهي، أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً، وأسألك العافية من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك دوام العافية، وأسألك الغناء عن الناس ولا حول ولا قوة إلا باللّه**»(٢) . انتهت.

ومثل هذه الحكاية عريق في باب الكرامات التي تكررت الإشارة إليها في غير ما حكاية، وليس ذلك ببدع في أسباط النبوءة وأهل بيتها ﷺ وأي

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٥٧) وأبو داود (١٦٥٠) وأحمد من حديث أبو رافع القبطي أسلم مولى النبي ﷺ وكذلك رواه أحمد وغيره عن رفاعة بن رافع بن مالك وكذا رواه الدارمي عن عمرو بن عوف رضي اللّه عنهم

(٢) لم أقف عليه.

شرف أرفع ممن يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن جده!! ثم يكون من الاقتداء بهم واقفاً عند رسم الدين الحنيف وحدِّه، فالكرامة من تلقائه حُكمٌ صادر من أهله في محلّه، وظهورها عليه، مما هيّأ اللّه له من جوده العميم وفضله، نفع اللّه بهم، ووصل سببنا في الدنيا والآخرة بسببهم.

وأشبه شيء بهذه الحكاية، ما حدث به يحيى بن خرثمة قال: وجّهني المتوكل إلى المدينة لاستخلاص عليّ بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر لشيء بلغه عنه، فلما صرت إليه ضجّ أهلها وعجّوا عجيجاً وضجيجاً ما سمعت بمثله، فجعلت أسكّنهم، وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وفتّشت منزله، فلم أصب فيه إلا مصحفاً ودعاءً وما أشبه ذلك، فأشخصته وتولّيت خدمته وأحسنت عِشرته. فبينما أنا يوماً من الأيام، والسماء صاحية، والشمس طالعة، إذ ركب وعليه مطرف، وقد عقد ذنب دابته، فعجبت من فعله. فلم يكن إلا هُنيئة حتى جاءت سحابة فأرخت عزاليها ونالنا من المطر أمر عظيم، فالتفت إلي وقال: أنا أعلم أنك قد أنكرت ما رأيت وتوهمت أني أعلم من الأمر ما لا تعلمه، وليس كما ظننت، ولكنّي نشأت بالبادية، فأنا أعلم الرياح التي يكون في عقبها المطر، فلما أصبحت هبّت ريح لا تخلف، وشممت رائحة المطر، فتأهبت لذلك. فلما قدمنا المدينة - مدينة السلام - بدأت بإسحق بن إبراهيم الطاهري وكان على بغداد. فقال لي: يا يحيى، إن هذا الرجل قد ولده رسول اللّه ﷺ، والمتوكل من تعلم، وإن حرضته عليه قتله وكان رسول اللّه ﷺ خصمك. فقلت: واللّه ما وقفت منه إلا على كل أمر جميل. فسرت إلى سامراء فبدأت بوصيف التركي - وكنت من أصحابه - فقال لي: واللّه لئن سقطت من رأس هذا الرجل شعرة لا يكون الطالب بها غيري. فعجبت من قولهما. وعرّفت المتوكل بما وقفت عليه من أمره، وما سمعت من

الثناء عليه. فأحسن جائزته، وأظهر بره وتكرمته. انتهت. لعل هذا الرجل سبط جعفر الذي وقع له مع المنصور ما تقدّم؛ فكلا الرجلين ـ فيما أظنّ ـ من أهل بيت رسول اللّه ﷺ، والكرامة أيضاً ظاهرة في هذه الحكاية الأخرى، وتسخير وصيف التركي للقيام بحقّه والجد في حفظه مما يسّر اللّه به النجاة وهيّأ له السلامة.

الثقة في اللّه تفرج الغم

ومن وثق باللّه، وتوكل عليه كفاه اللّه ما أهمّه، وفرّج عنه غمّه. ويُحكى أن إبراهيم بن المهدي وقف بين يدي المأمون فقال له: يا إبراهيم، أنت المتوثّب علينا تدّعي الخلافة؟ فقال له إبراهيم: أنت وليٌّ الثأر والحكم والقصاص، والعفو أقرب للتقوى، وقد جعل اللّه أمير المؤمنين فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذنب دونه، فإن عفا فبفضله وإن عاقب فبحقّه، ولقد حضرت أبي ـ وهو جدّك ـ أُتي برجل، وهو أعظم من جُرمي، فأمر بقتله، وعنده المبارك بن فضالة، فقال المبارك: إن رأى أمير المؤمنين أن يستأني في أمر هذا الرجل فإني أحدّثه بحديث سمعته من الحسن: فقال: إيه يا مبارك. فقال: حدّثنا الحسن بن عمران بن حصين أن رسول اللّه ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ألا ليقومنِ الغافرون من الخلفاء إلى أكرم الجزاء فلا يقوم إلا من عفا**»(١) ، فقال له المهدي: قد قبلت الحديث، وعفا عنه، وأطلقه. فقال له المأمون: إيهاً يا عمّ قد قبلت الحديث لقبوله وعفوت عنك هاهنا. انتهت.

حدّث إبراهيم بن سليمان بن عبدالملك بن مروان قال: لما أفضت

---

(١) تاريخ بغداد ١٤٤/٦- ١٤٥

الخلافة إلى أبي العباس السفاح استخفى رجال من بني أُمية، وكنت ممن استخفى، حتى أخذ لي الأمان داود بن العباس. فقال لي السفاح ذات يوم: يا إبراهيم، أخبرني عن أغرب ما مرّ بك في استخفائك. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، كنت بالحيرة مستخفياً في منزل شارع على الصحراء، فأشرفت، فإذا خيل وأعلام سود تأتي من الكوفة، فلم أشك أنها تريدني، فخرجت متنكراً، حتى أتيت الكوفة، وأنا لا أعرف بها أحداً، فحملتني قدماي إلى رحبة عظيمة، وإذا رجل حسن الهيئة راكب ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه، فلما رآني قصدته قال: ما حاجتك؟ قلت: أنا رجل أخاف على نفسي وقد استجرت بك، فأدخلني منزله، ودعا بطعام، فأكلت وأنست ثم نقلني إلى منزل بإزاء داره، وأقمت عنده في أطيب مطعم ومشرب، لا يسألني عن شيء من أمري. ورأيته يدمن الركوب في كل يوم، فقلت له: أراك تدمن الركوب في كل يوم، فما شأنك؟ قال: إن إبراهيم بن سليمان كان قد قتل أبي، فأنا أبحث عليه لعلي آخذ بثأري منه. فعجبت من إدبار أمرنا، إذ ساقني القدر إلى حتفي، في منزل من يطلب دمي، وسئمت والله الحياة، فسألته عن اسم أبيه، فسمّاه، فعرفت أني قتلتُه. فقلت له: يا هذا، إن لك عليّ حقاً عظيماً، ومن حقّك أن أُقرِّب الأمر إليك، أنا إبراهيم قاتل أبيك، فخذ ثأرك. قال: أظنُّك أمضّك الاستخفاء، فأحببت الموت. فقلت: لا والله، ولقد قتلته لسبب كذا. فلما عرف صِدقي أربد وجهه، واحمرّت عيناه، وأطرق مليّاً، ثم خرج. فلم أشكّ أنه قاتلي. ثم رجع وقال: يا هذا، أما أنا فلست أخفر ذمّتي، وإنك ستلقى غداً أبي، فيأخذ بحقّه منك، فخذ هذه الألف دينار تنتفع بها، واخرج، فإني لا آمن نفسي عليك. فخرجت وحمدت الله تعالى. فهذا أكرم من رأيته بعد أمير المؤمنين. انتهت.

وهذه الحكاية تشتمل من غرابة الاتفاق، وغرابة الوفاء، وغرابة الكرم، على ما لا درجة فوقه. وقد دافع اللّه عن هذا الرجل بذلك المنية، فسبحان اللّه ما أخفى لطفه، وأجمل صُنعه!!

ويحكى أنه وقف رجل بين يدي المأمون فقال: واللّه لأقتلنك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، تأنّ عليّ فإن الرفق يضعف العقوبة. قال: وقد حلفت لأقتلنك؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لأن تلقى اللّه ﷻ حانثاً خير من أن تلقاه قاتلاً. قال: فخلّى سبيله. انتهت.

فانظر إلى لُطف اللّه تعالى كيف لقّن هذا الرجل هذه الحجة النافعة له عند هذا الخليفة، الشاهدة له بالحلم ـ رحمه اللّه ـ والمنقذة لهذا القائل من الهلكة فسبحان اللطيف الخبير!.

وقال الهيثم بن عديّ: كان يزيد بن قُرّة الشيباني شديداً منيعاً، وكان يرى رأي الخوارج، و لم يكن يخشى عُمّال العراق، فغاظ ذلك الحجاج، وبلغ منه، فكتب إليه عبدالملك أن احتلْ له، فإن قدرت عليه فاضرب عنقه. فدعا الحجاج يزيد بن روْح وجرير بن يزيد، فأكرمهما وأدناهما، وقال ليزيد: لك شُرطُ العراق ولجرير ديوان الخراج إن أنتما أتيتماني بيزيد بن قرّة. فركبا إليه، فقالا له: إن الأمير قد غضب عليك، وإننا نخاف أن ينال غضبه جميع أهلك، فاركب إليه. قال: لا أفعل، فإنه إن نظر إليّ قتلني. قالا له: ما هو بفاعل، ولا بدّ لك أن تركب معنا. فأتى معهما، وتهيأ للقتل، وخرج نساؤه معه. فلما دخل على الحجاج قال له: يزيد بن قرّة؟ قال: نعم. قال: قتلني اللّه إن لم أقتلك. قال: نشدتك اللّه إن تقتلني، فإني قيِّم أربع وعشرين امرأة، ليس فيهنّ رجل غيري، ولا لهنّ قيّم سواي. قال: ومن يعلم ذلك؟ قال: هن بالباب.

فأمر بإدخالهن، وكل واحدة منهن تقول: اقتلني ودعه. فيقول: من أنتِ؟ فتقول عمّته أو خالته أو بنته أو بنت أخٍ أو بنت أخت. حتى اجتمعن بين يديه، فقالت أخته:

أحجّاج هبه اليوم للّه وحده ... وللباكيات الصارخات تفجُّعا
أحجاج إمّا أن تمنّ بنعمة ... علينا وإما أن تُقتِّلنا معا
أحجاج كم تفجع به إن قتلته ... ثماني عشر واثنتين وأربعا
أحجاج لو تسمع بكاء بناته ... وعمّاته يندُبنه الليل أجمعا

فرقّ لهن الحجاج، وكتب في أمره إلى عبد الملك، يصف ما جرى. فكتب له: اعف عنه، وألحق أهله بالعطاء. ففعل. انتهت.

وإن في مثل هذه الحكاية لعبرةً لمن نظر واستبصر، فقد كان الموت لهذا الرجل بسعاية الحجاج حاضراً، ثم كانت الحباية له بسببه فيها كذلك، فهل هذا إلا تسليط من اللّه أولاً ثم تدارك باللطف ثانياً. فسبحان اللّه ما أخفى لطفه، وما أقرب رحمته! ورحم اللّه عليّاً بن الجهم حيث يقول:

ولكل حالٍ معقب ولربّما ... أجلى لك المكروه عمّا يحمد

وعلى مثل هذه الحكاية يتنزّل قول ابن أبي فنن:

رُبّ أمرٍ سرّ آخره ... بعدما ساءت أوائله

ولا ينبغي أن يُستقلّ قليل الخير من ستر عورةٍ، أو إقالة عثرةٍ، فقد يثمر ذلك فائدة، وينتج مصلحة، كالمحكي من ذلك عن الشاعر المعروف بابن أسد، قال العماد الأصبهاني: سمعت مجد الدين يقول إنه كان بآمد شاعر مفلق يقال له ابن أسد، فانتحل الكامل الطبيب البردي الأصبهاني قصيدة له رائية عند كونه

بالشام في ريعان عمره، وعنفوان أمره، ومدح فيها بعض أمراء العرب، فأمر له بمائة ناقة. فقال له ندماؤه: أيُّها الأمير، هذه قصيدة ابن أسد معروفة سائرة. فكتب الأمير إلى ابن أسد بآمد: قد أتانا شاعر ومدحنا بقصيدة هي كذا، وزعم بعض خواصّي أنها لك، فإن كانت لك فأخبرنا حتى لا نصله بشيء، وإن كانت له نزيده في صلته. فكتب ابن أسد إليه يحلف بالأيمان انه ما سمعها ولا قالها. فلما ارتقى أمر الكامل أيام نظام الملك، وانتظمت أموره من السعادة في سلك، وتوجّه ملك شاه إلى الشام، والكامل في خدمة النظام، وأمر السلطان بالقبض على ابن أسد، لكونه استولى على آمد، وبملكها استبد، فأحضر مكتّفاً حاسراً حافياً، وظنّ أنه أصبح خاسراً، فمرّ به الكامل راكباً، وكان من عرفانه ناكباً، فقرب منه، فسأل عنه، فقيل له: هذا ابن أسد قد استؤسر. فنزل عن دابته، ومنع الحواشي عن حاشيته. ثم تشفّع فيه إلى السلطان في حقّه، وأخرجه من ساعته، من الحبس بشفاعته، فقال له ابن أسد: من أنت؟ ومن أين تعرفني؟ حتى أرى منك لهذا الجميل الذي يشملني ويكنفني. فقال له: أنا منتحل قصيدتك الرائية. فقال: هي لك، فإني ما انتفعت بنظمها كما انتفعت بانتحالك إياها. انتهت. وانظر إلى ما جنى هذا الشاعر بعدم فضيحة هذا المنتحل لشعره من الفائدة العظيمة، والمصلحة الجسيمة.

ومن تاريخ بغداد عن عمر بن حبيب قال: حضرت مجلس هارون الرشيد، فجرت مسألة تنازعها الحضور وعلت أصواتهم، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ، فدفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا نجد هذا الحديث عن رسول اللّه ﷺ، فإن

أبا هريرة مُتّهم فيما يرويه. وصرّحوا بتكذيبه. ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم، ونصر قولهم. فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول اللّه ﷺ، وأبو هريرة صحيح النقل، صدوق فيما يرويه عن نبي اللّه ﷺ. فنظر إلي الرشيد نظر مغضب. فقمت من المجلس، وانصرفت إلى منزلي. فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب. فدخل فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن. فقلت: اللهمّ إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك ﷺ أن يطعن على أصحابه، فسلّمني منه، فأُدخلتُ على الرشيد، وهو جالس على كرسيٍّ من ذهب، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف، وبين يديه النطع. فلما بصر بي قال: يا عمر بن حبيب، ما تلقّاني أحد من الردّ والدفع لقولي بمثل ما تلقّيتني به. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّ الذي قلت وجادلت عليه فيه إزراء على رسول اللّه ﷺ وعلى ما جاء به، إذا كان أصحابه كذّابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والحدود كلّها مردودة وغير مقبولة. فرجع إلى نفسه وقال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك اللّه، أحييتني أحياك اللّه. وأمر لي بعشرة آلاف درهم. انتهى. فهذا ثمرة الصدق في القول، وتحرّي الحق في الجواب. وتأمّل دفاع اللّه عن هذا الرجل، وما وضع اللّه له في قلب الرشيد من القبول لحجته، والإذعان لرأيه، حتى انقلب من العزم على إهلاكه، إلى الإحسان إليه، ومن الإرادة لموته، إلى السعي في إصلاح حياته.

وقد يسنّي اللّه الفرج، وييسّر الخلاص لبعض المبتلين على يد من شاء من عباده، وبرأفة يُلقيها الربُّ اللطيف في فؤاده، فيثمر له ذلك مزيّة اختصاص، أو مزيد فضل من اللّه، وإنعام كرامة، لمن تيسرت نجاته بسببه

وعلى يده. فقد كان "بغاء" التركيّ ديّناً، وكان من غلمان المعتصم، يشهد الحروب العظام، ويباشرها بنفسه، فيخرج منها سالماً، ويقول: الأجل جوشن. ولم يكن يلبس شيئاً من الحديد. فعُذِل في ذلك، فقال: رأيت في نومي النبي ﷺ، ومعه جماعة من الصحابة، فقال لي: يا بغاء! أحسنت إلى رجل من أمتي فدعا لك بدعوات استجيب له فيك. فقلت: يا رسول اللّه ! ومن ذلك الرجل؟ قال: الذي خلّصته من السباع فقلت: يا رسول اللّه ! سل ربك أن يطيل عمري. فشال بيده نحو السماء وقال: اللهم أطل عمره وانسأ في أجله. فقلت: خمس وتسعون سنة. فقال: خمس وتسعون سنة. فقال رجل كان بين يديه: ويُوقّى من الآفات. فقال النبي عليه السلام: ويُوقى من الآفات. فقلت للرجل: من أنت؟ قال: عليٌّ بن أبي طالب. وكان بغاء كثير التعطّف والبر للطالبيين فقيل له: من كان ذلك الرجل الذي خلّصته من السباع؟ قال: أُتي المعتصم برجل قد رُمي ببدعة، فجرت بينهم في الليل مخاطبة في خلوة. فقال المعتصم: خذه فألقه إلى السباع. فأتيت بالرجل إلى السباع لألقيه إليها، وأنا مغتاظ عليه، فسمعته يقول: تعلم أني ما تكلّمت إلا فيك، ولا نصرت إلا دينك، ولا أثبت إلا توحيدك، ولم أُرد بذلك غيرك، تقرّباً إليك بطاعتك، وإقامة للحق على من خالفك، أفتُسلمني؟! قال: فارتعدت، وداخلتني له رقّة، وملئ قلبي منه رُعباً، فجذبته عن طرف بركة السباع، وأتيت به حُجرتي فأخفيته. وأتيت المعتصم فقال: هيه. فقلت: ألقيته. قال: فما سمعته يقول؟ قلت: أنا أعجميٌّ، وكان يتكلّم بكلام عربي، وما كنت أعلم ما كان يقول. وقد كان الرجل أغلظ للرجل في خطابه، فلما كان في السحر، قلت للرجل: قد فتحت الأبواب وإنا نخرجك مع رجال الحرس، وقد آثرتك على نفسي، ووقيتك بروحي، فاجهد أن لا تظهر في أيام المعتصم. انتهت.

ظاهر من هذه الحكاية أن هذا الرجل كان صادق الوجهة في الذبّ عن سنة النبي ﷺ. وقد آثر اللّه بغاءً هذا من أجله بكرامة من رؤيا النبي في نومه، حسبما أشير إليه في موضع آخر، فإن الشيطان لا يتمثل به.

وحدّث الأستاذ أبو عبداللّه بن عمر بإسناده إلى أنس قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يتّجر بمالٍ له ولغيره، ويضرب له في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرة، فلقيه لص مقنعاً في السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك. فقال له: وما تريد بقتلي؟ شأنك والمال. قال: المال مالي، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذ أبيت فذرني أصلّي أربع ركعات. قال: صلِّ ما بدا لك. ففعل، فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال: يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعّال لما يريد، أسألك بعزّك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شرّ هذا اللص، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني، يا مغيث أغثني. قال: دعا بهذا ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أقبل، بيده حربة، وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر باللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال له: قم. قال: من أنت بأبي وأمّي؟ فقد أغاثني اللّه بك اليوم. قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول فسُمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسُمعت لأهل السماء ضجّة، ثم دعوتَ بدعائك الثالث فقيل دعاء مكروب، فسألتُ اللّه ﷻ أن يُوليني قتله. قال أنس: فاعلم أنه من توضأ وصلّى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء مكروباً كان أو غيره استُجيب له. انتهت. وهذه داخلة في باب الكرامات.

وأشبه شيء بها ما حُكي أنّ زيد بن حارثة خرج مع منافق من مكّة إلى الطائف قال: فبلغا لخربة، فقال المنافق: ندخل هاهنا ونستريح. فدخلا وناما،

فأوثق المنافق زيداً وأراد قتله، فقال زيد: لِمَ تقتلني؟ قال: لأنّ محمداً يُحبّك وأنا أُبغضه. فقال زيد: يا رحمن أغثني. فسمع المنافق صوتاً يقول: ويحك لا تقتله. فخرج من الخربة، ونظر فلم ير أحداً، فرجع وأراد قتله، فسمع صائحاً أقرب من الأول يقول: لا تقتله. فنظر فلم ير أحداً. فرجع الثالثة وأراد قتله، فسمع صوتاً قريباً يقول: لا تقتله. فخرج فرأى فارساً معه رمح، فضربه الفارس ضربة فقتله، ودخل الخربة، وحلّ وثاق زيد. وقال له: أما تعرفني؟ أنا جبريل، حيث دعوت فكنت في السماء السابعة، فقال اللّه ﷻ : أدرك عبدي. وفي الثانية كنت في السماء الدنيا، وفي الثالثة بلغتُ المنافق. انتهت.

وكون الابتلاء متوقّعاً من سطوة ظالم، أو جبروت سلطان، ثم يتأتى صرفه بسبب ظاهر أو باطن، هو المعتاد في الوجود، والجاري في العالم، وإنما الذي يعجب منه ما يتولّى اللّه فيه الدفاع عمّن شاء، بما شاء من مخلوقاته، التي لا يتأتى بها صرف الابتلاء، إلا بتسخير من اللّه، أو تيسير من لطفه، كما روي عن ذي النون المصري قال: كنت في البيت، إذ وقعت زلزلة في قلبي، وصرت بحيث ما ملكت نفسي، فخرجت من البيت، وانتهيت إلى شط النيل، فرأيت عقرباً قوياً يعدو، فتبعته، فوصل إلى شط النيل، فوجد ضفدعاً، فركبه العقرب وسبح به، فركبت السفينة وتبعته، فوصل الضفدع إلى الطرف الآخر من النيل، ونزل العقرب من ظهره يعدو، فتبعته، فرأيت شاباً نائماً تحت شجرة، ورأيت أفعى تقصده، فلما قرُب الأفعى من ذلك الشاب، وصل العقرب إلى الأفعى، فوثب العقرب إلى الأفعى ولدغته، والأفعى أيضاً لدغت العقرب، فماتا معاً، وسلم ذلك الإنسان منه. انتهى.

فانظر إلى دفاع اللّه عن هذا الرجل النائم، من غير سبب منه ظاهر؛ إذ

قد يمكن أن يكون الدفاع عنه بسبب استعاذة بالله عند نومه، أو بمجرد اللطف من اللطيف الخبير، لا إله إلا هو.

وقد تقدم قول الرجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، ماذا لقيت البارحة من عقرب لدغتني! فقال له: «**أما أنك لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق لم يضرك**». فتذكر ذلك.

ولعل هذا النائم في الحكاية المسرودة آنفاً، الذي نجّاه الله من شرِّ الأفعى القاصدة لإذايته، كان ممّن قال هذا القول المأثور عن النبي ﷺ أو مثله مما حصل به في جوار الله وعياذه، فقيّض الله من العقرب التي صرف الله بها عنه شرَّ الأفعى ما قيّض، وهو ممن وقي الهلاك بالهلاك.

تتميم

إذا كانت منن الله في دفاعه عن عبده معوزة العدّ، متجاوزة في باب اللطف الخفيِّ لمعتاد الحد، فمن الذي يوفي حمده على ما أسبغ في ذلك من آلائه؟! ومن الذي يقوم بشكر ما أجزل في هذا المعنى من نعمائه؟! وهذا المحل مما يتأكّد فيه الاستكثار من الحمد، ويترجح فيه الأخذ من ذلك بأقصى الحد. فلله الحمد حمداً نستقصي به أنواع محامده السابقة واللاحقة، ونماثل به حمد من قام بحمده من الأولين والآخرين، ونستوجب به رضاه، فلا نخشى بعده من سُخطه أبد الآبدين، ودهر الداهرين، ونتبوّأ به في حضائر قدسه، وحضرات تقريبه وأُنسه، في أعلى عليّين.

الصورة الخامسة

●**أن يكون الابتلاء في النفوس وما ذكر معها واقعاً في الحال، وهو مع ذلك مرجوّ الزوال**، كغير المُزمن من أنواع الأسقام، وأصناف الآلام، ومِحن العذاب، وشدائد الاغتراب وأهوال البحار، وأحوال الاضطرار، وكاللاحق من أزمات الاعتقال، وغلبات الرجال، ومذلات الأمار، ومواقف العنف والاقتصار، وحضور المخاوف، وشهود المتالف، وما أشبه هذا كله من التمحيصات التي يمكن رفعها، ويتأتى صرفها ودفعها، ويُرجى لطف اللّه في إزالتها، ويرتقب الفرج من لدنه باستحالة حالتها، وهنا يتنزّل قول القائل:

لا يعرف المرء إذا لم يصب   بنكبة ما موقع العافية

وبحقٍّ فإنّ النعمة لا يُقدَّر قدرها إلا إذا فُقدت، ولذلك يشير قول النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[1] لأنه يتأتى في هاتين الحالتين من مصالح الدين ما لا يتأتى مع المرض والشغل. وما أعجب ما قال بعض الحكماء، وقد سُئل: من السعيد في الدنيا؟ فقال: من ولد سليماً

(١) البخاري (٦٤١٢) والترمذي(٢٣٠٤) وابن ماجه (٤١٧٠) وأحمد ٢٥٨/١ والدارمي (٢٧٠٧) عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

وعاش معافىً ومات فأُتبع بثناء جميل. انتهى. ولا يبعد أن يكون هذا سعيداً في الآخرة لقول النبي ﷺ: «**أنتم شهداء اللّه في الأرض**»[1].

فكل ما سبق في الصور قبل من الأمور الشرعية جارٍ هنا، ومطلوب على حسب ذلك الطلب، وعلى حسب ما سبق من جنس التمحيص من التقسيم، ليرتكب فيها ما يناسب كل قسم من الأسباب حسبما سبق، وكذلك ما يأتي في الصورة بعدها إلا توطين النفس على اليأس فيما لا حيلة فيه هنالك، فإن هذه الصورة تخالف تلك الصورة في هذا المعنى، لما يجب هنا من تحسين الظنّ باللّه، وتقوية الرجاء فيه، في صرف هذا الابتلاء، والمعافاة من هذا التمحيص، بعد استعمال ما يجب من الصبر، والتفويض والتسليم، والرضا بما تجري به الأقدار، وتتصرّف به الأقضية، مع قلّة الشكوى والضجر واستشعار اللطف من اللّه في كون هذا الابتلاء مما الشأن فيه على ما أجرى اللّه من عادته، وأحكم في الخليقة من سُنّته، ان يُتدارك فيه الرمق، ويؤخذ فيه باليد، ويمنح فيه الشفاء، ويتعدد فيه الإبلال أو الخلاص أو السراح أو الإياب، وما أشبه هذا من الاستبدال من العسر باليسر، ومن التعب بالراحة، ومن الألم بالإفاقة، ومن البلاء بالمعافاة. فللنفس هنا بالرجاء انبساط عظيم، وللصدر انشراح كثير، قد فُقد في الصورة بعدها، بما أحكم اليأس فيها من نفي الرجاء، لعمرانه المحل دونه، وهو ضدّه، فلا طمع هنالك في استرجاع ما ذهب من نفس أو عين أو يد، وأصل الطمع هنا منسحبٌ، وحكم الرجاء مستصحب، وما لا نرى مما وقى اللّه أكثر من الأقوال المشهورة، التي لا ينبغي أن يُغفل عن ملاحظة معناها، في إلمام هذه النوائب فمن الممكن أن يكون ما أصاب أعظم

---

(١) البخاري (١٣٦٧) ومسلم (٩٤٩) وغيرهما عن أبي هريرة رضي اللّه عنه.

أو أثقل أو أشد، والمشروع هنا استعمال الأسباب المرتجاة النفع في صرف الابتلاء بحسب أماكنها التي يشرع فيها من وجوب أو ندب أو إباحة، فلما علم اللّه من ضعف نفوسنا، وعدم القوة في قلوبنا، أذن لنا في استعمال الطب في استدفاع المرض، والاستشفاء من الألم، وأباح لنا الافتكاك من الأسر، وارتكاب الجائز في الخلاص من الاعتقال، واعتماد نظر أهل المعرفة في مثل ارتجاج البحار. وقد يجب بعض هذه الأسباب، حيث يتعيّن به نجاة النفس، من غير ارتكاب المحظور في الشرع، كالفرار من الأسر، وبذل الفدية عنه لمن أمكنه ذلك، والتطبب من المرض لمن يقدر عليه، وتطمح نفسه إليه. وقد يتأكد ذلك بحسب وجوه من النظر؛ فإنه إذا قيل: إذا شرب السم يحرم. وإنما حرّم حفظاً للنفس، فإن شاربه قاتل نفسه بلا شك، لقول النبي ﷺ: **«من شرب سمّاً فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلّداً فيها أبداً»**[1].

وشهد طبيب من أهل المعرفة بعلم، أنّ احتماء هذا المريض من هذه المضرّات التي يُعيِّنها واجب، وأنّ استعماله إياها مهلك له، فقد صارت في حقّه، بشهادة هذا العارف المجرب، نوعاً من السم الذي منعه الشارع، فيما نُقل عنه قبل من الحديث الصحيح. وقد سُئل عزّ الدين بن عبدالسلام عن رجل يصوم متطوعاً، فيقول له اثنان من أهل الطب: إن الصوم يضرُّه ببصره أو يسهره، فيقولان إن السهر يضر بك، هل يحرم عليه الصوم والسهر أم لا؟ فأجاب: إذا علم المريض أنه يتضرّر في جسمه إضراراً ظاهراً لم يجز له أن يضر نفسه؛ قد اختلف في ذلك. انتهى. ويظهر في أن لا معارضة بين هذا وبين قول أبي بكر رضي الله عنه لما مرض وقيل له: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: قد نظر إليّ

---

(١) البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) وغيرهما عن أبي هريرة.

الطبيب. قيل له: فما قال لك؟ فقال: إني فعّال لما أريد. لأنه لم يتعيّن له سبب يستعمله، فهو على وفق قوله ﷺ في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من أمّته بغير حساب، فقيل: من هم يا رسول اللّه. قال: «**الذين لا يتطيّرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**»[1]. وعلى فرض وجه من التعارض فليس مقام أبي بكر ﷺ مما يقاس به أحوال أمثالنا ممن هو تحت ربقة الأسباب مأسور، وفي مهمة الارتباك فيها ضليل.

الإخلاص والصدقة أهم ما يستدفع به ولكن مع الأخذ بالأسباب

والقصد فيما يستعمل من الأسباب المشروعة، والأوامر المطلوبة، التي لا تعلّق لها بعلم آخر، كالطب وغيره. فنقول: إن أهم ما يستدفع به طوارق البلاء، هو الإخلاص للّه في الدعاء، والابتهال إليه بالضراعة والبكاء، لقوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ [البقرة:١٨٦]. وعلى حسب حالة الداعي من الاضطرار، والاحتياج إلى اللّه، والافتقار، تكون الإجابة سريعة، ويكون التمحيص بنيل فضل اللّه ذريعة، لقوله تعالى: ﴿**أمّنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء**﴾ [النمل: ٦٢].

وللصدقة في نظر الناس ـ في هذا الباب ـ موقع عظيم، وإنما ذلك ـ واللّه أعلم ـ لما وقع فيها على الخصوص، من أحاديث كثيرة، تشهد بكون المتصدّق مُوقّىً من آفات، كقوله ﷺ: «**الصدقة تدفع ميتة السوء**»[2] . قال مالك بن دينار: اختلس السبع صبياً، فتصدّقتْ أُمّه برغيف، فألقى السبع الصبي،

---

(١) البخاري (٥٧٠٥) ومسلم (٢٢٠) وغيرهما عن ابن عباس ومسلم (٢١٨) وأحمد ٤١٠/١ وغيرهما عن عمران بن حصين.

(٢) الترمذي (٦٦٤) عن أنس وفيه عبداللّه بن عيسى الخزاز ضعيف وعنعنة الحسن البصري.

ونوديتْ لقمة بلقمة. انتهت. فتأمّل هذا اللطف الخفي، والصنيع الحفيّ، ما أغربه وأعجبه!. وكذلك ما ورد من كونها تُطفئ غضب الرب، فما أنسبها لدفع الآفات، وضروب الابتلاءات، إذا قلنا إن الابتلاءات حسبما شهد له ما سبق من الآيات من أثر الذنوب، الموجبة لغضب الربِّ على المربوب.

وذكر بعض طلبة ابن وضاح أنهم كانوا في السماع عنده في غرفة له، فدخل عليه رجل، فقال له: خطرت العجلة الآن، فأصابت الصبي ابنك، ومشت عليه. فلم يكترث لذلك، وأقبل على ما كان فيه من إمساك كتابه، وأمر القارئ أن يتمادى على قراءته. فلم يلبث أن دخل آخر، فقال: أبشر أبا عبدالله ! سلم الصبي، إنما أصابت العجلة ثوبه فسقط، وجاوزته فلم تضره. فقال: الحمد لله. قد أيقنت بذلك، لأني قد رأيت الصبي، قد ناول اليوم مسكيناً كسرة، فعلمت أنه لا يصيبه بلاء في هذا النهار للحديث: «**إن الله يدفع عن العبد الميتة السوء بالصدقة يتصدق بها**».

ويحكى أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن. وقال سالم بن الجعد: إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء، وفضل سرِّها على علانيتها سبعون ضعفاً، وإنك لتفُكُّ بها لحي سبعين شيطاناً. وروي أن رجلاً من بني إسرائيل كان مسرفاً على نفسه لما ارتكب من الفواحش، أتى في مسير له على بئر، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فرقّ له ورثى، ونزل في البئر ونزع خُفّه، وسقى الكلب، فأرواه، فشكر الله ﷻ له، وغفر له، وأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان أنْ قُلْ لذلك المسرف إني قد غفرت لك جميع ما اقترفت برحمتك على خلقي. فسُئل النبي ﷺ عن ذلك. فقيل يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «**في كل ذي**

كبد رطبة أجر»[1] وهذا المعنى بعينه هو الذي خرّجه مسلم بن الحجاج في صحيحه في قضية البغي التي نزعت موقها فسقت الكلب.. الحديث[2]

وإذا كان الابتلاء بمؤلم ألم، أو وارد سقم، فإنما يلتمس فيه الشفاء من اللّه تعالى، سواء استعملت الأدوية الطبية أو لم تُستعمل. فإن استعملت على ما يجب، من تقديم التوكل على اللّه في نجحها، والثقة به في حصول نفعها، مُتلقّىً في ذلك أمره بالامتثال، وإذنه بالقبول والإقبال، وقد تقدّم على ذلك بصحيح العقد؛ فإن الشفاء إنما هو بيدِ اللّه، ولن يُرجى حصوله إلا من اللّه، لقوله تعالى حاكياً عن خليله إبراهيم ﷺ : ﴿**وإذا مرضت فهو يشفين**﴾ [الشعراء: ٨٠] مستعملاً في ذلك من الأدب مثل ما أرشدت هذه الآية الكريمة إليه، من نسبة المرض لمن وقع به، ونسبة الشفاء للربّ الذي هو منه. ولذلك أخصّ الدعوات بهذا المعنى أن يقول المريض: أعوذ باللّه وقدرته من شرّ ما أجد. وأن يقول عائده: أسألك اللّه العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك. سبع مرّات، لما ورد في الحديث الصحيح[3] في ذلك.

ومما يختص من ذلك بمرض العينين ما روى الترمذي وابن ماجة، أن رجلاً ضرير البصر، أتى النبي ﷺ فقال: ادع اللّه تعالى أن يعافيني. قال: «**إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك**». قال: فادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أدعوك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ﷺ ، يا محمد إني توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣) ومسلم (٢٢٤٤) وغيرهما عن أبي هريرة.

(٢) رقم (٢٢٤٥) وأخرجه أيضاً البخاري (٣٣٢١) وغيره والموق: خف غليظ يلبس فوق الخف.

(٣) الترمذي (٢٠٨٣) وأبو داود (٣١٠٦) وغيرهما عن ابن عباس وصححه الألباني (صحيح أبي داود ٢٦٦٣).

لتُقضى لي، اللهم فشفّعه فيّ»[1] قال حديث حسن صحيح[2]. وقال ابن أبي زيد: كانت لي بنت أصابها في عينيها شيء انتهى بها إلى أمر عظيم، فعالجتها بكل علاج، فلم ينجع، فذكرت لأبي إسحق السبئي أن يدعو لها وقلت له: كرهت عرضها للطبيب وكشفتها عليه. فقال لي: ابعث بها إليّ أرقيها. ثم رجع فقال: من هاهنا أرقيها. فلم يزل يرقيها حتى أفاقت لثلاث، فكأنّه ما كان بها شيء. انتهت. وهذه كرامة بيّنة. ولا يُنكر من أبي إسحق السبئي لبنت أبي محمد بن أبي زيد رضي اللّه عنهما رقْي.

ومن ذلك ما حكاه ابن أبي زيد عن أبي إسحق المذكور أن إسماعيل المشرقي، صاحب القيروان، وهو من بني عُبيد[3]، أولئك الشيعيين على غلوّهم وكُفرهم، اشتكت له ابنة عينيها، وأعيا الأطباء أمرها، فقيل له: لو رقاها السبئي. فأرسلها مع عجوز متنكرة لئلا تُعرف، فرقاها أياماً، فبرئت، فسألها إسماعيل بماذا رقاها، فأخبرته أنه رقاها بالحمد للّه وقل هو اللّه أحد والمعوذتين كل ذلك سبعاً ثم يقول في آخر دعوته: ببُغضي في عبيد وذريته وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته. انتهت.

وقد يكون الابتلاء في غير العين من الأعضاء كاللسان وغيره. وروي أن ابن وضاح لما قفل من سفرته الثانية احتبس لسانه سبعة أيام فكان لا يستطيع على الكلام، فقال: اللهم إن كان في إطلاق لساني صلاح لنشر هذا العلم فأطلقه. فأطلق اللّه لسانه وأحيا به أهل الأندلس وانتفعوا به. انتهت. وقال ابن

---

(١) الترمذي (٣٥٧٨) وابن ماجه (١٣٨٥) عن عثمان بن حنيف.

(٢) بل هو حسن ففيه عمير بن يزيد أبو جعفر الخطمي وهو صدوق.

(٣) وهم ما سموا بالفاطميين ونسبتهم إلى عبيد اللّه مؤسس حركتهم في المغرب.

أبي زيد، كانت عندي طفلة استرخى وركها، فمضت بها امرأة لأبي إسحق السبئي فرقاها، فأتت صحيحة. انتهت.

الدعاء والرقى من أنفع أسباب التطبب

والرقى من أنفع الأسباب في التطبب، وهي مما أباح اللّه لعباده. وقد صحّ ذلك عن النبي ﷺ، في غير حديث. ولا تعارض بين ذلك وقوله ﷺ: **«ولا يسترقون»** في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب من أمته، فقد تكفّل العلماء ﷺ برفع ما ظاهره التعارض بينهما. واللّه أعلم.

وروي عن أنس أن النبي ﷺ دعا رجلاً من المسلمين قد نحف وصار مثل الفرخ، فقال ﷺ: **«هل كنت تدعو الله؟»** قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال رسول اللّه ﷺ: **«لا تطيقه ولا تستطيعه، هلاّ قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»**. قال: فدعا اللّه فشفاه(١).

وذكر أبو مروان بن مالك الفقيه القرطبي أن بكر بن العلاء القشيري قال: احتبس بولي وأنا صبي نحو سبعة أيام، فأتى بي والدي إلى سهل ـ يعني التستري ـ ليدعو لي، فمسح بيده، فما هو إلا أن خرجنا بُلت على عاتق الغلام.

وفيما يختص بالملدوغ ما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: انطلق نفر من أصحاب رسول اللّه ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدغ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٨) و(٢٦٩٠) وغيره وروى بعضه البخاري (٤٥٢٢).

سيد ذلك الحيّ فسعوا له بكل شيء لا ينفعه. فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عندهم بعض شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لُدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه فهل عند أحدكم من شيء؟ قال بعضهم: إني واللّه لأرقي، ولكن واللّه لقد استضفناكم فلم تُضيِّفونا فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً. فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد للّه ربّ العالمين، فكأنما نشط من عقال. فانطلق يمشي وما به علّة. فأدّوهم جُعلهم الذي صالحوهم عليه. وقال بعضهم: اقسموا. فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان فننظر الذي يأمرنا. فقدموا على النبي ﷺ فذكروا له الذي كان، فقال: **«وما يدريك أنها رقية؟»** ثم قال: **« قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً»** وضحك النبي ﷺ.[1]

و في نبي اللّه أيوب أعظم أُسوة، وفيه لجميع المُبتلين أعظم قدوة يحكى أنه قيل لأيوب عليه السلام : ما أشد ما مرّ بك من البلاء؟ فقال: شماتة الأعداء. انتهى. وإن شماتة الأعداء لمن أعظم الابتلاء، وقد استعاذ النبي ﷺ من شماتة الأعداء[2] . وفي قول هارون لأخيه موسى ﴿**ولا تشمت بي الأعداء**﴾ [الأعراف: ١٥٠] ما يشهد بعظم ذلك. وقال عُبيد بن أبي عُبيد:

كل المصائب قد تمرُّ على الفتى ... وتهون غير شماتة الحُسّاد

وتأمّل تلطّف أيوب عليه السلام في دعائه، وسرعة الإجابة من اللّه بشفائه،

---

(١) البخاري (٢٢٧٦) ومسلم (٢٢٠١) وغيرهما.

(٢) أخرج البخاري (٦٣٤٧) ومسلم (٢٧٠٧) وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ كان يتعوّذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

حيث يقول: ﴿أني مسّني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين﴾ [الأنبياء: ٨٣] إنما اكتفى بتقرير حالته، وإظهار حاجته، بأوجز لفظ وأوضح معنىً، معرباً عن حالته من مسِّ الضر، ابتدأه بلفظ ﴿ربّ﴾ الدال من معاني القيام بمصالح المربوب وشؤونه على ما لا يدل عليه غيره من أسماء اللّه تعالى وصفاته، مع حذف أداة النداء استشعاراً بالقرب المستشعر منه سرعة الإجابة. ثم عقّب كونه ممسوساً للضُرِّ بقوله ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾. اكتفى بالتعريف بأمره لمن لا تخفى عليه خافية، والتقرير لصفةِ ربِّه الذي بيده الشفاء والعافية، فكانت الإجابة المتضمن بشارتها قوله تعالى: ﴿**فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ [الأنبياء: ٨٣] وقد وقفت لبعض الناس على ان قوله: ﴿أني مسّني الضُرّ وأنت أرحم الراحمين﴾ مرجو النفع للمريض إذا اشتدّ حاله، اقتداءً بنبي اللّه أيوب ﷺ وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي توفي منه بالمعوذات. قالت عائشة: فلما ثقل كنت أنفث عليه بهنّ وأمسح بيده نفسه رجاء بركتها[1] وفي صحيحي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كان يعود بعض أهله ويمسح بيده اليمنى ويقول: «**ربّ الناس أذهب الباس واشف فأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سَقماً**»[2] .

فهذا وأمثاله من الأسباب التي أباحها الشارع الذي آتاه اللّه الكتاب والحكمة لاستدفاع المرض والاستشفاء من الألم، شرط ذلك كلّه خلوص النية وصدق الطوية. ثم بعد ذلك ينظر في استعمال الأسباب الطبية على ما سبق في

---

(١) البخاري (٥٧٣٥) ومسلم (٢١٩٢) وغيرهما.

(٢) البخاري (٥٦٧٥) ومسلم (٢١٩١) وغيرهما عن عائشة رضي اللّه عنها.

سواها من الأسباب من اعتماد شكر اللّه على ما أتاح منها أو ندب إليه أو أوجبه؛ فنفوسنا تضعف عن مثل منزلة أبي بكر ﷺ في هذا المقام حسبما سبق النقل عنه، من اعتقاد ما تقرّر، في كون الأسباب إنما ينبغي أن ترتكب من جهة الأدب مع اللّه واللطف بها منه، وإنها موضوعة للابتلاء، ومن تقديم التوكل على اللّه فيها، والتحقيق لكون الفعل الصادر عندها إنما هو منه ومن اختياره الأرجح ممن تثق النفس بمعرفته وديانته، ويطمئن القلب بثقته وأمانته.

شرف صناعة الطب

وهذا الباب مما ينبغي ملاحظته فإن هذه الصناعة الطبية من أشرف الصنائع، وموضوع تصرّفها الذي هو الإنسان أشرف الموضوعات، والاسترسال فيها إلى الغاية التي لا غاية بعدها، فيوجد المريض الذي يكون في الإسلام بالمنزلة الأثيرة من علم أو صلاح أو جهاد أو غير ذلك، وهو يضع نفسه في يدي معدن من معادن الجهل والغباوة ممن لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر، إن هذا لهو الضلال البعيد.

وقد حُكي عن الأستاذ أبي سعيد بن لُبّ ـ رحمه اللّه ـ أن طبيباً من أخابيث اليهود كان يعالجه من مرض موته، فتسبب في هلاكه بدجاجة اقتصر على ماء الورد في إنضاجها، أوهمه أن عملها على تلك الصفة مما ينعش نفسه وينهض قوته، فقدّر له في شيّها حداً أدخلها به في صنف الشواء المغموم الذي نصّ الأطباء على وجوب اجتنابه من سدِّ فم القِدر السدّ المحكم وإيهامه كون ماء الورد مما ينشط القوة على الجملة، فامتثل ذلك الرسم ممرّضوه، فأدنى بها للأستاذ ما حمّ من أجله. ولعلّه غلط في ذلك، فغلط الطبيب إصابة المقدار . وفي ذلك يقول ابن الرومي:

غلط الطبيب عليَّ غلطة مورد   عجـــزت محالته عن الإصدار

والناس يلحون الطبـــيب وإنما   غلط الطبـــيب إصابة المقدار

وإذا وجد المريض من يرضاه علماً وديناً فليعتمد على اللّه في أخذ الدواء منه، عاملاً على أن اللّه أباح له التداوي أو ندبه إليه، فهـو فيـه ممتثـل مـا أمـره ربه، وإنه لو شاء لشفاه دون ذلك، كما أنه قادر على أن يجعل ذلـك السـبب المأخوذ على أنه دواء داء، وأن يقلب السم المهلك إذا أراد دواء.

ويروى عن الرازي قال: اجتزت في طريقي ببسطام، وهـو النصـف مـن طريق نيسابور إلى الريّ، فاستقبلني رئيسها، وأنزلني داره، وخدمني أتمّ خدمـة، وسألني أن أقف على ابن له به استسقاء، فأدخلني على دار له قـد أفردهـا لـه، فشاهدت العليل، فلم أطمع في برئه، فقلـت القـول بمحضـر مـن العليـل. فلمـا انفردت به سألني أن أصدقه، فصدقته، وأيأسته من حياة ابنه وقلت لـه: مكِّنـه من شهواته فإنه لا يعيش. وخرجت إلى خراسان وعدت منها بعـد اثـني عشـر شهراً، فاستقبلني الرجل بعد عودي، فلما لقيته استحييت منه غايـة الاسـتحياء ولم أشك في وفاة ابنه وإني كنت نعيته إليـه، وخشـيت أن يسـتثقلني، فـأنزلني داره، فلم أجد عنده ما يدل على ذلك، وكرهت مسألته عن ابنـه لئـلا أُجـدِّد عليه حزنا، فقال لي بعـد يـوم: أتعـرف هـذا؟ وأومـأ إلى شـاب حسـن الوجـه والصحة كثير الدم والقوة قائم مع الغلمـان يخدمنـا. فقلـت: لا أعرفـه. فقـال: هذا ابني الذي أيأستني من حياته عند مضيّـك إلى خراسـان. فتحيّرت وقلـت: عرِّفني سبب برئه. فقال: إنه بعد قيامك من عنده قـال: لسـت أشـك أن هـذا الرجل وهو أوحد في الطب قد أيأسك مني، والذي أسألك أن تمنع مني هـؤلاء الغلمان ـ يعني غلماني الذين كنت أخدمته إيّاهم ـ لأنهم أترابـي، وإذا رأيتهـم

وهم معافون ـ وقد علمت أني ميّت ـ تجدّد عليّ الغمّ حتى يتعجّل لي الموت، فعجّل عليّ أن لا أراهم، وأفرد بخدمتي دايتي فلانة. ففعلت ذلك. وكان يُحمل إلى الداية مضيرة لتأكل وإليه ما يطلب على غير حمية. فلما كان بعد أيام يسيرة حُمل إلى الداية مضيرة لتأكل، فتركتها بحيث يقع عليها نظر ابني، ومضت في شغل لها، فذكرت أن ابني نهاها عن الغضارة لما عادت ووجدتها وقد ذهب كثير مما فيها، وبقي بعضه متغيّر اللون قالت: فقلت ما السبب؟ فقال: رأيت أفعى عظيمة قد خرجت من موضع ودبّت إليها فأكلت منها ثم قذفت فصار لونها كما ترى. فقلت: أنا ميت وهذا الذي يلحقني ألم شديد، ومتى أظفر بمثل هذا. فأكلت من الغضارة ما استطعت لأموت عاجلاً وأستريح، فلما لم أستطع زيادة أكل زحفت حتى رجعت إلى موضعي. وجئت أنا. قالت: ورأيت أثر المضيرة على يديه وفمه، فصحت، فقال: لاتعملي أو تدفقي الغضارة لئلا يأكلها إنسان فيموت، ففعلت ما قال، وخرجت إليك، وقال: فلما عرّفتني بذلك هان عليّ أمري، ودخلت على ابني فوجدته نائماً، فقلت: لا توقظوه حتى ننظر ما يكون من أمره، فأتيته في آخر الليل، وعرق عرقاً عظيماً وهو يطلب المستحم فأنهض إليه، فاندفع بطنه وقام من يومه فجلس، فازداد يأسنا منه، وقل القيام. إلا أنه استمر أياماً ثم انقطع، وقد صار ظهره مع بطنه مثل ظهور الأصحاء مع بطونهم، وطلب فراريج يأكل، ولم تزل قُوته تزيد. وطمعنا في حياته، فمنعناه التخليط، فثابت قوته وتزايدت إلى أن صار كما ترى فعجبت من ذكر، وذكرت له أن الأوائل قالت: إن المستسقي إذا أكل من لحم حيّة عتيقة لها مائة سنة برئ ولو قلت لك ذلك لظننت أني أدافعك، ومن أين يعلم كم سن حية إذا وجدناها! فسكت عنه. انتهت.

وهي مما يُعتبر فيه ويستغرب منه. والسبب في الشفاء، وإن لم يكن معلوماً للمريض، ولا مشاراً به من الطبيب، فقد وقع من حيث الجملة، توفيقاً من اللّه للعليل، في قصد الاستراحة من الألم، فآتاه اللّه فيه من اللطف ما جبر به حاله وشفى ألمه. ولعلّه ممن لم يجر عليه القلم بعد فيما قصد من هلاك نفسه. واللّه أعلم.

وأغرب من ذلك ما يعرى عن السبب المناسب لما يفتح اللّه من النجاة بعد الإشفاء على الهلاك. كما يُحكى عن محمد بن يحيى المعروف بحامل أكفانه، من أهل بغداد، فإنه توفّي وغُسل وكُفّن وصُلّي عليه ودفن. فلما كان في الليل جاء نبّاش فنبش عنه، فلما حلّ أكفانه ليأخذها استوى قاعداً، فخرج النبّاش هارباً، فقام وحمل أكفانه وخرج من القبر، وجاء إلى منزله، وأهله يبكون، فدقّ الباب عليهم، فقالوا: يا قوم افتحوا لي الباب، فأنا واللّه فلان. ففتحوا له الباب، وعاد حزنهم فرحاً، وسمّي يومئذ حامل أكفانه. انتهت. ومن المعلوم أن هذا الرجل إنما اعترته غشية عظيمة قطعت رجاء أهله، وصحبهم من عدم التثبت فيه ما أوجب استعجالهم بدفنه قبل استعلام حاله، واستخبار أمره، وظهور الأمارات القاطعة بموته، فهيأ اللّه من هذا النباش ما أغنى عن استعمال الأدوية في مثله، من انتشاق الروائح العطرة، واستعمال الأدوية المقوية للأرواح. فسبحان اللطيف الخبير!!.

ومثل هذا جرى لسفيان الكوفي، فإنه لما دُلّي في حفرته اضطرب فانحلت أكفانه، فقام ورجع إلى منزله، وولد له بعد ذلك ابنه مالك بن سفيان.

ففي الحكاية وأمثالها ما يُؤنس العليل، ويقرِّب له في رحمه اللّه الرجاء،

ويحقق عنده أن الشفاء بيد اللّه، إذا أراده فقد يحصل من الأسباب التي يظنّ أنها مهلكة ما تكون فيه النجاة والراحة، كما يحصل من الأسباب التي يعتقد أنها منجية من الآفة، أو دواء من المرض، ما تستعجل فيه المنية، وتُستبعد فيه الإبلال، فيطول زمن العلة، وقد كان قصره ممكناً، أو يسبق الموت، فيأسف على المريض من اجتهد في تمريضه وكلّفه ما ظنّه أنه له صالح، وأن قصده به ناجح، ثم اختلف بعد ذلك اعتقاده، وخانه بعد جهده اجتهاده، والأولى في ذلك كله الأخذ بالأمر الأوسط، واستعمال التداوي والتطبب ملحوظاً فيه أنه مأمور به من اللّه، ومأذون فيه، لطفاً منه ورحمة بالنفوس البشرية، وإنما التوكل على اللّه وطلب الشفاء به من عنده.

ومما ينخرط في سلك هاتين الحكايتين، وإن لم يكن سبب الدفن سقماً سابقاً، ولا مرضاً لاحقاً، ما حكاه بعضهم قال: قدم من بلد الموصل رجل مُمسياً، وكره دخول البلد في ذلك الوقت، وأراد أن يبيت في تلك القباب، إلى أن يصبح ويدخل البلد، فدخل قُبّة من تلك القباب، وخبأ ما كان معه في بعض زواياها، فلما مضى من الليل نصفه إذا بقوم قد دخلوا عليه، وسلّموا، وجلسوا، وقدّموا خُبزاً وتمراً كان معهم، وقعدوا يأكلون، ودعوه فأكل معهم، فدنا طمعاً منه أن يسلم منهم بالتحرّم بطعامهم. فلما أكلوا قاموا وأخذوا به معهم، وتوسّطوا المقابر، حتى انتهوا إلى قبر جديد قد كانوا عينوه بالنهار، فلبس أحدهم آلة النبش، وأخذ سلب الميت، ثم قالوا للرجل الغريب: أيّ الأمرين أحب إليك: أن ندفنك فوق الميت أو تحته؟ فقال: يا قوم، اتقوا اللّه، أي فرح لكم في دفني وقتلي، ولست أعرفكم، ولا تخشون أن أذكركم؟ وجعل يتضرع ويخشع، فلم ينفعه شيء. قالوا: دعنا من هذا، واختر ما تحبّ.

قال: فإن كان ولابدّ ففوق الميت. فجعلوه فوق الميت، وردّوا عليه التراب ومضوا. وقُضي أنه كان وضع قوم أعينهم على هذا القبر، فجاءوا بعد الطبقة الأولى، ولا علم لهم بأن غيرهم قد سبقهم فنبشوا القبر، فلما وصلوا إلى الرجل المدفون حياً، ومد الرجل يده، فتعلّق بساق النباش، وجعل النباش يصيح: الأمان!! التوبة!!. وانسلّ من يده وعدوا، وقام الرجل يعدو خلفهم. فكانوا يلتفتون ويقولون: ويلكم هو ذا يعدو!! ففرّوا قبرين قبرين. فلما غابوا عن عينيه انصرف الرجل إلى القبة التي كان فيها، وأخذ متاعه وانصرف إلى البلد انتهت. وهذا من عجائب الفرج بعد الشدة. وقد كان حق هذه الحكاية أن تكون في فصل الابتلاء بالقتل والنجاة منه، وإنما سُطرت هنا لمناسبتها لما أتى به الفرج من هذا النباش من حيث لا يحتسب وباللّه التوفيق.

وإذا كان الابتلاء بضرب من ظالم، أو امتحان من جائر، أو اعتداء من صائل، أو استطالة من قاطع، أو جرح من كافر، أو مضرة من فاجر، من قطع النظر عن الانتصار بعد الظلم الرافع للسبيل عن فاعله، إذ لسنا بسبيل ذلك، فالمشروع هنا الصبر الذي هو من عزم الأمور، لقول اللّه تعالى: ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾ [الشورى: ٤٣]. وتصميم الاعتقاد على أن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، يدل على ذلك الحديث الصحيح، وقد نقل في موضعه، وأن الشرع قد أثبت له حقاً عند المعتدي عليه، والظالم له، يشهد لذلك قوله ﷺ: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم. قال: «**إنما المفلس الذي يأتي يوم القيام بصلاة وصيام وصدقة، ويأتي قد شتم هذا، وضرب هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه**

أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1] إلى ما لا يحصى كثرة من الأحاديث. فإن كانت الإصابة بالجرح من عدو اللّه فذلك أخف لمصابه، وأذهب لأوصابه، لقول النبي ﷺ: « **ما من كلم يُكلم في سبيل اللّه، واللّه أعلم من يُكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة يثعب دماءً كهيئته حين كُلم، اللون لون دم، والريح ريح مسك»**[2] فإن كان من بعض الفاجرين، فلعله قريب من فعل الكافرين، والجنة ثواب اللّه للصابرين.

ولا خفاء بشرعية الدعاء هنا كمثل ما سبق من المواطن قبله بأن يصرف عنه ما آلمه، ويرفع عنه ما أضرّه، وإنما ينظر هنا هل يجوز له الدعاء على من ظلمه متعدّياً عليه، فأما الكفار فلا إشكال في الدعاء عليهم، وأما الظالم من المسلمين والعاصي منهم وما أشبه ذلك، فالظاهر أنه يجوز؛ ففي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل بشماله عند النبي ﷺ فقال: **«كل بيمينك»** فقال: لا أستطيع. قال: **«لا استطعت، ما منعه إلا الكبر»**. قال: فما رفعها إلى فيه.[3] ففي هذا الحديث جواز الدعاء على من خالف الحكم الشرعي، ودعاء سعد بن أبي وقاص على الذي قال عنه إنه لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، مشهور، قال فيه سعد رضي الله عنه: أما واللّه لأدعون اللّه بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياءً وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرّضه للفتن. فكان بعد ذلك يقول: شيخ مفتون، أصابتني دعوة سعد! والقضية في الصحيحين.[4]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨)وغيرهما عن أبي هريرة رضي اللّه عنه

(٢) البخاري (٥٥٣٣) ومسلم (١٨٧٦) وغيرهما عن أبي هريرة.

(٣) مسلم (٢٠٢١) وأحمد والدارمي (٢٠٣٢).

(٤) البخاري (٧٥٥) ومسلم (٤٥٣) وغيرهما عن جابر بن سمرة.

ومحل جواز الدعاء في مثل هذا إنما هو إذا كان منوطاً بصفة مستحق للدعاء، كالظالمين وأمثالهم، ومن عيّنه الشرع كأبي جهل، وفي المعيّن، إذ لم يكن على هذا النحو كلام اختصرناه خيفة التطويل. وليتأمل قول أحد ابني آدم لأخيه: ﴿**لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين ۝ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين**﴾ [المائدة: ٢٨-٢٩] وهذا الغاية في الاستسلام لأقدار الله، والإذعان لما تجري به أحكامه، وهو فعل عثمان ﷺ في استسلامه لقتلته، ولم يدفع عن نفسه. والخلاف في هذه المسألة شهير بالمنع والجواز بعد أن يسلم فعل عثمان ﷺ لاختصاص قضيته بأمور لا توجد لغيره أبداً.

وللتسلية في أمثال هذه النوائب، قال ابن المعتز: الحوادث الممضّة مكسبة لحظوظ جزيلة، منها ثواب مدخر، وتطهير من ذنب، وتنبيه من غفلة، وتعريف بقدر النعمة، وعون على مقارعة الدهر. وقال بعض المحدثين: لولا حوادث الأيام، لم يُعرف صبر الكرام، ولا جزع اللئام.

وقد وقع لمالك ما وقع من الابتلاء بالضرب. قال الطبري: اختلف فيمن ضرب مالكاً، وفي السبب في ضربه، وفي خلافة من ضُرب، فقيل: إن أبا جعفر نهاه عن الحديث: «**ليس على مستكره طلاق**» ثم دس عليه من يسأله عنه، فحدّث به على رؤوس الأشهاد، فضربه بالسوط. وقاله مصعب، إلا أنه قال: الذي نهاه جعفر بن سليمان. وقال الواقدي: لما سُئل مالك وسُمع منه وقُبل قوله حسده الناس وبغوه، فلما ولي جعفر بن سليمان على المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث يرويه ثابت الأحنف في طلاق المكره أنه لا يجوز. فغضب جعفر،

ودعا به، فاحتج عليه بما رفع إليه، ثم جره ومدّه فضربه بالسياط ومُدّت يده حتى انخلعت كتفه. وقال الباجي: ولما حج المنصور، أقاد مالكاً من جعفر بن سليمان وأرسله إليه ليقتص منه. فقال: أعوذ بالله، والله ما ارتفع منها سوط على جسمي إلا وأنا أجعله في حلٍّ ذلك الوقت، لقرابته من رسول الله ﷺ. قال القروي والعمري وأحدهما يزيد على الآخر: لما ضُرب مالكُ ونيل منه حمل مغشياً عليه، فدخل الناس عليه، فأفاق، فقال: أشهدكم الله أني جعلت ضاربي في حلّ، فعدناه في اليوم الثاني فإذا به قد تماثل، فقلنا ما سمعنا منه، وقلنا له: قد نال منك. فقال: تخوّفت أن أموت أمس، فألقى النبي ﷺ فأستحي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي. فما كان إلا مدة حتى غضب المنصور على ضاربه، وضرب ونيل منه أمر شديد، فبُشِّر مالك بذلك، فقال: سبحان الله! أترون حظّنا مما نزل بنا الشماتة به؟! إنا لنرجو له من عقوبة الله أكثر من هذا، ونرجو لنا من عفو الله أكثر من هذا، ولقد ضربت فيما ضرب فيه محمد بن المنكدر وربيعة وابن المسيب، ولا خير فيمن لا يؤذى في هذا الأمر. قال الدراوردي: لما أُحضر مالك لضربه في الساعة التي أفتى بها، وكنت أقرب الخلق منه سمعته يقول كلما ضُرب سوطاً: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون. حتى فُرغ من ضربه، ذكر أنه أفتى عند قيام محمد بن عبدالله بن حسن العلوي المسمى بالمهدي بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم لأنها على الإكراه.

وقد وقع مثل ذلك لسعيد بن المسيب رضي الله عنه فعن عبدالرحمن بن أبي عون قال: كان جابر بن الأسود وهو عامل ابن الزبير على المدينة قد تزوّج الخامسة قبل أن تنقضي عدّة الرابعة، فلما ضرب سعيد بن المسيب صاح به سعيد، والسياط تأخذه: والله ما ربّعت على كتاب الله، يقول الله تعالى: ﴿**فانكحوا**

ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ [النساء: ٣] وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عِدّة الرابعة، وما هي إلا ليال، فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيراً حتى قتل ابن الزبير.

وقال ابن الحارث: كان يحيى بن عمر شجا على العراقيين، أخبرني من كان جالساً مع ابن عبدون، وكان رأساً فيهم، حتى خطر ابن عمر راكباً، على رأسه قلنسوة، فجعل وجه ابن عبدون يتغيّر شرقاً به، فلما ولي ابن عبدون القضاء، طلب يحيى وأخافه، حتى توارى منه، وخرج إلى سوسة، فاختفى بها، فيقال إنه خرج ليلاً متنكراً، فمرّ على دور بعض أهل العراق، وبها مشعل، فخاف أن يميّزوه، فوقف، فإذا بريح قد أطفأته، فجاز، فبعث ابن عبدون كتاباً إلى عبدالله بن هارون الكوفي يقول فيه: صحّ عندي أن ابن عمر متوارٍ بتونس، فاطلبه وأوثقه، وابعث به إليّ. قال محمد بن عمر أخوه: فوجّه فيّ الكوفي، وعرض عليّ الكتاب، فقرأته، فاربدّ وجهي. فقال: لا يسوء ظنك، فلم أبعث فيك لمكروه، ولكن لأعجبك من ابن عبدون، يريد مني أن آتي إلى إمام من أئمة المسلمين، فأرسل به إليه ليمتهنه، إن كان أخوك بهذا البلد فهو آمن، هل هو إلا العزل؟!. انتهى.

تأمّل ما اشتمل عليه هذا الكوفيّ من الفضل، وما رجح لديه من العقل، وما هان عليه في جانب حفظ هذا الإمام من العزل، وكيف اربدّ وجه ابن عمر خيفة على أخيه، وخشية من عادية تؤذيه، فسكّن نفسه وقوّى قلبه، وأذهب شغفه، وجبر لهفه، وفي مثله قيل: جبر الملهوف ضرب من إحياء الموتى. وصدق القائل في ذلك.

السفر قطعة من العذاب

وإذا كان الابتلاء بما يُلقى في السفر والاغتراب من أحوال شديدة، ومشاق عظيمة، ومتاعب فادحة، ولواحق غائظة، حتى قيل: «**السفر قطعة من العذاب**»[1]. ففي رجاء الإياب، وتأميل الأحباب، وارتقاب زمن التداني، وانتظار لطف اللّه في تيسير التلاقي، ما يخفّ به الشوق، ويقل معه الوجد. ولا تستنكر مشقة الاغتراب، وفظاعة الخروج من الديار، فإن اللّه تعالى يقول: ﴿**ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم**﴾ [النساء: ٦٦] فقرن بين ثقل التكليف بين قتلهم للأنفس وخروجهم من الديار، لعلمه بتماثل ذلك لديهم. وقال: وقوله الحق، إنه لو كتبه عليهم ما فعله منهم إلا القليل. وقال تعالى: ﴿**وما لنا ألا نقاتل في سبيل اللّه وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾ [البقرة: ٢٤٦] فسوّى بين الإخراج من الديار والإخراج من الأبناء، ومعلوم بالعادة انقسامهم إلى أولي ديارٍ أو أبناءٍ أو ديار وأبناء؛ فقد استوى من له دار بمن له أبناء، وكلاهما في ثقل الخروج عليه الموجب عنده للتبرع بالقتال في سبيل اللّه، وفيه ذهاب الأنفس.

ومما يُعلم به موقع إلف الوطن من القلوب قول ميسون بنت بحدل حين أهديت إلى معاوية بن أبي سفيان، وسكنت في منازل الملوك، بعد أن نشأت في خيام الأعراب:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
وبكر يتبع الأظعان سقيا ... أحب إلي من بعل زفوف
وكلب ينبح الطوّاف عني ... أحب إلي من قِطٍّ أُلوف

---

(١) هو حديث شريف أخرجه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧) وغيرهما عن أبي هريرة.

ولبس عباءة وتقـرُّ عيني أحب إليّ من لبس الشفوف

وخِرق من بني عمّي نجيب أحب إليّ من عِـلجٍ غليف

ويشبه هذا المعنى قول جارية من العرب لبنات عمٍّ لها: السعيدة التي يتزوجها ابن عمٍّ لها، فيجهّزها بتيسين وكلبين وعنزين، والشقية التي يتزوجها الحضري، فيلبسها الحرير، ويطعمها الخمير، ويحملها ليلة الزفاف على عود كريم. انتهت.

وإذا كان هذا قول من وطنه على مثل المعلوم من أوطان العرب، في شدة العيش، ومقاساة التعب، فما الظن بغيرهم؟! وكأن حب الوطن جبلّي مطبوع عليه، واللّه أعلم. وقد يوجد في الاغتراب أُنس على ما يُلاقى في الاغتراب، من نزوع النفس إلى الأهل والوطن، إيثاراً لتحسين خفض العيش، والفوز من ذلك براحة النفس، وأعذر منه من ارتكب الاغتراب لالتماس الرتب الشريفة، واكتساب المنازل الرفيعة، وأعذر مرتكب الاغتراب لالتماس الفوائد أو لاقتناص الجاه، وما أشبهه من المقاصد، من ارتكبه من إهانة لحقته، أو مذلة طرقته.

وربما دعا الاغتراب إلى الحلول في مواطن يسوء المغترب حلولها، وإلى الإقامة في أماكن يُذهب أنسه طلولها.

وفي اغتراب يوسف الصدّيق من أبيه، وانفراده من أحبابه، ما يتأسى به من طوّح به الاغتراب، ونثر شمله الافتراق، ففي نبئه عبرة لأولي الألباب، وموعظة مما يقع من نُوبِ الدهر بين الأحباب، وإن في مآل أمره إلى الملك، ومجيء أبويه وإخوته من البدو، وما منحهم اللّه بعد الفرقة، من اجتماع الشمل، لمسلاة لمن ساءت غربته، وتضاعفت بسببها كربته، وإن في تصرفات

الأقدار، لعبرة لأولي الأبصار، وإلا فمن أين يشعر الناظر في مبدأ أمر الصديق ﷺ من فراقه لأبيه وتصيُّره لحكم الرقّ؟! إن ذلك هو السبب فيما منّ اللّه عليه من أنباء الملك، وتعليم تأويل الأحاديث. وما أبعد ما بين الابتداء والتمام!! والفاتحة والختام!!.

فإن كان الاغتراب بسبب قاهر ساءت منه الملكة، أو حادث خيف منه الهلكة، فقد قرن اللّه قتل الأنفس بالخروج من الديار، وذلك يشهد بعظم هذه الحالة وشدة هذا الابتلاء. والدعاء سلاح المؤمن.

وما أنسى لا أنس يوم استقبلنا مالقة في تلك الوجهة التي قضى اللّه فيها بالتمحيص المتضمن للخروج عن الوطن والفراق للأهل والولد، المتعين به فراغ الكفّ من المال وخلو المنزلة من الجاه، المظنون به الجلاء حتماً والابتلاء حقاً، وعزم على فرض السلامة على الاغتراب الأبعد، وانقسم القلب بين الخطبين: الواقع والمتوقع، والكربين: باعتبار النفس واعتبار من يعزّ عليها من الذرية. وكان من قدر اللّه تخلّف الأهل والولد، اضطراراً لا اختياراً، لطيّ ذلك عنّي، وكتمه مني من أرباب الدولة، لاعتقادهم أنّي من خاصّة السلطان الذين لا يغيب عنهم ما انطووا عليه من استصحاب أهلهم وولدهم، واعتقاد خاصة السلطان أني من أرباب الدولة الذين لا يغيب عنهم ما انطوى عليه من مثل ذلك، فخار اللّه لي في بقائي أمة وحدي فيما بعد ذلك. ولكني لم أر موقفاً أشجى لوعةً، ولا أعظم لي على من خلّفت روعة، من موقفي بطرف الفحص الأفيح المسمّى بالكنب جاغر ملتفتاً خلفي ومودعاً مع أصاغر الذرية قلبي، وقد استصحب غيري، أهله وولده، وإن كان قد فارق ماله وبلده، إلا من كان مثلي فإنه ذهب طائشاً لبّه، منتزعاً من بين جنبيه قلبه. ولن يقدِّر قدر ذلك إلا

من ابتلي بمثله، فأجمل اللّه صبره، وتولّى بكفايته أمره فلا تسأل كم من أراجيف نُقلت في التنقير عن قطع القلوب ومكنونات الخدور! ومن أقاويل اختلقت في استطالة الغوغاء على الديار المعلومة، والحاشية المعروفة، والذخيرة الموروثة، وقد كانت أيديهم عاثت في الجنات المغروسة، والكروم المعروشة، بما كان يصدق ذلك الإرجاف، ويجعل في حيز القبول تلك الأقاويل، وعند اللّه تجتمع الخصوم، وبين يديه ينتصف الظالم والمظلوم، عز وجهه، إلى أن طالت الإقامة زهاء شهر بمالقة، وترادفت تلك النوائب الطارقة، والحوادث الكارثة. وتكرّر المسموع بسلامة من تخلّف من أهل وولد من معرّة تلك الأراجيف الكاذبة، فظهر لي أن الخير والخيرة فيما قضى اللّه من ترك الأهل والولد، ثّم ظهراني أحبّتهم، و لم يفقدوا حملاً مس اللّه، وتسديداً من الوقت، ومواساة في قضاء المآرب واستكفاف النوائب، إلى أن منّ اللّه بذهاب تلك الشدة، وانجلاء تلك الغمرة. واشتد على من كان استصحب عياله الحال مع الأيام، وغبطوني فيما قضى اللّه لي من غير قصد مني، و لله الحمد على كل حال، ومنه نسأل أن يرزقنا الرضا بكل قضاء.

ولن يوجد لتخفيف أمثال هذا الابتلاء مثل التأسي. يُحكى أن يحيى بن يحيى لحِقتْه منحسه هيج الربض بقرطبة أيام أميرها الحكم بن هشام، فذكر أن يحيى خرج مع أخيه فتح، وكان رأساً في أهل الخلاف، متنكرين على باب اليهود بقرطبة يريدان الفرار،وقد أنذر الأمير أهل الأبواب أن يقتلوا كل من اجتاز عليهم ممن ينكرونه، فعدل أخو يحيى إلى كبير أولئك البوابين، لصدقة كانت بينه وبينه، وثق بها منه، ليودعه ويوصيه بما تخلفه، وقد نهاه يحيى عن ذلك، فلما دنا منه كشف له وجهه وطلب خلوته، فساعة وقعت عينه عليه

قبض عليه، وأمر بضرب عنقه ، ويحيى ينظر بناحية، فتزايد ذعره، وبالغ في نكر نفسه، ونزل بقومٍ من مصمودة قومه في طريقه، فراموا الفتك به لأخذ ما كان على بطنه من المال، فأنذرته ابنة أحدهم بذلك ، فلما اجتمعوا معه العِشاء ، قام كأنه يريد حاجة، وركب رمكة وجدها في الدارسائبة عُريا، فنجا عليها. فلما أبطأ عليهم،خرجوا فوجدوه قد فات، وسار إلى أن نجا. فلحق بطليطلة ورد رمكتهم،فتقبله أهلها وأجاروه.وكان مجيره المعروف بأبزي، وطالبهم الأمير الحكم بإسلامه إليه، فلم يفعلوا ، ومنعوه بعزة أنفسهم، فأتاه كتاب الأمير أ خيراً في الرجوع إلى وطنه ، ويبذل لهم الأمان، ويرد عليه متاعه وماله، وكان يحيى قد كتب إليه في ذلك ، فاستجاب له. وعاد إلى قرطبة أخريات أيام الحكم ،فلم يزل تحت كرامته بقية أيامه وأيام ولده.

ولولا أنَّ تمحيص الاغتراب عظيم، وخطبه كبير، لماعمرت الأوطان العديمة المرافق، والثغور الشديدة المخاوف، ولكن اللّه عمّر البلدان بحُبِّ الأوطان. قال ابن الزبير: ليس الناس بشيءٍ من أنسابهم أقنع منهم بأوطانهم. ولذلك عظم الاغتراب على من قُضِيَ به عليه، وسبب ذلك - واللّه أعلم - كون الإنسان حيواناً مدنياً، لايقدر على الإقامة وحده، ولاتقوم مصالحه على انفراده، والاغتراب نوع من الانفراد، لأنه يحصل بين ناس لايعرفهم، ويفتقر إلى قومٍ لا أُنْسَ لديهم، ولاموجب لديهم للعطف عليه. وكذلك مِنْ حيث من غاب عنهم من أهل، فإنهم قد فقدوا أُنْسَه، وعدموا المصلحة المُقْتَنَصة لهم منه، فيشتد عليه أسفهم، ويعظم بفرقته كَمَدُهُم. ولذلك قال ابنُ رشيق:ليس بين الغائب والميت إلا رجاء الأوبة.

وإذا كان الابتلاء بمثل المحبة، ومايقع من غير الموافق للإرادة من الأحبة، فهذا من الابتلاء الواقع كثيراً، الذي يتحمل منه المبتلى إصراً كبيراً، ووقوعه في الأغلب قريب من الاختيار، ثم إذا تعاظم أمره صار إلى باب الاضطرار، وللناس خلاف في وقوعه هل هو اختياري أو اضطراري، وليست بنا حاجةٌ لتحقيق ذلك، وإنما النظر هنا فيما يجب استعماله وأوجب الأمور هنا الكتم والعفاف. ثم ننظر فإن كان متعلق الهوى ممن يتأتى الوصول إليه، ويتمكن الاستيلاء عليه، إما بالزوجية أو الملكية، بشرط كَوْن المحل قابلاً للمناسب له منهما، بالخلوّ عن الموانع التي تعوق عن ذلك شرعاً. ومن أجل خيفة مثل هذه الحال، أو ما يقرب منها، ينبغي اللجأ إلى اللّه تعالى بالدعاء، والإخلاص إليه في الابتهال، وارتقاب الفرج من لدنه، فكم ممن عيل صبره وغلبه وجده واستبان عليه، مع المحافظة على الكتم، حبّه، يسّر اللّه له أسباب الوصال، وهيأ له ما يرجوه من مأمول الاتصال!! ويحكى أن عمّارة أخت الغريض كانت من أحسن الناس وجهاً وغِناء، أخذت الغناء عن أخيها وعن ابن سُريج وابن محرز، فاشتراها منه عبد اللّه بن جعفر من الثريا وأخواتها بمالٍ جليل، فوقعت منه أحسن موقع، وكان يجد بها ولها يقول بعض فتيان المدينة:

لو تمنيت ما اشتهيت لكانت غاية النفس في الهوى عمّارة
بأبي وجهك الجميل الذي يزد اد حسناً وبهجة ونضارة

ويروى عن بعض شيوخ المدينة قال: كان عبداللّه بن جعفر لا يكاد يصبر عنها، وإذا سافر حملها معه، فوفد على معاوية، فزاره يزيد ليلة، وسمر عنده، فأخرجها إليه. فلما نظر إليها، وسمع غناءها، وقعت في نفسه، وأخذه

عليها ما لم يملك وجعل لا يمنعه من أن يبوح بما يجد منها إلا خيفة أبيه مع اليأس من الظفر بها. فلم يزل يكتم أمرها في نفسه، إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من يختصّ به في أمرها، فقيل له: إن عبداللّه لا يُرام، ومنزلته من أبيك ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستجيز إكراهه، وهو لا يبيعها بشيءٍ أبداً، وليس في هذا إلا الحيلة. فقال: انظروا لي رجلاً ظريف اللسان له أدب ولطف. فأتوه برجل عراقي أديب عاقل ذي حيل، فلما استنطقه زاد بياناً وفهماً. فقال: إني دعوتك لأمرٍ إن ظفرت به فهو حظوتك آخر الدهر. ثم أخبره بأمره. فقال: يا أمير المؤمنين، ليس يُرام ما قبل ابن جعفر إلا بالحيلة والخديعة، وإن قدر أحدٌ على ذلك فأرجو أن أكونه، فأعنّي بالمال. فقال: خُذ ما أحببت. فأخذه واشترى من طُرف الشام وثياب مصر متاعاً للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك. ثم شخص إلى المدينة، فأناخ بعرصة عبداللّه بن جعفر، واكترى منزلاً قريباً منه، ثم توسّل إليه، وقال: أنا رجل من أهل العراق، قدمت بتجارة، فأحببت أن أكون في جوارك وكنفك إلى أن أبيع ما جئت به. فأمر قهرمانه بإكرامه وسعة النزول عليه. فلما اطمأن العراقي، وسلّم عليه أياماً، هيأ له بغلة فارهة، وثياباً من ثياب العراق، وطيباً من طيبها، وألطافها، فبعث بها إليه، وسأله بقرابته من رسول اللّه ﷺ أن يقبلها منه ولا يوحشه بردّها، فإنه ممن يدين إلى اللّه بحبه وحبّ أهل بيته، وإن أعظم أمله في سفره الرغبة في مواصلته والتحرّم به. فأمر عبداللّه بقبض هديته. فلما رجع من الصلاة مرّ بالعراقي في منزله، فقام إليه، وقبّل يده، وسلّم عليه، فرأى أدباً وفصاحة وأُعجب به. وجعل العراقي يجدد كل يوم طرائف وتُحفاً، فقال عبداللّه: لقد أضعفنا ضيفنا عن شكره ومكافأته. وجلس عبداللّه يوماً، ودعا بعمّارة، وجواريه، فلما التذّ مجلسه قال: ادعوا ضيفنا العراقي ليأنس بنا ونأنس

به. فلما دخل عليه تعشّى معه وسمع غناء عمّارة، فجعل يتعجب من حذقها، وذلك يسرُّ عبد اللّه، إلى أن قال له عبداللّه: أرأيت مثل عمّارة قط؟ قال: لا واللّه يا سيدي ما رأيت مثلها قط، ولا تصلح إلا لك، ولا ظننت أن في الدنيا مثلها. فقال: كم تساوي عندك؟ قال: يا سيدي أنا رجل سوقة تاجر، أجمع الدينار إلى الدينار، والدرهم إلى الدرهم، ولو وجدتها بعشرة آلاف درهم لأخذتها. قال له عبداللّه: عشرة آلاف درهم؟! قال: نعم. ولم يكن في ذلك الزمان جارية تُعرف بهذا الثمن. فقال له عبداللّه مازحاً: أنا أبيعكها بعشرة آلاف دينار. قال: قد قبلت. قال: هي لك. فانصرف العراقي، فلما أصبح، لم يشعر عبداللّه إلا بالمال قد وفد، فقيل لعبد اللّه: قد بعث العراقي بالمال. فردّه إليه، وقال: إنما كنت أمزح معك، أوما علمت أن مثلي لا يبيع مثلها بما على الأرض. فقال: جُعلت فداءك، إن الجدّ والهزل في البيع سواء، فإن تكن أنت مازحاً فإني جاد، وما علمت ما في نفسك، وقد ملكت الجارية، وبعثت إليك بثمنها، وليست تحلُّ لك. فدافعه عبداللّه، فقال العراقي: إن كنت تضطهدني في جوارك، وليست لي عليك بينة، فأنا أستحلفك بين منبر رسول اللّه ﷺ وقبره. فقال له عبداللّه: بئس الضيف أنت!! ما طرقنا طارق أعظم علينا بليّة منك، تحلّفني فيقول الناس قهر ضيفه، والجأه إلى ذلك؟ أما واللّه لتعلمنّ مني في هذا الصبر وحسن العزاء. ثم أمر قهرمانه بقبض المال وتجهيز الجارية بما يصلح لها من الثياب والطيب والخدم. فجهّزها بثلاثة آلاف دينار، وسلّمها إليه بما معها، وقال: هذا عوض ما ألطفتنا به، وإن كنت قد فجعتنا، واللّه المستعان. فقبض العراقي الجارية، وخرج من المدينة. وقال لها: يا عمّارة، إني لم أشترك لنفسي، ومثلي لا يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت أُقدم على ابن عمّ رسول اللّه ﷺ، فأسلبه أحبّ الناس إليه لنفسي، ولكنّي

دسيس لأمير المؤمنين يزيد، وأنت له، وفي طلبك بعثني، فاستتري ولا تُريني من وجهك لمحة. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقى الناس يحملون جنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية، فأقام الرجل أياماً ثم تلطّف في الدخول عليه، فشرح له القصة. فقال له معاوية: هي لك وكلُّ ما دُفع إليك وارحل من يومك فلا أعرف بك في شيء من الشام. فرحل العراقي حتى قدم المدينة، فنزل بفناء عبداللّه بن جعفر، فدخل عليه بعض خدمه فقالوا: هذا العراقي ضيفك الذي صنع بك ما صنع قد نزل ببابك لا أهلاً به. قال: أنزلوا الرحل. فلما نزل استأذن عليه، فأذن له. فلما دخل سلّم عليه وقبّل يده. فقرّبه عبداللّه ورحّب به. فقصّ العراقي عليه القصة إلى آخرها. وقال: هي هدية مني إليك، وواللّه ما رأيت لها وجهاً، ولا وضعت عليها يداً غير ما رأيت عندك. وبعث إليها، فجاءت بما معها فلما رأت عبداللّه خرّت على رجليه تقبّلهما. وأهوى إليها يضمّها إليه. وخرج العراقي. وتصايح أهل الدار: عمّارة! عمّارة!. فجعل عبداللّه يقول ودموعه تجري: ويْحكم أحُلم هذا؟! أحقٌّ هذا؟! ما أصدِّق هذا، اللهمّ إنك تعلم أنّي تصبّرت على فراقها، وآثرت الوفاء، وسلّمت لأمرك، فرددتها عليّ بمنّك، فلله الحمد كثيراً. فأقام عنده العراقي أيّاماً في غاية البرِّ والكرامة. ثم باع عبداللّه بن جعفر ضيعة بثلاثة عشر ألف دينار. فلما قبض المال أمر قهرمانه بحمله إلى العراقي، واعتذر إليه، وأعلمه أنّه لو وصله بكل ما يملك ما بلغ له مكافأة. ورحل العراقي إلى بلده موفوراً مشكوراً. انتهت.

فمثل ابن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب صنو علي أبي السبطين، وابن عمِّ المصطفى سيد الثقلين، في صدقه وصبره وسعة جوده وحلمه، جدير أن يجبر اللّه عليه ما ضاع له، وأن يسعد بكمال إرادته أمله. وانظر إلى ما وهبه اللّه من كظم الغيظ واحتمال الصبر، ورعاية الجار، وحفظ النزيل، كيف سلم في

أحب الناس إليه، وأعزهم عليه، دون أن يرضى لنفسه باليمين في مقطع الحق، خشية أن يتأوّل عليه أنه غرّه في جواره، أو يتمسّك بحقه الذي لم يكن فوته خيفة أن يعتقد الناس أنه قد ظلمه. وهذا غاية ما يكون من كرم الأخلاق وطهارة النفس.

وحكى يحيى بن خالد: كنت أهوى جاريتي دنانير وهي لمولاتها دهراً، لما وضع المهدي الرشيد في حجري اشتريتها، فلم أُسرّ بشيء من الدنيا سروري بها، فما لبثت إلا يسيراً حتى وجّه المهدي ابنه الرشيد غازياً إلى الروم، فخرجت معه، فعظم عليّ فراقها، وأقبلت لا يهنأني طعام ولا شراب صبابة بها وذكراً لها. فأوغلنا في بلاد الروم، وأصابنا بردٌ شديد وثلج كثير، فأنا ليلة في مضربي أتقلّب على فراشي تذكّراً لدنانير إذ سمعت نداءً خفيّاً وصوت عودٍ بالقرب مني، فأنكرت ذلك وجلست في فراشي، وسمعت صوتاً شجياً شجاني من غير أن أفهمه. فقمت و لم أوقظ أحداً، وقد غلب النوم أغلب العسكر، فتخلّلت المضارب حتى انتهيت إلى جهة صغيرة من خيم الجند، فإذا فيها سراج، فدنوت منه، فإذا فتىً جالس وبين يديه زُكره فيها شراب، وفي حُجره عود وهو يشرب ويغني:

ألا يا لقومي أطلقوا غلَّ مرتهن ... ومنّوا على مستشعر الهمّ والحزن

ألم ترها بيضاء روداً شبابها ... لطيفة طيّ البطن كالشادن الأغن

تذكر سلمى وهي نازحة بحنّ ... وهل تنفع الذكرى إذا اعتبر الوطن؟

وكلما غنّى غناء بكى وتناول قدحاً فصب فيه من ذلك الشراب وشرب، ثم يعود فيفعل مثل ذلك وأنا أراه يبكي فأبكي لبكائه. ثم سلّمت فردّ عليّ السلام، واستأذنت في الدخول فأذن، فلما دخلت أجلّني وأوسع لي.

فقلت: يا فتى! أخبرني بخبرك، وما سبب هذا البكاء؟ فقال لي: أنا فتىً من الأنبار، لي بنت عمّ، نشأنا صبيين، فعُلقتها وعُلّقتني، ثم بلغنا، فحُجبت عنّي، فسألت عمّي يزوجنيها، ومكثت حيناً أحتال مهرها، حتى تهيأ فأدّيته وعرّست بها، فلما كان يوم سابعها ضُرب عليّ البعث، فخرجت وبي من الصبابة والشوق لها ما الله به عليم، فإذا أصبت شراباً في بعض هذه القرى أخذت منه الشيء اليسير، ثم أفعل به ما ترى تذكاراً لها. فقلت: هل تعرفني؟ قال: لا. قلت: أنا يحيى بن خالد. فنهض قائماً فقلت: اجلس، ائتني غداً أوّل حركة الناس، فإني صائر من أمرك إلى ما تحب. ووافق ذلك رسولاً ينفذ إلى المهدي. فلما كان من غدٍ تهيأ الناس للرحيل، فأول من لقيني الفتى. فقلت: من أنت؟ وفي قيادة من أنت؟ فدخلت على الرشيد فحدّثته الخبر، وأمر له بعشرة آلاف درهم وأصحبه الرسول. انتهت.

وهذا أنموذج مما سبق لابن جعفر في جمع شمله بمن أحبّه، وإن لم يكن من قطع الرجاء فيه على مثل تلك الحالة، فإن هذا الرجل أتى الأمر من بابه، فإنه علق بنت عمّه وتطلبها على السبيل الذي شرع اللّه لعباده، من النكاح الذي أوضح النبي ﷺ سنته وبين شرعته، فجمع اللّه بها شمله، قرير العين ظافر اليدين، ثم طرقه هذا البين الذي أشجاه طارقه، والفراق الذي هاج شوقه لاحقه، فقيّض اللّه له من هذا الوزير البرمكي منطوياً على مثل أساه، عليماً بما كابده من الوجد وقاساه، فرقّ لجواه، وأشفق لنجواه، وإنها لمعدودة في مناقبه الغُرّ، وشاهدة على ما تخصص به من الطباع الحر، و لله من خلقه خلقاء بالفضل كالبرمكي وقومه.

وحدّث معبد الصغير الذي يقال له اليقطيني، مولى عليّ بن يقطين قال: كنت منقطعاً إلى البرامكة، أخدمهم وألزمهم، فبينا أنا ذات يوم بمنزلي إذا ببابي يدق، فخرج غلامي ثم رجع، فقال: على الباب فتىً ظاهر المروءة جميل الوجه، فاستأذن عليه. فأذنت له ، فدخل شاب ما رأيت أجمل وجهاً وأنظف ثوباً وأحسن زياً منه ، دنفٌ عليه أثر السقم ظاهر ، فقال : إني أحاول لقاءك منذ مدة ، ولي إليك حاجة. فقلت: ما هي؟ فأخرج لي ثلاثمائة دينار، ووضعها بين يدي، وقال: أحب أن تقبلها مني وتصنع لي لحناً في بيتين. قلت: نعم وكرامة، هات البيتين، فأنشدني:

والله يا طرفي الجاني على بدني ... لتطفئن بدمعي لوعة الحزن

ولأنوحن حتى تحجبوا سكني ... فلا نراه ولو أدرجت في كفني

فصنعت فيه لحناً شجياً يشبه النوح، ثم غنّيته إياه، فأغميَ عليه، حتى ظننت أنه قد مات. ثم أفاق، وكأنه أُنْشِر من قبر، ثم قال: أعِدْ فديتك. فناشدته الله في نفسه وقلت: أحشى والله أن تموت. فأبى، ثم قال: ليت ذلك كان، هيهات نفسي المشومة من ذلك، وأنا أشقى من أن أموت فأستريح، وما زال يخضع ويتضرع. ويبكى حتى رحمته، فأعدْتُ الصوت عليه، فصُعق صعقةً أشدّ من الأولى، ولم أشك أن نفسه قد فاضت، وبقي ملقىً لا يتنفس إلا تنفّساً خفيّاً، فما زلت أنضح ماء الورد على وجهه وأبخّر بين يديه، وأشمّه أصناف الطيب حتى فتح عينيه وأفاق، وبقي ساعة ملقىً، ثم تحامل فجلس، فحمدتُ اللّه على ذلك، ووضعت دنانيره بين يديه وقلت: خذ مالك وانصرف عني، قد قضيتُ حاجتك، وبلغت وطراً مما أردته، ولست أحب أن أشارك في دمك. فقال: يا هذا لا حاجة لي بالدنانير ولك عندي مثلها وأعِدْ

عليّ هذا الصوت مرة أخرى فقط وأنا أنصرف عنك وخلاك ذم. فشرهت إلى الدنانير، فقلت: لا والله ولا أضعافها إلا على ثلاث شرائط. فقال: وما هن؟ فقلت: أولاهنّ أن تقيم عندي وتأكل من الطعام ما تتقوّى به نفسُك. والثانية: أن تشرب أقداحاً تُمسك رمقك وتقوّى قلبك وتثبت ما تسمعه. والثالثة: أن تحدّثني بحديثك، فلعل ذلك ينفعك. قال: أفعل. فدعوت بالطعام فأصاب منه إصابة مُغْذِر، ثم دعوتُ بالشراب فشرب منه أقداحاً وأنا أغنيه من غرض الأغاني ما يحضرني، وهو يشرب ويبكي ثم قال: الشرطُ ـ أعزك الله ـ فلما رأيته قد خفّ ما به ورأيت النبيذ قد شدّ قلبه كررت الصوت عليه مراراً. ثم قلت: حدثني . قال: أجل أنا رجل من أهل المدينة خرجت متنزّها إلى العقيق ـ وقد سال ماؤه ـ في فتية من أقاربي وإخواني، فبصرنا بفتيات وقد خرجن لمثل ما خرجنا له، فجلسن حجرة، وبصرت بفتاة منهن كأنها غصن قد طلّه الندى تنظر بعينين ما ارتد طرفها إلا بنفس ملاحظها، فأطلنا وأطلن حتى تقوّض الناس، ثم تفرّقنا، وقد أبقيت بقلبي جُرحاً بطيئاً اندماله، فعدت إلى العقيق أتنسّم خبرها، وأطمع في لقائها، فإذا هو خالٍ ليس فيه أحد، و لم أر لها ولا لصواحبها أثراً. ثم جعلت أتتبعها في أسواق المدينة وطُرقاتها، فكأن الأرض طويت عليها. فمرضتُ أسفاً عليها وصبابة بها، وضنيت حتى يئس أهلي مني. فخلت بي ظئر لي استملت لي خبري وضمنت لي كتمانها والسعي فيما أحبه منها، فأخبرتها بالخبر، فقالت: لا بأس عليك هذه أيام الربيع ما انقضت بعد وهي سنة خصب وليس يبعد عليك المطر وسيمتد العقيق فتخرج حينئذ وأخرج معك، فإذا جاء النسوة ورأيت من تريد فعرِّفني حتى أتبعها ولا أفارقها وأقف على موضعها وأصل بينك وبينها وأسعى لك في تزويجها، فكأن نفسي اطمأنت إلى ذلك ووثقت به وسكنت إليه، وأصبت شيئاً من الطعام،

وتراجعت نفسي، و لم ألبث أن جاء المطر وسال العقيق وخرج الناس ينظرون، وخرجت فيهم مع إخواني وظئري، فجلسنا مجلسنا الأول بعينه، فما كنا والنسوة إلا كفرسي رهان، وأومأت إلى ظئري إيماء أعرفتها به، فجلسن قريباً منا، فقلت لظئري: قولي لهذه الجارية يقول لك هذا الفتى: واللّه لقد أحسن الذي يقول:

رمتني بسهم أقصد القلب وانثنت وقد غادرت جرحاً به وكلوماً

فمضت فقالت لها ذلك. فقالت: ارجعي فقولي: لعمري لقد أحسن القائل وأحسن من أجابه حيث يقول:

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجاً يُشفي السقام قريبا

فأمسكت عن الجواب خوفاً من أن يظهر ما يفضحنا جميعاً، وعرفت ما أرادت فقمت منصرفاً، وقامت بقيامي فتتبعتها ظئري حتى عرفت منزلها، وصارت إليّ، فأخذت بيدي، وصرنا إليه. وما زالت تتلطف حتى اجتمعنا بها على سبيل المراسلة والمجالسة، واتصل ذلك، حتى شاع حديثنا، وظهر ما بيننا، وحجبها أبوها عنّي، وتشدّد عليّ، فلم أزل مجتهداً في لقائها، فلم أقدر عليه، فشكوت حالي إلى أبي، وسألته أن يخطبها لي بجمع مشيخة أهلها، ومضى إلى أبيها راغباً إليه في المصاهرة، فقال: لو كان بدأ بذلك قبل أن يفضحها لأسعفته فيما التمس، ولكنه قد شهرها وعيّرها فما كنت لأحقق قول الناس فيها بتزويجها إيّاه. فانصرفت على يأسٍ منها ومن نفسي.

فسألته عن منزله، فعرّفني، فزرته وكثرت عنده وصارت بيننا عِشرة. ثم جلس جعفر بن يحيى وحضرت على رسمي فغنيّتُ جعفراً في شعر الفتى أول ما غنيّت، فطرب طرباً شديداً وشرب عليه أقداحاً وقال: ويلك ما هذا

الصوت؟ ومن أين هو لك؟ فقلت: صنعته منذ أيام وحديثه أظرف منه. فقال: ما هو؟ فحدّثته بحديث الفتى. وأمرني بالركوب إليه وأن أجعله على ثقةٍ من بلوغ ما يحب، فمضيت إليه وأحضرته، فاستعاده جعفر الحديث، فأعاده عليه، فقال: هي في ذمتي حتى أزوجك إياها. فطابت نفسه وأقام معنا. فلما أصبح جعفر ركب إلى الرشيد، فحدّثه الحديث، فاستظرفه، وأمر بإحضارنا جميعاً، فحضرنا، واستعاد الصوت فأعدته وشرب عليه، وسأل الفتى عن حديثه فأعاده عليه، فأمر بالكتب إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وأهله وولده مُبجّلاً مكرّماً إلى حضرته والإنفاق عليه نفقة واسعة سنيّة. فلم تمض مدة حتى حضروا، فأمر الرشيد بإيصال الرجل إليه، فأحضر وأمر بتزويج الجارية من الفتى، وأعطاه ألف دينار، فزوّج الفتى الجارية بحضرته، وانصرفنا، وأمر جعفر لكل واحدٍ منا بألف دينار، ونقلت إليه أهله. ولم يزل بعد ذلك في ندماء جعفر حتى حدث عليه ما حدث[1] فعاد بأهله إلى المدينة. انتهت.

وهذا من ذلك. وقد فاز هنا جعفر بن يحيى بأفضل مما وقع لأبيه في الحكاية السابقة لها. ولا تنتهي المواساة في الجاه والقيام بحمل الكَلّ والمعونة على نوائب الحق لأكثر من هذا. وما أفضل الرشيد ـ رحمه اللّه ـ وأوسع حلمه وأشرف خلقه! فقد اشتملت هذه الحكاية من كرم نفسه وسعة طوله واستباقه في ميدان الخلال البرة، واجتهاده في جمع المناقب الفذّة، على ما يندر مثله إلا من مثله، وتُعرب عن كمال سؤدده وسعة فضله. وكذلك اشتملت من فضل جعفر وزيره وزكاء طبعه وجلالة قدره على ما يشهد له بعلوّ المنزلة وسموّ المرتبة.

---

(١) يشير إلى نكبة البرامكة ومقتل جعفر بن يحيى سنة ١٨٧ هـ .

وكما يكون الفرج من ابتلاء الحب بالوصال، فقد يكون بغير ذلك من ألطاف اللّه سبحانه. كما يُحكى أنه رُوي عن بكير بن عبداللّه المزني أن قصّاباً ولع بجارية لبعض جيرانه، فأُرسلت إلى حاجة في قرية أخرى فتبعها، فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل، فإني أشدّ حباً لك منك إليّ، ولكن أخاف اللّه. قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟! فرجع تائباً، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه، فإذا هو برسول لبعض بني إسرائيل، فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش. فقال: ندعو حتى تظلّنا سحابة حتى ندخل القرية. قال: ما لي من عمل فأدعو. قال: فأنا أدعو فأمِّن أنت. فدعا الرسول وأمّن هو. فأظلّتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصّاب إلى مكانه ومالت السحابة معه، فقال له: زعمت أن ليس معك عمل وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمّنت فأظلّتنا سحابة ثم تبعتك؟! لتخبرني بأمرك. فأخبره. فقال الرسول: إنّ التائب من اللّه بمكان ليس أحد من الناس مكانه. انتهت. فهذان المتحابان ممن أطفأ اللّه نار محبة أحدهما لصاحبه بما ملأ به قلوبهما من شدّة خوفه، فأعقب ذلك ما أعقب من ولايته وحفظه.

ومما يشب ذلك ما حُكي عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شابٌّ متعبد ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يخلو منه، وكان حسن الوجه حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به، وطال ذلك عليهما. فلما كان ذات يوم وقفت له على طريق وهو يريد المسجد، فقالت له: يافتى اسمع منّي كلمةً أكلّمك بها ثم اعمل ماشئت. فمضى ولم يكلّمها. ثم وقفت له بعد ذلك على طريق وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى اسمع مني كلمات أكلّمك بهن. قال: فأطرق مليّاً وقال لها: هذا

موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً. فقالت: واللّه ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ اللّه أن يشرف العباد لمثل هذا مني، والذي حملني على أن أُلقي في هذا الأمر نفسي معرفتي أنّ القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العُبّاد في مثل هذا القرى يغيّركم أدنى شيء، وجملة ما أكلّمك به أن جوارحي مشغولة بك، فاللّه اللّه في أمري وأمرك. قال: فمضى الشاب إلى منزله فأراد أن يصلّي فلم يعقل كيف يصلّي، وأخذ قرطاساً وكتب كتاباً وخرج من منزله، فإذا المرأة واقفة في موضعها، فألقى إليها الكتاب ورجع إلى منزله. وكان في الكتاب: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. اعلمي أيتها المرأة أن اللّه تبارك وتعالى إذا عصى مسلم ستره، فإذا عاد العبد في المعصية ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب اللّه ﷻ لنفسه غضبة تضيق منها السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب. فمن ذا يطيق غضبه! فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكّرك يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم فإني واللّه قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف عن إصلاح غيري. وإن كان ما ذكرت حقاً فإنّي أدلُّك على طبيب يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة ذلك اللّه ربُّ العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فأنا متشاغل عنك بقوله ﷻ: ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع۝ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور۝ واللّه يقضي بالحق**﴾ [غافر: ١٨-٢٠] فأين المهرب من هذه الآية». ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت على طريقه، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها. فقالت له: يا فتى لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا إلاّ بين يدي اللّه ﷻ. وبكت بكاءً كثيراً شديداً، وقالت: أسأل اللّه الذي بيده مفاتيح قلبك أن يُسهِّل ما عسر من أمرك. ثم

تبعته فقالت: امنن عليّ بموعظة أحملها، وأوصني بوصية أعمل عليها. فقال لها الفتى: أوصيك بتقوى الله وحفظ نفسك واذكري قول الله ﷻ ﴿**وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ [الأنعام: ٦٠] قال: فأطرقت فبكت بكاءً شديداً أشد من بكائها الأول، ولزمت بيتها، وأخذت في العبادة، فلم تزل كذلك حتى ماتت كمداً فكان الفتى يذكرها بعد ذلك ويبكي رحمةً لها. انتهت.

فهذه المرأة، وإن لم تنل من محبوبها أملاً، فقد نالت به قصداً صالحاً وعملاً، فرزقها الله بسببه الإنابة، وسهّل عليها بموعظته العبادة، ولعلها في الآخرة يتحصّل قصدها ويجتمع بمن أحبّته شملها. ولا يبعد أن يكون هذا العابد قد أحبّها وأسكنها الله قلبه كما أسكنه قلبها، فمن قول أهل هذا الشأن أنه لا يمكن أن يحب أحد أحداً حباً صادقاً إلا ويحبه المحبوب كذلك، والقضايا المنقولة في ذلك. والله أعلم.

ويحكى أنه كان في بني إسرائيل راهب، فمرّت به امرأة جميلة عشية يوم، فنادته: أيها الراهب آوني هذه الليلة. فأجابها: إني مشغول عنك بنفسي. فقالت له: هذا الليل قد أقبل وإن ضعت كنت أنت المحاسب عليّ. فرغب في عصمتها، فآواها معه في الصومعة. ثم قام إلى صلاته. فلما فرغ منها قعد يذكر الله، فقامت وتجرّدت أمامه، وكانت من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم جسماً. فلما رآها قال: اتق الله أيتها المرأة. فقالت: دع عنك هذا وتمتّع بي الليلة. فقال لنفسه: ما تقولين؟ قالت: نعم إني لها محبّة. فقال لها: اصبري حتى أقرب النار الصغرى فإن صبرت لها فافعلي. ثم قام وأوقد سراجاً وجعل فيه مفتولاً عظيماً وقرب أصابعه حتى احترقت كلها. فلما بصرت به

الجارية صاحت صيحة وسقطت ميّتة، فغطّاها بثوبه، ثم قام إلى الصلاة، فصرخ إبليس اللعين في المدينة أنّ فلاناً زنى بفلانة وقتلها. فجاء الناس إليه فوجدوها ميّتة فصدقوا ذلك فأخرجوه وجعلوا في عنقه غلاًّ، وجاءوا به إلى الحاكم فأمر بقتله. فلما أرادوا قتله سمعوا صيحة عظيمة من السماء: لاتقتلوا وليّ اللّه فيصبّ عليكم البلاء صباً. فنظروا إلى أصابعه فوجدوها محترقة فسألوه عنها فاخبرهم بالقصة، فأقبلوا يقبلون يديه ورجليه. انتهت.

وهذا من أثر الصدق، وقد نُبّه عليه غير مرة، وقد تجاوز التمحيص هنا المعتاد في الحب الذي لا يظهر مقداره إلا بما كان من صبر هذا الراهب على النار إلى التمحيص المتوقع بالقتل القريب كان من الوقوع، فهي بذلك عريقة في الصورة قبلها، واللّه أعلم.

ومما خلا فيه الرجل عن الميل إلى من راودته من النساء البتّة ما حكاه الأستاذ أبو عبد اللّه محمد بن خلصون ـ رحمه اللّه ـ، قال: أخبرني من أثق به عن بعض الفضلاء القريبي العهد من زماننا ـ وكان أستاذاً يُقرئ الطلبة ـ فكان إذا جلس للإقراء تُشم منه رائحة المسك. فقيل له في ذلك فقال: إني كنت في أيام شبابي أقرأ على الأستاذ وكنت ألقى في طريقي امرأةً سوداء تسلّم عليّ غدوة وعشيّة، إلى أن قالت لي يوماً: أيها الفتى إن سيّدتي أتاها كتاب من بعض قرابتها فعسى أن تدخل معي إلى داخل الدويرة تقرؤه عليها وتكون وراء ستر تسمعك فإنها من أهل الصيانة. فقلت لها: نعم. ودخلت. فلما توسّطت الدار قعدت السوداء وخرجت لي جارية كأنها فلقة قمر. فقالت: ادخل. فخجلت وأردت الانصراف، فرجعت إلى الأبواب فوجدتها قد غُلّقت، ورمت يدها في أثوابي وقالت لي. كم لك تعذّبني واللّه لا زلت من يدي حتى

تفعل معي ما يفعل الرجل بأهله. فقلت لها: اتق اللّه أيتها المرأة. فقالت: دع عنك هذا وقم. فقلت لها: إني أريد الدخول إلى بيت الماء. فقالت: نعم. فقمت ودخلت إلى المرحاض وطليت رأسي بالعذرة وثيابي وخرجت فنظرت إليّ فنادت خادمها: أخرجي عني هذا الأحمق. ففتح لي الباب وخرجت إلى البحر فاغتسلت وغسلت ثيابي، وشكرت اللّه تعالى على العاقبة. فمن ذلك اليوم عوّضني اللّه بهذه الرائحة التي تُشمّ عليّ. انتهت.

وجدير أن يعوض من تلطّخ بالعذرة التي هي من أقبح الأشياء رائحة تحامياً أن يتلطّخ بمعصية اللّه من تلك الرائحة الخبيثة برائحة المسك حتى كان له الجزاء وفاقاً، وما مثل ذلك على اللّه بعزيز لمن حصلت منه في اجتناب محارم اللّه النية، وصدقت منه في الوفاء بذلك الوجهة.

الابتلاء: بقرب حلول المكروه

ومثلما يكون الابتلاء بفراق من تميل إليه النفس وتحبه فكذلك يكون الابتلاء بالاجتماع بمن تصدّ عنه وتكرهه، إذ لا تفاوت بين بعد المحبوب وقرب المكروه. وقد تختلف الأنظار في أيّ الابتلاءين أتعب وأشق إذا فرض التساوي بين القضيتين في شدة المحبة وشدة البُغضة، واليأس من لقاء المحبوب واليأس من مفارقة المكروه. وعكس ذلك كلّه. والحقّ التساوي لأنّ النفس هي المعذبة في كلتا الحالتين، وعذاب النفس عظيم في نفسه.

ومما وقفت عليه في هذا المعنى ما حكاه محمد بن إدريس الشافعي قال: كانت لأبي بكر بن اللباد امرأة سليطة تؤذيه بلسانها، فيحكى أنها قالت له يوماً: يا زانٍ. فقال: سلوها بمن زنيت. قالت: بالخادم. قال: سلوها لمن الخادم. فقالت: له. فقال له أصحابه: طلّقها ونحن نؤدي حقها. فقال: أخشى

إن طلّقتها أن يبتلى بها مسلم، ولعلّ اللّه دفع عنّي بإساءتها بلاءً عظيماً. وكان يقول: لكل مؤمن محنة وهي محنتي. انتهت.

ويظهر لي أن انحرافها الذي قال أصحاب ابن اللبّاد بسببه: طلّقها. إنما هو من الغيرة، ولعلها تعذر بذلك؛ ولذلك ـ واللّه أعلم ـ لم يجبهم إلى طلاقها، وإنما المعتبر في القضية شهادة ابن اللباد زوجها على فضله ودينه وما اشتمل عليه

من التسليم للّه والتفويض لأمره ورؤية دفاع اللّه عنه ما هو أعظم مما ابتلي به.

وإذا كان الابتلاء بمثل ارتجاج البحر واشتداد عاصف الريح، وذلك مظهر لعظمة اللّه عظيم، ومشهد لحصول الشهادة كبير، وفيه قيل: البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على عود. وقد قيل لبعض التجار: ما أعجب ما رأيت في البحر؟ قال: سلامتي منه.

حكى بعضهم: ركبت البحر إلى الأندلس مع ابن حبيب، فهال علينا البحر، فخشينا العطب، فرأيت ابن حبيب متعلقاً بحبال السفينة وهو يقول: اللهم إن كنت تعلم أني إنما أردت بما ابتغيت به وجهك وما عندك فخلّصنا برحمتك، وانفع ما أتيت به عبادك. فما كان إلا يسيراً حتى سكنت الحال ووصلنا سالمين. انتهت.

ولا بأس أن يُرتكب هنا من الأسباب ما يعتقد أهل المعرفة أنه صلاح، وأن عمله مرجو الفائدة بالعادة على وهن ذلك وضعفه، فإن الآلة المسماة بالصاري هي عند أرباب ذلك الشأن عدّة السفينة، وبه يتأتى سيرها، وفيه معقلها الذي يشبه من المدن القصبة، وفيه مصالح شتى لا تُحصى. وكثيراً ما

يلجأ أرباب السفن التي تخشى الغرق إلى قطعه ورميه في البحر، والطمع في الخلاص دونه، كالواقع في الأعضاء المتآكلة والأضراس الموجعة، وما أشبه ذلك. وأما طرح المتاع وإلقاء السلع وتخفيف الأثقال ورمي ما عدا الإنسان من الحيوان في البحر، فلا إشكال في ذلك، فتأمل هذه الأسباب ما أوهنها، وهذه الأعمال ما أضعفها، وهي حيلة من لم يجد حيلة. وفي قضية يونس عليه السلام من ذلك ما يقضى منه العجب. قال اللّه تعالى: ﴿**وإن يونس لمن المرسلين ۝ إذ أبق إلى الفلك المشحون۝ فساهم فكان من المدحضين ۝ فالتقمه الحوت وهو مليم۝ فلولا أنه كان من المسبحين۝ للبث في بطنه إلى يوم يبعثون۝**﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٤] فانظر فائدة التمسك بذكر اللّه وتسبيحه في مواطن الشدة كيف يفيد النجاة منها؛ فقد أخبر القرآن العزيز أنه لولا تسبيحه للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث. وقد أوضحت الآية الأخرى كيفية تسبيحه. وهي قوله تعالى: ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين۝ فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين۝**﴾ [الأنبياء ٨٧-٨٨] وقد ضمنت هذه الآية الكريمة النجاة للمؤمنين من الغم كما نجّى منها هذا النبي الكريم. وكذلك ورد في هذا الذكر الشريف أنه مما يُذهب اللّه به الغم عمن ابتلي به.

فإذن إنما أولى الأسباب بالاستعمال هو الدعاء الذي هو مخ العبادة(١) وفسر به قوله تعالى: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ [غافر: ٦٠].

ولكون الإنسان لا يملك في السفينة في البحر سبباً تركن إليه نفسه، ويطمئن إليه قلبه، امتنع بعض الحكماء من الركوب في سفينة، فقيل له في ذلك، فقال: لأني لأكره أن أركب ما لا أملك عنانه ولا أضبط زمامه.

وإذا كان الابتلاء بمثل السجن والأسر، وغلبة الرجال بالقوة والقهر، فإن هذا كله محل الصبر والتأسي، واللجأ إلى تلاوة القرآن، وخلاص الدعاء. وفي الحكايات عمّن ابتلي بهذا المعنى أنس تام، وتثبيت للمبتلين، وتنبيه لمن غفل عن الحق وذهل عن الصبر.

وقد ذُكر أنه قدم رجل من اليمن إلى العراق على الحجاج بن يوسف، وهو واليها، يشكو أخاه محمداً ـ وكان أمير اليمن ـ فصادف الحجاج على المنبر، فقام إليه، وذكر ظلامته، وشكاه إليه، فأمر بحبسه، فلما نزل عن المنبر ودخل دعا به وهو مغتاظ، فقال له: ما جرّأك أن ترفع على أخي؟ فقال له: أنا باللّه أوثق من أخيك بك. فعفا عنه، وأجازه وكتب إلى أخيه بإنصافه. انتهت. فاعتبروا يا أولي الأبصار كيف عطف اللّه قلب هذا الجبار على الرافع على أخيه، لما علم صدق قوله في تعلّقه باللّه تعالى.

---

(١) وفي الحديث الشريف الصحيح: «**الدعاء هو العبادة**» عن النعمان بن بشير أخرجه الترمذي (٣٣٧٢) وأبو داود (١٤٧٩)وابن ماجه (٣٨٢٨) وأحمد وغيرهم وأما حديث أنس مرفوعاً: «**الدعاء مخ العبادة**» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) وهو ضعيف فيه ابن لهيعة والوليد بن مسلم وهو مدلس وفيه عنعن.

وممن ابتلي بالاعتقال الشيخ أبو بكر بن اللباد على صلاحه ودينه وفضله، قال القاضي عياض: كان أصل محنته أنه صلّى على جنازة استؤذن لها، وقد حضر ابن أبي المنهال، القاضي حينئذ، لجنازة أخرى، وكلم عليها، فصلّى أبو بكر، وصلّى وراءه ابن أبي المنهال، ثمّ قُدِّمت الجنازة الأخرى، فصلّى عليها ابن أبي المنهال. فجلس أبو بكر بن اللباد، ومدّ رجليه، واستدبر القبلة، ولم يُصلِّ وراءه. فشق ذلك على ابن أبي المنهال، وأغرته به المشارقة، فوجه وراءه في جماعة منهم. فلما دخل قال له: اجلس ثمَّ. وعقد عليه محضراً بشهادة القوم بفتحه بابه وانتصابه للفتوى والسماع، بخلاف مذهب أمير المؤمنين، وأنه يلبس السواد، ويخطب في الأعياد. فقال له أبو بكر: لمن أدعو؟ قال: لبني أمية. قال: وبنو أمية يلبسون السواد؟ وأراد فضيحته على من حضر، ثمّ قال له: وأيضاً فإن الخطبة لا تكون بأقل من خمسين رجلاً، وداري لا تسع ذلك. ثم قال: ومتى كان هذا؟ بعد صلاة الجنازة أو قبلها؟ فقال له ابن أبي المنهال: وأي حجة لك في هذا؟ فقال: إن كان قبل الصلاة عليها فقد غششت أمير المؤمنين؛ إذ كتمت هذا عنه، وإن كان بعدها فأنت خصمي ولا يُقبل قولك. فأمر ابن أبي المنهال بسجنه. فجاء الغلام فأخذ بيده، فانتهره وقال له: دع، أشهدكم أني محبوس. ومضى إلى السجن، فوجد فيه المزواديّ وكان سجن على سبّ النبي ﷺ. فلما دخل الشيخ تلقّاه فأعرض عنه، فقال المزاودي: واللّه إني لأبغضك قديماً. فقال أبو بكر: الحمد للّه يا فاسق الذي لم يجعل في قلبك بغض النبي ﷺ وحبي. فأقام مسجوناً حتى ذهب محمد ابن أخيه إلى المهدية، فأخبر بذلك البغدادي، وكان يحبه، فسعى له عند عبيد اللّه حتى أمره أن يكتب لابن أبي المنهال بإخراجه من السجن، على أن لا يُفتي ولا يجتمع إليه أحد، ولا يفتي إلا بمذهب السلطان. وكتب في رقعة داخل الكتاب:

ما هذا الذي فعلت؟! عمدت إلى عمدة بلدة فأحدثت فيه هذه الأحدوثة، وأثرت البلد، وهذا مما كرهه أمير المؤمنين، فلا تعُدْ إلى مثل هذا. فلما وصل إليه كتابه أخرجه وشرط عليه ألا يخشِّن عليه الجواب. فلما جاءه رفع مجلسه وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين يحدّ فيه ألا تفتي ولا يجتمع إليك أحد، وإن مرضت فلا تعاد. فقال أبو بكر: هذه منزلة لم تنزل بعد ثم خرج إلى المهدية، فقصد البغدادي فذكر وصوله لعبيد اللّه، فقال له: اكتب له كل ما يحب ولا تدخله عليّ. فكتب له سجلاً ألا ينظر في أمره ابن أبي المنهال. فأراد أن يأخذه. فقال له البغدادي: ليس مثلك من يحمل عنايته بيده، تصل إلى بلدك ويصل مع البريد إليك فينفذ ذلك. وبقي أبو بكر لا يُسمع إلا في خفية، فلزم داره وأغلق بابه، وكان ربّما خرج إلى المسجد فتأتي الطلبة إلى بابه، فتفتح له خادمه، فإذا اجتمعوا أتته، فيدخل ويغلق عليهم الباب، فيقرأون. وكان منهم أبو محمد بن التبان وابن أبي زيد وغيرهم. وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتل بأعراقهم حين يأتون إليه، فأقاموا على ذلك إلى أن توفي رحمه اللّه. انتهت. وفيها تذكر بما تلقّى العلماء الأعلام من أذايات في ذات اللّه، نفعهم اللّه بنيّاتهم الزكية وكتبها لهم. وقد كان بكر بن المعتمر ممن ابتلي بالاعتقال الشديد، وكتب إلى أبي العتاهية يشكو له ضيق القيد وغمّ الحبس، فكتب إليه أبو العتاهية:

هي الأيام والعبر ... وأمر اللّه يُنتظرُ
أتيأس أن ترى فرجاً ... فأين اللّه والقدرُ؟!

ففي هذين البيتين تسلية عظيمة لمن ابتلي بالسجن أو بغيره من الخطوب، وفي التحقيق بمعناه تفريج عظيم من الكروب.

وذكر أن المتوكل جعفر بن المعتصم كان ذات ليلة بباب من أبواب بغداد يقال له باب خراسان، فوقع في حُجره سهم بأربع رياش، وبين كل ريشتين كتاب، فأخذه وقرأه، فإذا في الرياش الأول مكتوباً:

أتطمع في الحياة إلى التنادي ... وتحسب أن مالك من معاد؟!
ستسأل عن ذنوبك والخطايا ... وتُسأل بعد ذاك عن العباد

وفي الرياش الثاني:

هي المقادير تجري في أعنتها ... فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تُريك خميص البطن ترفعه ... دون السماء ويوماً تخفض العالي

وفي الرياش الثالث:

يا راقد الليل مسروراً بلذّته ... ألهتك نُعمى كما يلهى بها البصر
وساعدتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وفي الرياش الرابع: همذان. فراعه مارأى من السهم، ورجع إلى قصره، فأرسل إلى الولاة والقضاة والحكام وكل من عرف عنده فضل رأي. فحضروا وأخبرهم بالقصة وعرض السهم عليهم وشاورهم في أمره. فأجمعوا أن ينظروا في حبوسه فلعل فيها رجلاً من همذان حُبس ظلماً فيخرجه. فوجّه غلاماً له أديباً، وأخذ شمعة عظيمة، وأمر بتفتيش الحبوس، فمن وجد فيها من همذان أتاه به. فتوجّه إلى الحبوس ففتشها فلم يجد فيها شيئاً، فذهب لينصرف فقيل له: بناحية المدينة حبس عظيم. فتوجّه إليه ففتّشه. فلم يجد فيها شيئاً. فلما همّ بالخروج سمع جلبة عظيمة في ناحية من الحبس، فأقبل نحوها، فإذا برجل قائم يصلّي قد صُبّر بالحديد من قرنه إلى قدمه، وكلما ركع وسجد سُمع للحديد صلصلة عظيمة. فقال له: خفّف صلاتك أيها الرجل. فخفف. فلمّا سلّم قال:

ممن الرجل؟ قال: من بني فلان. قال: لست أسألك عن هذا. من أيّ بلدة أنت؟ قال: من خراسان. قال: من أيها؟ قال: من همذان. فأمر به فاحتمل حتى وُضع بين يدي المتوكل. فسلّم بالخلافة، فردّ عليه وقال: ممن الرجل؟ قال: من همذان. قال له: ما ألقاك في حبسنا؟ قال: أصلح اللّه أمير المؤمنين، ولي بلدنا فلان وكان ظلوماً غشوماً متعسّفاً عليّ بسبب ضيعة كانت لي رام أن أبيعها منه فأبيت عليه، فكتب فيّ بما لا أعلم، وصبّرني في هذا الحديد، وبعث بي إلى حبسك هذا لي فيه اثنتا عشرة سنة. فعجب المتوكل وقال له: اذهب أيها الرجل فقد حكّمتك في صاحبك، وقد استعملتك على بلدك، وقد أمرت لك بمائة، وقد رددت عليك ضيعتك. فقال: أصلح اللّه أمير المؤمنين، أما صاحبي فقد عفوت عنه، وأما العمل فلست أصلح له، وأما المال فلا حاجة لي به، وأما ضيعتي فقد قبلتها. فما بقي أحد في ذلك المجلس إلا شكر الرجل لما كان منه. انتهى.

وهذا من أرسخ ما يكون في باب الفرج بعد الشدة المتطاولة، البارز في قالب احتيالات الأذكياء. وأياً ما كان فقد حصل الفرج لهذا المعتقل البريء الساحة في ظاهر الأمر من الجناية التي توجب له مثل ذلك. واللّه أعلم بالباطن الذي هو دائر بين خفي من الذنوب عوقب بهذا السجن الطويل من جزاء أو مثوبة لم يكن يبلغها عمله الاختياري، أتحفه اللّه بالمنزلة المثاب عليها من جنته، فـ ﴿**إن اللّه لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٠]. جعل اللّه أجورنا تحت العافية وتولاّنا في الدين والدنيا بألطافه الخافية.

وأظهر من ذلك ما ذكره أبو محمد عبدالله بن حمدون النديم قال: كان أمير المؤمنين المعتمد على الله مع سماحة أخلاقه وجوده شديد العربدة على الندماء، لا يكاد يسلم له مجلس إلا في الأقل، فاشتهى يوماً أن يشرب مصطبحاً على الأُترج، فجمع منه شيء كثير مفرط العدد وعُبئ أمامه، واصطبح، فما ترك شيئاً من الخلع والصلات والحملان إلا حمله مع الجلساء، وخصّني منها بأوفر نصيب. وكان كثير الشرب، وكانت علامته إذا أراد أن ينصرف الجلساء أن ينهض إلى سرير لطيف كان إذا جلس استند إليه وأشال برجليه عليه كأنه يريد أن يصعده، فنقوم. فإن كان يريد النوم نام، وإن لم يرد النوم رد رجليه إذا قمنا وتمم شربه مع الحرم والخدم. فلما كان في ذلك اليوم جلسنا بحضرته نهارنا أجمع وقطعة من الليل، ثم التفت إلى السرير، وأشال برجليه عليه كما كان يصنع، فقمنا، وانصرف الجلساء إلى حُجرة مرسومة لهم، وانصرفت إلى حجرة مرسومة لي من بينهم. فلما انتصف الليل إذا بالخدم يدقون باب حجرتي، فانتبهت مرعوباً. فقالوا: أجب أمير المؤمنين. فقلت: إن للّه وإنا إليه راجعون، مضى يومنا وليلتنا أحسن مضيّ، وقدّرت أني أفلتُّ من عربدته، وأنه عنّ لي أن يعربد عليّ، فاستدعاني لذلك. ولم أزل أفكر كيف أعمل وبم أشاغله عن العربدة، إلى أن صرتُ لحضرته. فلما رآني قائماً لم يستجلسني وقال: يا غلام عليّ بصاحب الشرطة الساعة. فمتُّ جزعاً، وقلت: لم تجر عادته في العربدة باستدعاء صاحب الشرطة، وما هذا إلا بليّة قد احتيل بها عليّ عنده. وأقبلت أنظر إليه وأجتهد أن يفاتحني بكلمة فأداريه في الجواب، وهو لا يرفع رأسه من الأرض إلى أن جاء صاحب الشرطة، فرفع رأسه إليه، وقال: في حبسك رجل يُعرف بفلان بن فلان الحمّال. قال: نعم. قال: احضروه الساعة. فمضى ليحضره، فسهل عليّ الأمر قليلاً، ووقفت لا يخاطبني

إلى أن أحضروا الرجل. فلما رآه المعتمد قال له: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان الحمّال. قال: وما قصتك؟ قال: أنا رجل مظلوم محبوس منذ كذا وكذا، وذلك أني رجل من أهل الجبل لي جمال أعيش من ظهورها وكان يتقلدنا فلان الأمير، فاستدعاني من الحضرة فأخذ جمالي غصباً يستعين بها على حمل سواده، فصحتُ وتظلّمتُ إليه، فلم ينصفني، وقال: إذا صرنا بالحضرة رددت جمالك. فخرجت معه لئلا تذهب الجمال أصلاً، فكنت مع جمالي أخدمها في الطريق. فلما قربنا من حلوان استل الأكراد منها جملاً محملاً، فقال: الأكراد إنما جاءوا عن مواطأة منك. ثم أمر بي فضُربت ضرباً عظيماً، وقُيّدتُ وطُرحت على بعض جمالي. فلما وردنا الحضرة أنفذني إلى الحبس، وتملّك الجمال، ولم يكن لي متكلم ولا متظلم ولا مذكر. فطالت بي المحنة إلى الآن. فقال لبعض الخدم: انهض الساعة إلى فلان - يعني الأمير - واقعد على دماغه ولا تبرح حتى يرد على هذا جماله أو قيمتها على ما يدّعي الجمّال، فإذا فعل ذلك فاحمله إلى الخزانة واكسه كسوة حسنة وادفع إليه كذا وكذا ديناراً واصرفه إلى شأنه. ثم قال لصاحب الشرطة: في حبسك رجل يقال له فلان بن فلان الحداد. قال: نعم. قال: عليّ به الساعة. فأحضروه، فقال له: من أنت؟ وما قصتك؟ قال: أنا رجل من أهل الشام كانت لي نعمة فزالت عني ففررت من بلدي، واتّصلت محنتي إلى أن وافيت الحضرة طالباً للتصرف، فتعذّر ذلك عليّ حتى كدت أتلف جوعاً، فسألت عن عمل أعمله ليلاً لأتوفر نهاري على طلب التصرف وأنفق مما أكسبه منه، فأُرشدت إلى حداد يعمل بالليل، فقصدته، فاستأجرني بدرهم كل ليلة، وكان يعمل هو وغلامه يضربان بالمطرقة، فلبثت معه ليالي على هذه الصفة، فأفسد ذلك الغلام ليلةً على الحداد نعلاً كان يطرقه، فرماه بالنعل، فوقعت على قلبه فمات في الحال، فهرب

الحداد، وأحس الحارس بما رابه من الدكان، فهجم عليه، فوجد الغلام ميتاً، ووجدني، فلم يشك أني قتلته، فقبض عليّ ورفعني إلى صاحب الشرطة. فقال لصاحب الشرطة: خلِّ عنه. وقال لخادم آخر: خذه فغيِّر حاله واكسه وادفع إليه كذا وكذا ديناراً. وقال لصاحب الشرطة: انصرف. ثم رفع رأسه إليّ وقال: يا ابن حمدون الحمد للّه الذي وفّقني لهذا الفعل وفرّج عني. فقلت: كيف تكلّف أمير المؤمنين النظر بنفسه في هذا في مثل هذا الوقت؟ فقال لي: ويحك إني رأيت الساعة في منامي رجلاً يقول لي: في حبسك رجلان مظلومان يقال لأحدهما فلان بن فلان الحمّال وللآخر فلان بن فلان الحداد فأطلقهما الساعة وأنصفهما وأحسن إليهما. فانتبهت مرعوباً ثم عدت إلى النوم، فما استثقلت حتى رأيت الشخص بعينه فقال: ويحك أمرتك ان تطلق رجلين مظلومين في حبسك قد طال مكثهما فيه وأن تنصفهما وتحسن إليهما فلم تفعل فهممت أن أؤذيك. وكأنه يمدّ يده إليّ فقلت: يا هذا ومن أنت؟ فقال: أنا محمد رسول اللّه فكأني قبّلت يده وقلت: يا رسول اللّه، ما عرفتك، ولو عرفتك ما جسرت على تأخير أمرك. فقال: قم واعمل في أمرهما الساعة ما أمرتك به. فقمت واستدعيتك لتشاهد ما جرى. فقلت: هذه عناية من رسول اللّه ﷺ يا أمير المؤمنين واهتمام عظيم لا يصلح دينه وملكه، ومنّة عظيمة للّه تعالى ولرسوله، فليعرف أمير المؤمنين قدر هذه النعمة ويقابلها بالشكر للّه تعالى والصدقة. فقال: امض. فقد أزعجتك. فمضيت إلى حجرتي. فلما كان من الغد دخلت عليه عشاءً، وهو جالس للشرب على العادة، فأحببت أن أُعرِّف الجلساء ما جرى البارحة ليُسرّ هو به، وكنت أعرف من طبعه أنه يحب الإطراء والمدح ونشر ما هذه سبيله، وأنه إذا عمل عملاً أحب ذكره وتبجّح به وإن كان صغيراً، فقلت: أرى أمير المؤمنين ليس

يُخبر خدمه بما كان من المعجزة البارحة وعناية رسول اللّه ﷺ وعلى آله بخلافة أمير المؤمنين. فقال: وما ذاك؟ قلت: إحضار أمير المؤمنين البارحة إياي والحداد والحمال وصاحب الشرطة. ورؤياه النبي ﷺ، وما أمر به فيهما، وما تقدّم به إليه من إطلاقهما وإنصافهما والإحسان إليهما. فقال: واللّه ما أذكر شيئاً من ذلك، وما كنت إلا سكراناً طول ليلتي نائماً وما انتبهت. فقلت: بلى يا سيدي. فتنكّر وقال: قد صرت يا ابن حمدون تغالطني وتخادعني بالكذب. فقلت: أعيذ باللّه أمير المؤمنين من هذا، والذي قلت أمرٌ مشهور في الدار وعند الخدم والخاصّة. فقال: من كان حاضراً؟ فقلت: فلان الخادم وفلان وفلان وصاحب الشرطة. وقصصت القصة من أولها إلى آخرها. فاستدعى الخدم فحدّثوه بمثل حديثي. فأظهر عجباً، وحلف باللّه تعالى والبراءة من رسوله أنه لا يعرف شيئاً من ذلك كله، ولا يذكر إلا أنه كان نائماً، وما انتبه ولا جلس ولا استدعى صاحب الشرطة ولا أمر بأمر. فما رأيت أعجب من المنام والحال ولا أطرف من الاتفاق في نسيانه ذلك. انتهت.

وهذه القصة للمعتمد دالة على خير، وشاهدة بأنه رأى النبي ﷺ في نومه حقاً، بدليل قوله: **«من رآني في النوم فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي»**[(١)]. وما وقع من صدق الرؤيا ودفع الظلم لهما أوضح برهان على أنها صحيحة، فإن الشيطان لا يأمر بمثل ذلك الفعل، ولا يرشد لرفع ذلك الظلم، واللّه أعلم.

---

(١) مسلم (٢٢٦٨) وابن ماجه (٣٩٠٢) وأحمد ٣٧٥/١ عن جابر ﷺ.

وحدّث أبو بكر الرازي قال: كنت بأصبهان عند الشيخ إبراهيم أكتب عنه الحديث، وكان هناك شيخ آخر يُعرف بأبي بكر بن عليّ، وكان عليه مدار الفتيا فحسده بعض أهل البلد ولغاه عند السلطان، فأمر بسجنه وكان ذلك في شهر رمضان. قال أبو بكر: فرأيت النبي ﷺ في المنام وجبريل عليه السلام عن يمينه يحرّك شفتيه لا يفتر من التسبيح، فقال لي النبي ﷺ: «قل لأبي بكر بن علي يدعو بدعاء الكرب الذي في صحيح البخاري[1] حتى يفرج اللّه عنه». قال: فأصبحت إليه وأخبرته بالرؤيا. فدعا به، فما بقي إلا قليلاً حتى خرج من السجن. انتهت.

وإن في قصة يوسف أيضاً لنبأً عجباً يقتضي التسلّي ويستدعي التأسّي، وقد قال اللّه تعالى: ﴿**فلبث في السجن بضع سنين**﴾ [يوسف: ٤٢] ثم جمع اللّه بعد ذلك شمله وجدّد بأبيه وإخوته أُنسه ووجّه بقميصه البشير وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ورأى تأويل رؤياه من قبل، قد جعلها ربُّه حقاً إنه كان عليماً خبيراً.

والشيء يذكّر بالشيء، وذلك أنه كان من قدر اللّه التمحيص الجاري على أبي ـ رحمه اللّه ـ في عام أربعة عشر وثمانمائة بالاعتقال المطاول الأمد، الذي يقول في أثنائه بعد مُدَّة منه من أبيات:

أودعوني تحت الثرى ونسوني   فمقامي فيه مقام طويل
أنا حيٌّ وحالتي حال ميت   ليت شعري هل للخروج سبيل

---

(١) هو حديث ابن عباس رضي اللّه عنهما أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا اللّه العليم الحليم، لا إله إلا اللّه ربّ العرش العظيم، لا إله إلا اللّه رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم**» أخرجه البخاري (٧٤٢٦) ومسلم (٢٧٣٠) وغيرهما.

راحـــة النفس زورة من خليل   أو كتـــاب وأين أين الخـــليل؟!
إن أرتني الأيام غـــير جمـــيل   وأحـــالت حـــالي فصبر جميل
أو دهتني الخطوب فاللّه حسبي   من جميع الـورى ونعم الوكيل

وكنت إذ ذاك في زمـن الحداثـة وعـدم استحكام العقـل، وكـثر جنس المشير بأمور يزعمون نُجحها، ويُسندون للتجربة حُكمها، فكتبت لـه بذلـك مستشيراً فيه، فأجابني ـ رحمه اللّه ـ بما القصد منه: قد استوفيت ما ذكـرت لي البارحة، ومرادي في أن لا يُلتفت لشيء من تلك الأمور، فهي من قبيل واحد، ولست ـ والمنة للّه ـ في شيء مما يحتاج له ذلك، وأنا ـ ولطف اللّـه متعـرف في كل حال ـ في ثقافٍ مقضيٍّ عليّ لأمدٍ محدود وأجل معـدود، لـو اجتمـع أهـل الأرض أن يزيدوا فيه ساعة واحدة أو ينقصوا من مدته لحظة زائدة لم يقـدروا، وأنا موقن بذلك، محتسب صابر، حتى يحكم اللّه، وهو خير الحـاكمين، وأنتـم أهلي وولدي، فينبغي لكم أن تكونوا على ديني، وأن تثقوا باللّـه وحـده حتـى يَمُنّ اللّه بفرج من عنده إذا شاء، وواللّه يا ولـدي مـا أسيت علـى شـيء مـن الدنيا ولا باليت بما أنا فيه من البأسـاء والضـراء، مـنّ اللّـه بعفـو، ولطـف اللّـه الخفي متعرّف، وصنعه الجميل متعوّد، وأنا مستبشر رؤيا رأيتها عسـى اللّـه أن يجعلها صادقة فأتلو بأثرها: ﴿ **هذا تأويل رؤياي من قـبل قـد جعـلها ربـي حقاً وقد أحسن بي**﴾ [يوسف: ١٠٠].

من الابتلاء مالا سبب له ظاهر وفيه اللطف الخفي

وقد يرد من التمحيـص مـا لم يوجبه سـبب ظـاهر، فيصحـب فيـه مـن اللطف الخفي والصنع الجميل الخفي، كما يحكـى عـن بعـض الـرواة أنـه قـال: كان في أيام سليمان بن عبدالملك رجل يقال له خزيمة بـن بشـر مـن بـني أسـد

بالرقة، وكان له مروءة ونعمة وإجمال بالإخوان، فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يفضل عليهم فواسوه أياماً ثم ملّوه، فلما رأى تغيّرهم عليه أتى زوجته - وكانت ابنة عمّه - فقال لها: يا ابنة عمي، قد رأيت من إخواني تغيّراً غمّني، فعزمت على لزوم بيتي حتى يأتي عليّ أجلي. فأغلق بابه وأقام يقوتهم مما عنده حتى يقدر، وكان عكرمة بن الفياض الربعي والياً على الجزيرة، فبينما هو ذات يوم في بعض أحاديثه إذ جرى ذكر خزيمة، وكان عنده عدّة من وجوه البلد، فقال: ما حاله؟ فقالوا: صار من سوء الحال إلى شيء لا يوصف فغلق بابه ولزم منزله. فقال: وما وجد له مواس ولا مكافىء؟ قالوا: لا، فأمسك على ما في نفسه. فلما كان في الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجمعها في كيس، ثم أمر بإسراج دابته سرّاً من أهله وولده، فركبها ومعه غلام من غلمانه قد حمّله الكيس، ثم خرج حتى وقف بباب خزيمة، وأخذ الكيس من الغلام، وأمره فتنحّى عنه، وقرع الباب، فخرج إليه خزيمة بعد هدأة من الليل، فقال له: من أنت؟ فناوله الكيس، وقال له: أصلح بهذا حالك. فرأى كيساً ثقيلاً، فوضعه بين يديه. ثم تناول عنان دابته. فقال له: من أنت جُعلت فداءك؟ فقال له: ما جئت في هذه الساعة وأنا أريد أن تعرفني. قال: ما أقبله أو تعرّفني من أنت. قال: أنا جابر عثرات الكرام. قال: زدني. قال: لا. ثم مضى، فدخل خزيمة إلى امرأته فقال لها: أبشري فقد أتانا اللّه برزق، وإن كان فلوساً فهي كثيرة، فأسرجي. قالت: لا سبيل إلى السراج. فبات يلمّها وهو يجد خشونة الدنانير ولا يصدق للكثرة. ورجع عكرمة إلى منزلة فوجد امرأته بنت عمّه وكان لها منه منزلة وموضع، وقد انتبهت، فسألت عنه، فخبرت بركوبه منفرداً، فشقّت جيبها ولطمت وجهها. فلما نظر إليها غمّه ما رأى منها وقال لها: ما لك يا بنت عمي؟ قالت: يا

عكرمة غدرت بابنة عمك. قال: ما فعلت. قالت: أمير الجزيرة ويخرج بعد هدأة من الليل منفرداً من غلمانه! ما خرجت إلا لزوجة أو سرية. قال: ما خرجت لواحدة منهما. قالت: فخبرني فيم خرجت له واحلف لي عليه بطلاقي. قال: أنا أحلف لك بما ذكرت أني ما خرجت إلى ما طلّقت. قالت: لا بد أن تُعلمني الذي خرجت له. قال: يا هذه ما خرجت في هذا الوقت وأنا أريد أن أُعلم أحداً ما خرجت إليه. قالت: لا بد. قال: فاكتميه؟ قالت: أفعل. فأخبرها بالقصة على وجهها، وما كان من قوله وردّه عليه. ثم قال: أتحبين أن أحلف عليه؟ قالت: لا، فإن قلبي قد سكن إلى ما ذكرت.

فأصبح خزيمة فصالح الغرماء، وأصلح من حاله، وتجهز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين. فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه، وكان مشهور (المروءة) وكان سليمان به خبيراً، فأذن له. فلما سلم عليه قال سليمان: يا خزيمة ما أبطأ بك عنا ؟ قال: سوء الحال. قال: ما منعك من النهوض إلينا ؟ قال ضعفي عنها. قال: فبم نهضت؟ قال: يا أمير المؤمنين! كنت بعد هدأة من الليل إلا ورجل قد وقف بي، فكان منه كذا وكذا. وأخبره الخبر من أوله إلى آخره. فقال له سليمان: هل تعرفه؟ قال: ما عرفته يا أمير المؤمنين، وذلك أنه كان متنكراً. قال فتلهف سليمان على عدم معرفته وقال: لو عرفناه لأعناه على مروءته ولحقه منا ما هو أهله. قال: عليّ (بقناة) فأتي بها فعقد له على الجزيرة على عهد عكرمة. فبلغ ذلك عكرمة فقال: بارك اللّه له. فلما دنا خرج عكرمة للقائه، فلما سلم عليه صار إلى مركبه، ومضى خزيمة حتى دخل دار الإمارة، ثم أمر أن يؤخذ به كفيل وأمر بمحاسبته، فوجد عليه فضولاً كثيرة، فبعث اليه في أدائها، فقال: ما لي إلى شيء منها سبيل (قال: لابد منها) قال: ما هي عندي، واصنع ما أنت

صانع. فأمر أن يكبل بالحديد. فأقام كذلك شهراً أو أكثر، فأضرَّ به ذلك، وبلغ امرأة عكرمة الخبر أن الوالي هو خزيمة بن بشر، فضاق لذلك صدرها، وقدمت مولاة لها عقل، وقالت لها: إيت باب هذا الأمير فقولي له: عندي نصيحة. فإذا قال لك ما هي؟ قولي: ما أحب أن يسمعها غيرك مفرداً. وسليه أن يخليك، فإذا فعل فقولي له: ما هذا جزاء عثرات الكرام منك كافأته بالحبس والضيق والحديد، ففعلت الجارية ما أمرتها سيدتها. فلما دخلت عليه أصابت عنده عدة من وجوه البلد وخاصته، قال لها: قولي ما أحببت . قالت : ما أحب أن يسمع ذلك غيرك. فأمرهم بالقيام، ثم قال لها: هات ما عندك. فقالت: ما هكذا جزاء جابر عثرات الكرام منك، كافأته بالحبس والضيق والحديد! فقال: (واسوأتاه) وإنه لهو! قالت. نعم. ثم ولّت. فأمر بدابته فأُسرجت، وبعث إلى أهل البلد فجمعهم، ثم خرج بهم إلى الحبس، فلما رآه السجان قام إليه مذعوراً، فقال له: افتح. ففعل، فدخل هو ومن معه، فألفى عكرمة في ساحة الحبس قد أصابه الضُّرُّ، فلمّا نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك ونكس رأسه، فأكبَّ خُزيْمة على رأسه يقبله، فرفع رأسه إليه وقال: ما أعقب هذا منك؟ قال: كريم أفعالك وسوء مكافأتي. قال: يغفر اللّه لنا ولك. قال: فأُتي بالحداد ففكَّ القيود من رجليه وأمر أن تطرح في رجليه هو. قال عكرمة: تريد ماذا؟ قال: أريد أن ينالني من الضرِّ والحبس كمثل ما نالك. قال : واللّه! لا كان ذلك. فخرجا جميعاً، وقد وقفت لهما دابتان بباب الحبس، فركبا جميعاً وخرجا حتى وافيا بباب خزيمة، فشكر له عكرمة، وأراد الانصراف، فقال: ما أنت بمفارقي. فسار معه حتى (وصلا) إلى قصره. قال: تريد ماذا؟ قال: أريد أن أغيِّر ما ظهر بك ، فحيائي من بنت عمك أشد من حيائي منك. فأمر بالحمام فهُيىء، وأصلح لهما، ودخلا جميعاً إلى

الحمام، فقام إليه بنفسه، فتولّى أمره هو، فقال عكرمة: أسألك ألا تفعل. قال: فحلف ألاّ يتولّى ذلك غيري. ثم خرجا جميعاً إلى المنزل فأكلا ، ثم دعا خزيمة بأحسن ثيابه وأفره دوابه وأفصح خدمه، فزوده ذلك معه، حتى وقف على باب عكرمة، واستأذنه في السلام على بنت عمه والاعتذار إليها، فأذن له في ذلك، فاعتذر إليها فقبلت عذره، وجزته خيراً على فعله. ثم سأله أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك، فسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بالرملة، فلا دخل إليه الحاجب أعلمه بقدومه مع خزيمة بن بشر، فراعه ذلك وقال: والي الجزيرة قدم بغير إذن! ما هذا إلا حادث عظيم. فلما دخل إليه قال له قبل أن يسلّم: ما وراءك ؟ قال كل خير يا أمير المؤمنين. قال: فما الذي أقدمك؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام، وأحببت أن أسرك به، لما رأيت من تلهفك عليه. قال: ومن هو؟ قال عكرمة الفياض. قال: ما كان خيره معك إلا وبالاً عليه، فسلّم عليه ورحّب به وأدنى مجلسه، ثم قال: يا عكرمة، ارفع حوائجك كلها. قال: اعفني يا أمير المؤمنبن في هذا المجلس. قال: لابد، ثم دعا بدواة وقرطاس وقال: اعتزل ناحية، فأثبت جميع حوائجك. ففعل، ثم أمر برقعة فوقع عليها: تُقضى حوائجه. ثم أمر له بعشرة آلاف دينار، ثم دعا بقناة فعقد له على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وقال له: أمر خزيمة لك، فإن شئت فاعزله، وإن شئت فقِره: فقال: بل أزيده عملاً إلى عمله يا أمير المؤمنين. ثم انصرف . انتهت .

وهذه الحكاية من أظرف ما يسمع في اجتناء عواقب الخير، واصطناع المعروف، كما قال الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العُرف بين اللّه والناس

وصدق الحطيئة فيما قال؛ فإن اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وللشعر في هذا الباب المقصود به سلّ سخائم الملوك أمر عظيم ومنتفع جليل، كما يحكى عن محمد بن سلام قال: عزل الوليد بن عبدالملك عبيدة بن عبدالرحمن عن الأردن وضربه وحلقه وأقامه للناس، وقال للموكّلين به: من أتاه متوجّعاً وأثنى عليه فأتوني به. فأتاه عدي بن الرقاع وكان عبيدة إليه محسناً، فوقف عليه وأنشأ يقول:

فما عزلوك مسبوقاً ولكن ... إلى الخيرات سبّاقاً جوادا

وكنت أخي وما ولدتك أمي ... وصولاً باذلاً لا مستزادا

فقد هيضت بنكبتك الندامى ... كذاك اللّه يفعل ما أرادا

فوثب الموكّلون به، فأدخلوه إلى الوليد، وأخبروه بما جرى، فتغيّظ عليه الوليد وقال له: أتمدح رجلاً قد فعلت به ما فعلت؟! فقال: يا أمير المؤمنين! إنه كان إليّ محسناً، ولي مؤثراً، وبي برّاً، ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم؟ فقال: صدقت وكرمت فقد عفوت عنك وعنه لك فخذه وانصرف فانصرف به إلى منزله. فشعر عديّ كان السبب في الفرج لهذا الرجل، وإن لم يكن هو قائله.

قال ابن رشيق: الصابر على المحنة بين أجر مدّخر، وفرج يُنتظر، وجلَد يُشكر، وذنوب تُغفر، واستظهار في الحزم، وتنغيص على الشامت. ونكبة الحر كالنار للتبر، إن حطت وزنه فقد رفعت ثمنه، وإن نهكته إذابة فقد أكسبته صلابة، فنقصه ازدياد ولينه اشتداده.

وفي قصد التسلية قال أبو الفضل بن العميد: كل شدة إلى رخاء، وكل غمرة إلى انجلاء.

ومن التمحيص اللاحق بالأسر لفرقة من الناس، ثم تدارك اللّه بالفرج، ما وقع لرُكاب الجفن المعلوم للغاني المتردد بين العدوة والأندلس - أمّنهما اللّه - وما نفذ به القدر من استيلاء العدو البحري عليه، واستحواذه على من كان فيه من المسلمين، وهم زهاء ستين رجلاً، وتحصّلهم في قبضة الكفار وربقة الأسر، وقصدهم بهم إلى مرسى قرطاجنة من بلاد صاحب قشتالة المفاتنة للقبطان برئاسة مرشية الهنشه، فجرّده صاحب لورقة النازع لهذا العهد لموالاة المسلمين ومحادّة الكافرين، وكان هذا القبطان بحكم الوفاق قد استدعى شيخ بيرة العباس بن علي بن حميد مستمدّاً، فوصل إليه إلى لورقة، ولحين سماع صاحب قرطاجنة بخبر ورود شيخ بيرة على صاحب لورقة تخيّل من ذلك، وظنّ أن سيكون من العباس لجهته حركة، فاستدعى ربّ المركب "الغاني" للمسلمين أن ينزل بلمّة من النصارى ممداً له ليحفظ به القصبة بخلال ما يتعرف هو من خبر قدوم العباس بن حميد ما يقف فيه على جليّة قصده، فساعده على ذلك ونزل من جفنه في جماعة ممن لنظره من عبدة الصليب، وترك الأسرى من المسلمين في الجفن بين مصفّد في وثاقه، وهم كل من توهم فيه نجدة أو كفاية من رائسٍ أو رامٍ من الأندلسيين، وبين متروك دون وثاق ممن اعتقد عدم غنائه من البرابر والمصامدة وغيرهم. فتناجى المسلمون فيما بينهم في إعمال الحيلة في الخلاص، فأشار عليهم الرائس المشدود الوثاق بارتقاب هبوب الريح الشرقية، وأنه إذا رأى استقامتها، فالعلامة بينه وبينهم أن يضع يده على لحيته إذ كان مُقيّداً لا يستطيع لنفسه حيلة. وطفق من لم يقيد من المسلمين يرتقب تلك الأمارة التي جعلوا بينهم، إلى أن هبّت الريح

المساعدة لهم، فوضع لهم يده على لحيته، كما خرج منهم، فتبادروا إلى النصارى فِعل رجل واحد، فقتلوا من حان أجله وهم الأكثر، وأسروا من أبطأ به الحين، وقطعوا مراسي الجفن، ورفعوا القلع، وخرجوا قاصدين نحو المريّة، فيسّر اللّه عليهم الوصول إليها سالمين و لله الحمد، وحصلت أيديهم من أسلاب النصارى وأسلحتهم وأمتعتهم على ما أغناهم مع ثمن الجفن، ففازوا بها غنيمة باردة، وهربوا بما قدروا عليها، ففاتت خاصية الغنيمة من تعمّد الخروج لإصابتها والإيجاف عليها بالخيل والركاب، ودخلت تحت القسم الذي يختص به آخذه من مال الكفار، وهيأ اللّه خلاصهم من أيدي العداة بعد حصولهم في ذلّ إسارهم. واللّه لطيف بعباده، وهو الذي يُسني لهم من جميل صنعه ما لم يكن في حسابهم.

وحُكي فيمن فك اللّه عنه ربقة أسره أن امرأة جاءت إلى بقيّ بن مخلد فقالت: إن ابني أسره الروم، ولا أقدر على مال أكثر من دوره، ولا أقدر على بيعها، فلو أشرت إلى من يفديه بشيء، فإنه ليس لي ليل ولا نهار ولا نوم ولا قرار. فقال: نعم انصرفي حتى أنظر في أمره إن شاء اللّه سبحانه. قال: وأطرق الشيخ وحرّك شفتيه. قال: فلبثنا مدّة، فجاءت المرأة ومعها ابنها، وجعلت تدعو له، وقالت: قد رجع سالماً، وله حديث يحدّثك به. فقال الشاب: كنت أسيراً عند بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى، وكان له إنسان يستخدمنا ويؤدبنا وعلينا قيود، فجئنا ليلة من العمل فانفتح القيد من رجلي، ووقع على الأرض. ووصف ذلك اليوم، فوافق الوقت الذي دعا فيه الشيخ. قال: فصاح عليّ الذي كان يستخدمني، وقال: كسرت القيد؟ قلت: لا، إلا أنه سقط من رجلي. فتحيّروا في أمري، ودعوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ قلت: نعم.

قالوا: وافق دعاؤها الإجابة، أطلقك اللّه، فلا نمسكك. فزوّدوني واصحبوني إلى ناحية المسلمين. انتهت. فسبحان اللطيف بعبده، الكفيل بتيسير أمره بعد عقده.

التفريق بين الذرية وآبائهم ابتلاء

ومن أعظم التمحيصات في هذا الباب تفريق الذريّة من آبائهم بالقسر، إما بالعداء وإما بالأسر، ولذلك منع النبي ﷺ من تفريق الأمة من ولدها، وورد فيه من الوعيد الشديد ما ورد. ومن أقرب ما أتى اللّه بالفرج لامرأة اعتُدي عليها، فأُخذ منها ابنها قهراً وتغلّباً، ما وقفت عليه في (تاريخ بغداد) قال: مرّ المعتصم بامرأة تبكي وتقول: ابني ابني. وإذا بعض الجند قد أخذ ابنها، فدعاه المعتصم، وأمر أن يُردّ ابنها عليها، فأبى، فاستدعاه، فدنا منه، فقبض عليه بيده، فسُمع صوت عظامه، ثم أطلقه من يده، فسقط، وأمر بإخراج الصبي إلى أمّه. انتهت.

وإذا كان الابتلاء بمثل غلبات الرجال وصدمات الأهوال، فقد كان النبي ﷺ ـ فيما صحّ عنه ـ يقول: **«أعوذ بك من غلبات الرجال»**[(١)].

ومن الحكاية المناسبة لهذا الموضع ما ذُكر عن أكّار[(٢)] كان بنهر ساسان يقال له سارح قال: خرجت في نهر ساسان إلى موضع في البرّية يقال له (كوح واديه) من أعمال شرقي الفرات، فبلغني أن في الطريق رجلاً يقطع وحده، فحذرت. فلما خرجت من القرية رأيت رجلاً تدلّ فراسته على شدّته ونجدته، وفي يده عصا، فجسّرني على الطريق، فترافقنا، وانتهينا إلى موضع في البرّية فيه

---

(١) أخرج البخاري (٦٣٦٣) والترمذي (٣٤٨٤) وغيرهما عن أنس بلفظ **«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال»**.

(٢) رجل يعمل بتأجير القوارب وغيرها.

بناء قديم، فخرج علينا اللص منه متحزِّماً متسلّحاً، فطرح رفيقي كارةً كانت له على ظهره، وأخذ عصاه، وبادر إلى اللص، فلما داخل اللص ليضربه بالعصا استقبلها اللص بالسيف فقطعها، وضربه اللص بسيفه، فأقعده، وقطع رجله، ثم وشّحه بالسيف حتى قتله، وحمل عليّ ليقتلني فقال: استكتف. فاستكتفتُ، فكتّفني بتكّة[1]، ثم حمل الثياب وانصرف، فبقيت متحيّراً مُشرفاً على التلف لأجل العطش والشمس والوحوش، فما زلت أتمطّى في التكّة إلى أن قطعتها، وقمت أمشي إلى أن أجنّني الليل، فرأيت على بُعد ضوءاً خفيّاً، فقدّرته في قرية، فمشيت إلى نصف الليل، فوجدته يخرج من قبّة في الصحراء، فقربت منه، فإذا اللص فيها جالساً يشرب ومعه امرأة، فلما بصرني صاح وقام إلى السيف وخرج إليّ، فمازال وأنا أناشده اللّه تعالى وأحلف له أنّي ما علمت أنه هو ولا قصدته وإنما رأيت النار فقصدتها، فلم يعبأ بقولي، وحلفت المرأة ألا يقتلني بحضرتها، فجذبني إلى نهر جافٍ قريب من قبته، وطرحني فيه تحته، وجرّد سيفه ليذبحني، فسمعت صوت الأسد قريباً منه فأرعدت يده وسكن وأخذ يسكنني. فأنست بالسبع استيحاشاً منه، وزدت في الصياح، فما شعرت إلا والأسد قد تناوله من صدري وهرول في الصحراء، فقمت وأخذت السيف وأبتُ إلى القبة، فلم تشك الجارية إلا أنه هو، فقالت: قتلته؟ قلت: اللّه قتله. وقصصت عليها القصة وسألتها عن شأنها، فقالت: أنا امرأة من أهل البلد الفلاني، أسرني هذا الرجل، وخبّأني في هذا المكان، وهو يتردد إليّ في كل ليلة. فأرهبتها فدلّتني على دفائن له في الصحراء، فاقتلعتها وحملت الجارية، وبلغت القرية، فسلّمتها إلى أهلها، وفزت بمالٍ عظيم أغناني عن مقصدي،

---

(١) رباط السروال.

وعدت إلى بلدي. انتهت وهذه الحكاية من عجائب الفرج بعد الشدة، ومما نجّى اللّه من عدو بمثله، وهو الذي يقال فيه: ينجي من الهلاك بالهلاك. وإنما ذلك ـ واللّه أعلم ـ من إجابة دعاء المضطر.

وليست حالة الاضطرار بمقصورة على المؤمن دون الكافر، فقد يقع من تفريج الشدة عن الكافر إذا اضطر، نحو ما وقع للمؤمن؛ كما وقع لامرئ القيس في الحكاية الطريفة الواقعة له في تزوّجه. حُكي عن عبد الملك بن عمير، قال: قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة أنا أحدهم من وجوه الكوفة، فسمرنا عنده، ثم قال: ليحدثني كل رجل منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمرو. فقلت: أصلح اللّه الأمير، أحديث الحق أم حديث الباطل؟ قال: بل حديث الحق. قلت: إن امرأ القيس آلى أليّة ألاّ يتزوج المرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا قلن أربعة عشر، فبينا هو يسير في جوف الليل، إذا هو برجل يحمل ابنةً له صغيرة، كأنها البدر ليلة تمّه، فأعجبته، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية وأربعة واثنان؟ فقالت: أما الثمانية فأطْباء الكلبة[1]، وأما أربعة فأخلاف[2] الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها، فزوّجه إيّاها، وشرطت هي عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل، وعشرة أعبد وعشر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك. ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليها نِحياً من سمن ونحياً من عسل، وحلة من قصب، فنزل

(١) أطباء: جمع طبي بالكسر والضم وهي حلمات الضرع التي من خفٍ وظلف وحافر وسبع (القاموس المحيط).

(٢) الأخلاف: حلمات ضرع الناقة.

العبد ببعض المياه، فنشر الحلة ولبسها، فتعلّقت بشجرة فانشقت، وفتح النحيين، فأطعم أهل الماء منهما، فنقصا. ثم قدم على حي المرأة وهو خلوف، فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها، ودفع إليها هديتها، فقالت له: أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرِّب بعيداً ويبعد قريباً، وأن أمّي ذهبت تشقّ النفس نفسين، وأن أخي يُراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت وأن وعاءكم نضبا. فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال: أمّا قولها إن أبي ذهب يقرّب بعيداً ويبعدّ قريباً فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه، وأما قولها إن أمّي ذهبت تشق النفس نفسين فإن أمها تقبل امرأة نفساء، وأما قولها إن أخي يُراعي الشمس فإن أخاها في سرحٍ له يرعاه، وهو ينظر وجوب الشمس ليروح به، وأمّا قولها إن سماءكم انشقّت فإن البُرد الذي بعثت به انشق، وأما قولكم إن وعاءيكم نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا فأصدقني, فقال: يا مولاي إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخبرتهم أني ابن عمّك، ونشرت الحلة، فانشقت، وفتحت النحيين، وأطعمت منهما أهل الماء. فقال: أولى لك. ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام، فنزلا منزلاً، فخرج الغلام يسقي الإبل فعجز فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل، وأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: واللّه ما أدري أزوجي هو أم لا، ولكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها. ففعلوا. فقالت: اسقوه لبناً حازراً ـ وهو الحامض ـ فسقوه فشرب. فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم ففرشوا له فنام. فلما أصبح أرسلت إليه أني أريد أن أسألك. فقال: سليني عما شئتِ. فقالت: ممّ تختلج شفتاك؟ قال: لتقبيلي إياك. قالت: فمم يختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إياكِ. قالت: فمم تختلج فخذاك؟ قال: لتوركي إياك. قالت: عليكم العبد فشدّوا أيديكم به.

ففعلوا: قال: ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حيّه واستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى المرأة. فقيل لها: قد جاء زوجك. فقالت: واللّه ما أدري أزوجي هو أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، فأطعموه من كرشها وذنبها. ففعلوا، فلما أتوه به قال: وأين الكبد والسنام والملحاء؟ فأبى أن يأكل، فقالت: اسقوه لبناً حازراً. فأبي أن يشرب وقال: أين الصريف والرثيئة[1] فقال: افرشوا له عند الفرث والدم. فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا عليه خباءً. ثم أرسلت إليه هلمّ شريطتي عليك في المسائل الثلاث. فأرسل إليها أن سليني عما شئتِ. فقال: مم تختلج شفتاك؟ قال لشُربي المشعشعات. قالت: فمم تختلج كشحاك؟ قال: للُبسي الحبرات. قالت: فمم تختلج فخذاك؟ قال: لركضي المُطهّمات. قالت: هذا زوجي لعمري، فعليكم به، واقتلوا العبد. فقتلوه. ودخل امرأ القيس بالجارية. فقال ابن هبيرة: حسبكم، فلا خير في الحديث سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن تأتينا بأعجب منه فقمنا وانصرفنا وأمر لي بجائزة. انتهت.

فحال امرئ القيس هنا بعد عبده عليه، وحصوله في البئر، حال المضطر، فقيّض اللّه له من المارين بالبئر من كانت حياته على يده، وسلامته من هذه التهلكة بسببه. فسبحان اللّه ما أوسع رُحماه، وأتمَّ نعماه، لا إله إلا هو. ولم يمنع امرأ القيس ماكان عليه من الكفر أن يسر اللّه له اللطف بمن لم يسجد قط لسواه؟! ولا اعتقد إلهاً غيره ولا نواه! فليشد العاقل يده على أسباب الزلفى لدى هذا الرب الكريم، وليعتمد على ما عوّده من فضله ورحمته، فإنه ذو الفضل العظيم.

---

(١) الصريف: اللبن ساعة حُلب، والرثيئة: الحليب يصب عليه اللبن الحامض فيروب. (القاموس المحيط).

وإذا كان الابتلاء بمثل طلب السلطان المؤدي للفرار عن الأوطان. فقد حكي عن الفضل بن الربيع أنه قال: لما استترت من المأمون، أخفيت نفسي عن أهلي وعيالي وولدي، فلما صدر المأمون عن خراسان، وقرب من بغداد، زاد خوفي على نفسي، وقلقي، فشددت في الاحتياط والتواري، فأفضيت إلى منزل بزّاز كنت أعرفه في درب على باب الطاق، وقدم المأمون بغداد، فتشدد في طلبي، فلم يعرف لي خبراً. فذكرني يوماً، فاغتاظ، وأغلظ لإسحق بن إبراهيم[1] في الخطاب، وشدد عليه أمري، فخرج إسحق من حضرته، فجدّ بالشُرط، حتى أوقع ببعضهم المكاره، ونادى في الجانبين أنه من جاء بي فله عشرة آلاف درهم، وإقطاع غلّة بثلاثة آلاف في كل سنة، وأنّ من وُجدت عنده بعد هذا النداء ضُرب خمسمائة سوط، وهدمت داره وأُخذ ماله، وحُبس طول عمره. ونودي بذلك بعد الظهر، فما شعرت بصاحب الدار قد دخل عليّ، فأخبرني بالأمر، وقال: ما أريد إلا سترك وستري معك، لأني لا أقدر بعد هذه على إمساكك، وما آمن زوجتي وغلامي وخادمي أن تشره نفوسهم إلى المال، فيدلّون عليك، فأهلك بهلاكك، فإن صفح الخليفة عنك لم آمن أن تتهمني أنت بأني دللت عليك، فيكون ذلك أقبح حجة، وليس الرأي لي ولك إلا أن تخرج عني. فورد علي أعظم وارد، وقلت: إذا جاء الليل خرجت عنك. فقال: ومن يطيق الصبر على هذا الضرر إلى الليل؟! وإن قعدت عندي كيف يكون حالي؟! وهذا وقت حادّ، وقد طال العهد بك، فتنكّر واخرج. فقلت: كيف أتنكّر؟! قال: بأن تأخذ أكثر لحيتك، وتلبس ثياباً ضيّقة، وتغطي رأسك

(١) صاحب الشرطة وكان يعرف بصاحب الجسر.

ووجهك. فقلت: أفعل. فجاء بمقراض، فأخذ أكثر لحيتي. وتنكّرت، وخرجت في أوّل أوقات العصر، وأنا ميّت جزعاً، فمشيت المشارع حتى أتيت الجسر، فوجدته خالياً، وقد رُشَّ فهو متزلق، فلما توسّطته إذا بفارس من الجند الذين كانوا ينوبون في داري أيام وزارتي، فقرب مني فعرفني وقال: طِلبة أمير المؤمنين والله! وعدل إليّ ليقبض علي. فدفعته، فزلقت دابّته، ووقعت به في بعض السفن التي للجسر وتعادى الناس لخلاصه، وظنوا أنه قد زلق بنفسه. وتشاغل بهم، وزدت في المشي من غير أن أعدو لئلا يفطن بي أو ينكر حالي، وعبرت الجسر ودخلت درب سليمان، فوجدت امرأة على باب دار مفتوح، فقلت: يا امرأة أجيريني واحفظي دمي، فإني خائف من القتل. فقالت: ادخل. وأومأت إليّ إلى غرفة، فصعدتها. فلما كان بعد ساعة إذا بباب الدار يُدق، ففتحته، فدخل زوجها، فتأمّلته، فإذا هو صاحبي على الجسر، وهو مشدود الرأس، يتأوّه من شدة ما لحقه، فسألته المرأة عن السبب، فأخبرها بالقصة، وقال لها: قد فاتنا الغنى. وهو يشتمني، ولا يعلم بحصولي معهم في الدار، وأقبلت المرأة تُسكنه إلى أن سكن. فلما صلّيت المغرب، واختلط الظلام صعدت المرأة وقالت: أظنك صاحب القصة مع الرجل؟ فقلت: نعم. فقالت: قد علمت ما لك عنده، فاتق الله في نفسك، واحفظها واخرج. فدعوت لها، ونزلت، ففتحت الباب فتحاً رفيقاً، وكانت الدرجة في الدهليز، فأفضيت منها إلى الباب، فلما حصلت في آخر الدرب، وجدت الحرس قد اخلقوا، فتحيرت. ثم رأيت رجلاً يفتح باباً بمفتاح رومي، فقلت هذا عزب، وهو ممن يقبل مثلي. فدنوت منه، وقلت: استرني سترك الله. فقال: ادخل. فدخلت فوجدت رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمت عنده، وبكّر من الغد، ثم عاد نصف النهار، ومعه حمّالان على أحدهما حصير ومخده وجرار وكيزان، وعصائر

جدد، وقدر جديدة، وعلى الآخر خبز وفاكهة وملح، فترك ذلك بين يدي. فعذلته وقلت له: لم تكلّفت هذا؟! فقال: أنا رجل مزيّن، وأخاف أن تستقذرني، وقد أفردت لك، فاطبخ واطعم على اختيارك وما تهواه. وأكل هو في قدر أخرى، فشكرته على ذلك. وكنت على هذه الحال ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الرابع قلت له: قد أحسنت وأجملت، والضيافة ثلاث. فقال: لا تفعل، فإني وحيد، ولست ممن يُطرق، ولا يجوز أن يفشو خبرك من عندي أبداً، فأقم إلى أن يفرّج اللّه عنك، فلست أتضايق بك. فقلت: لابد من ذلك. وخرجت ومشيت حتى بلغت منزل عجوز من موالينا، فلما رأتني بكت، وحمدت اللّه على سلامتي، فبتُّ عندها. فلما كان في السحر بكرت إلى إسحق بن إبراهيم، فما شعرت إلا بإسحق في خيله ورجله قد أحاط بالدار واستخرجني منها، وأوقفني بين يدي المأمون حافياً حاسراً، فلما أبصرني سجد طويلاً، ثم رفع رأسه إليّ، وقال: يا فضل! أتدري لما سجدت؟ فقلت: نعم شكراً للّه على أن أظفرك بعدوّ دولتك والمُغري بينك وبين أخيك. فقال: ما أردت هذا، ولكني سجدت شكراً للّه على ما ألهمنيه من العفو عنك، حدّثني بحديثك من أوّله إلى آخره. فشرحته كله. فأمر بإحضار المرأة والجندي والمزين - وكانت المرأة مولاتنا في الدار تنتظر الجائزة - فحضر الأربعة، فقال للمرأة مولاتنا: ما حملك على ما صنعت مع إنعامه وإنعام أهله عليك؟ قالت: الرغبة في المال. قال: هل لك زوج وأخ؟ قالت: لا. فأمر بضربها مائتي سوط، وتخليدها في الحبس. ثم دعا بالمزيّن والجندي والمرأة، فاستثبتني فيهم، فأعلمته أنهم القوم بأعيانهم. فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبة في المال، وواللّه لأنه الذي أثبتني في الجند، ولكن حملتني الرغبة على ما فعلته. فقال: أولى بهذا أن يكون حجّاماً من أن يكون من أوليائنا. وأمر أن

يُسلّم إلى المزيّنين، ويوكل به من يعنفه حتى يتعلّم الحجامة، وأمر باستخدام زوجته في قهرمة دور حرمه، وقال: هذه امرأة عاقلة أديبة. وامر بتسليم مال الجندي وقماشه وداره إلى المزيّن، وامر بردّه إلى مكانه، وقال: هذا أولى من ذلك بأن يكون من أوليائنا. وأطلقني فرجعت إلى داري في ذلك اليوم بعينه آمناً.

ومات الفضل في خلافة المأمون في سنة ثمان ومائتين، وقد جاوز الستين، وكان سريّاً ملوكياً شديد الإعجاب، ويقال عنه إنه لم يكذب قط. وكان البرامكة وزراء الرشيد والغالبين على الأمر كله، وكان الذي بينهم وبين الفضل بن الربيع سيئاً، حتى أسقطوه عند الرشيد، ثم لم تزل الأيام ترفعه حتى نكب الرشيد البرامكة، وقتل جعفر بن يحي واستوزره. وهذه الحكاية من أعجب ما يأتي به الاتفاق، ويُستغرب فيه حفيّ الألطاف، ويُتعجب من جميل المصانع، فإن الأمر في تورّط هذا الرجل ونجاته كان دائراً بين رجلين، كل واحد من صاحبه على طرف النقيض، وامرأتين كذلك، ثم إن المرأة والرجلين اللذين كانا يعرفانه، وتقدّم منه الإحسان إليهما، فمنهما صدر له الاجتهاد في وقوع ما كان يتخوّفه، والرجل والمرأة اللذين لم يكن له بهما معرفة، ولا تقدّم إليهما إحسان، فهما اللذان سعيا في ستره مما كان يخشاه، واجتهدا في تخلّصه مما كان يخافه. ثم إن الواقع كله إذا تؤمّل إنما هو من قبيل اللطف الخفي، إذ جعل اللّه ذلك كله سبباً في رضا السلطان عنه، وموجباً لتغاضيه عمّا نقمه عليه. فتعالى اللّه مقلّب القلوب، الذي لا يقدر إلا هو على أن يجعل موجب الشدة سبباً في الرخاء، ومقتضى الابتلاء علّة في المعافاة.

ولكون الأمان أفضل مما سبقه من الصحة يقول الأستاذ أحمد بن خميس من الجزيرة الخضراء:

قوام العيش في دعة وأمنٍ ... وصحةٍ إنها جُلّ الأماني
وأرفقهن للدارين أمن ... فوال السعي في طلب الأمانِ

وحدّث مروان بن أبي حفصة قال: كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً وجعل فيه مالاً، فحدّثني معن بن زائدة باليمن، أنه اضطر لشدة الطلب إلى أن قام في الشمس حتى لوّحت وجهه، وخفف عارضيه ولحيته، ولبس جُبّة صوف غليظة، وركب جملاً من الجمال النقالة، وخرج عليه ليمشي إلى البادية فيقيم بها، وكان قد أبلى في حرب يزيد بن عمر بن هبيرة بلاءً حسناً، غاظ المنصور، وجدّ في طلبه. قال معن: فلما خرجت من باب حرب تبعني أسود متقلد سيفاً، حتى إذا أنا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه، وقبض عليّ، فقلت له: ما لك؟ قال: أنت طِلبة أمير المؤمنين. قلت له: ومن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ فقال: أنت معن بن زائدة. فقلت: يا هذا اتق اللّه! وأين أنا من معن بن زائدة!؟ فقال: دع عنك، فأنا واللّه أعرف منك بك. فقلت: إن كانت القصة كما تقول فهذا جوهر حملته معي بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بي، خذه ولا تسفك دمي. فقال: هاته. فأخرجته إليه. فنظر إليه ساعة وقال: صدقت لي قيمته، ولست قابله حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك. فقلت: قل. قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت قط مالك كله؟ قلت: لا. قال: فنصفه؟ قلت: لا. فثلثه؟ قلت: لا. حتى بلغ العشر فاستحييت فقلت: أظن أني فعلت ذلك. فقال: ما أراك فعلته، أنا واللّه راجل رزقي من أبي جعفر

عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير، وقد وهبته لـك، ووهبتـك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقّف عن مكرمة. ثم رمى بالعقد في حجري، ثم خلّى خطام البعير وانصرف. فقلت له: يا هذا! قد فضحتني، واللّه ولسفك دمي أهون عليّ مما فعلت، فخذ ما دفعته إليك، فـإني غنيّ عنك. فضحك وقال: أردت أن تكذّبني في مقامي هـذا، واللّـه لا آخـذه، ولا آخذ لمعروف ثمناً أبداً. ثم مضى، فواللّه لقد طلبته بعد أن أمنـت، وبذلـت لمن جاءني به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض ابتلعته. انتهت.

وكان الفقيه طالوت بن عبـد الرحمـن المعافري ممـن أدركتـه محنـة هيـج الربض، وكان من أهل الجد والعلم، وممن روى عن مالك بن أنس ـ رحمه اللّه ـ فهرب، واختفى بقرطبة في دار رجل يهودي، فأقام عنده حولاً كاملاً، فلمـا استقرت الأحوال، خرج إلى الوزير ابن البسّـام وكـانت بينهمـا وصلـة قديمـة، فجاءه بين العشائين، فأظهر السرور به، وسأله أين أقـام، فقـال: عنـد رجـل يهودي. فآنسه، فقال: الأمير نادم على ما كان منه. وبقي عنده ليلـة مكرمـاً. فلما كان من الغد جاء أبو البسام فدخل على الأمير الحكم وقال له: رأيك في كبش سمين على مزوده منذ عام؟ فقال الحكـم: لحـم ثقيـل وغـيره أخـف منـه وأعذب فما الخبر؟ قال له: هذا طالوت عندي قد بحثت عنـه منـذ عـام. فـأمر بإحضاره، فأتي بالشيخ وهو يزعج إزعاجاً شديداً. فلما مثل بين يديه قال لـه: يا طالوت! لو أن أباك أو ابنك ملك هذا القصـر أكـان أحدهمـا يزيـدك علـى برّي بك وإكرامي لك؟ وهل رددت لك رغبـة قـطّ في نفسـك أو غـيرك؟ ألم أعُدْك في علّتـك مـراراً؟! ألم تُتـوفَّ زوجتـك، فقصـدت بـابك، ومشـيت في

جنازتها راجلاً بين يديك، ثمّ انصرفت كذلك راجلاً حتى أدخلتك منزلك؟! فما الذي بلغ عندك إن لم ترض إلا بهتك ستري وسفك دمي؟ فقال طالوت: لا أجد لنفسي الآن مقالاً خيراً من الصدق، جاءتنا أمورٌ أبغضتك من أجلها للّه تعالى، فلم ينفعك ما صنعت معي، وإني لمعترف بكل ما صنعت، أصلحك اللّه. قال: فأخذت الحكم رقّةٌ ورحمة، فقال له: واللّه لقد بعثت فيك، وما في الأرض عقاب إلا وقد مثّلته لنفسي لأوقعه بك، فأنا أُعلمك أن الذي أبغضتني له قد صرفني عنك، فانصرف في حفظ اللّه آمناً، واللّه لا تركت ما كنت عليه من برِّك حياتي، فليت الذي كان لم يكن، والحمد للّه على كل حال. فقال له طالوت: لو لم يكن ذلك لكان خيراً لك، ولكنّ الأمور بيد اللّه. ثم قال له الحكم: أين ظفر بك أبو البسّام؟ فقال: واللّه ما ظفر بي، وأنا أظفرته بنفسي، وقصدته لوصلةٍ كانت بيني وبينه. قال: فأين كنت في عامك؟ قال: عند رجل يهودي. فقال الحكم: يا أبا البسّام! رجل من اليهود حفظ فيه علّة من العلم والدين، وخاطر معنا بنفسه وماله، وأنت غدرته وقد وثق بك، وأردت أن تُهلكه هو وأهله؟! اخرج عني، فواللّه لا رأيت لي وجهاً أبداً. وأمر برفع فراشه من بيت الوزارة، ولم يزل عقبه في ارتكاس، وبقي طالوت محفوظاً إلى أن مات، وكتب لليهودي بالحرمة ولعقبه من بعده. انتهت.

وهذه الحكاية كالتي نُقلت عن الفضل بن الربيع في غرابة النوع، وإتيان الضر من مظنة النفع، وحصول الفائدة من محل عدمها بقريب من القطع، ثم من كوْن ذلك سبباً في خفي اللطف، وموجباً لما صدر من السلطان من الرأفة والعطف، ما فيه لأولي الألباب، وتبصرة فيما يسنّي اللّه إذا أراد أمراً من الأسباب، والمفهوم من هذه القضية على ما يُعرف من جاري عادة اللّه في خلقه، أن اللّه قيّض هذا اليهودي، على ما به من صغار الذمّة، وما ضرب عليه

من المسكنة والذلّة، وما أخذ به من إعطائه صاغراً عن يدٍ للجزية، في عنفوان غضب هذا الملك، وأوان احتدام غيظه، لحفظ هذا العالم الذي هو من غير ملّته، وليس أبداً بتابع لقبلته، حتى إذا سكن غيظ الملك، وخمدت سورة غضبه، قيّض اللّه هذا الوزير أبا البسّام، لارتكاب هذه المنقصة، وفُيول الرأي في استسهال هذه المثلة، ذاهلاً عما لحقه من العار، ومتعامياً عمّا يدركه من الوصمة، إلى ما جنى له في ضمن ذلك من السخطة، وتمت عليه بسببه من العزلة، كل ذلك ليتم رضا السلطان لهذا العالم، مثاباً على القيام بالحق، ومأجوراً على الوفاء الصدق، وليحصل خمول الوزير، وعار ارتكاس عقبه، مجزيا بعقبى المكر السيئ، وموثقاً في حبالة الغدر الشنيع، وليتهيأ احترام اليهودي وعقبه، مجتنياً في دنياه ثمرة الوفاء، ومغتبطاً بنتيجة حُسن المواساة، ولعل ذلك يقوده لما هو أفضل، فمن يرد اللّه به خيراً يسهِّل له السبيل إليه، ويدلُّه بصدق النية عليه. ولو شاء اللّه لسكّن غيظ الملك من ساعته، ولكن ليظهر مضمون قوله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً**﴾ [هود: ٧، الملك: ٢]. جعلنا اللّه ممن وُفق لصالح العمل وحسنه. وقد كانت جناية أبي البسّام على الفقيه طالوت مما لم يتأخر فيه إنصافه منه، كما يقول الفقيه أبو جعفر أحمد بن أحمد السالمي:

إذا ما جنى يوماً عليك جناية ظلوم يدق السمر بأساً وينصف
فلا تنتقم يوماً عليه بما جنى وكل أمره للدهر فالدهر منصف

وإذا كان الابتلاء بمثل حصول المخاوف، وشهود المتالف، فإن استحضار مواطن النجاة من أمثال تلك الشدائد مما يزيد القلب قوة، ويفيد النفس طمأنينة. فكم من مخافة أعقب اللّه منها أمانا! وكم من مهلكة يسّر اللّه

منها خلاصاً! وفي التسليم والتفويض، حيث لا يتهيأ سبب مشروع ولا عمل مطلوب، راحة للنفس وتوطين للقلب على الصبر، واعتماد للعبد على اللّه. فإن أمكنت الأسباب الجائزة والأعمال المشروعة، فلا بأس بارتكاب ما لا ينسى فيه التوكل على اللّه منها، ولا تهمل الثقة به في استعمالها. ومن استبصر في الواقع لخليل الرحمن حين أراد به الكفار ما أرادوا، حسبما حكى اللّه عنهم في قوله: ﴿**قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين۝ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم۝ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٧٠] فانظروا إلى عظيم هذه الشدة، وأليم هذه التهلكة، ولكنّ اللّه نجّى منها بفضله، وجعل النار برداً وسلاماً بلطفه، وقد حُكي من قوة يقين الخليل باللّه، وصدق توجّهه، وصحيح توكّله، ما لا يكون إلا لمثله من أولي العزم من الرسل، فإنه رُوي أن جبريل عليه السلام أتاه في حال رميه بالمنجنيق إلى النار المضطرمة قال له: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال: فسل ربك. فقال: علمه بحالي يُغني عن سؤالي.

وقد كان في غزاة أُحد من التمحيص ما تضمنته الآيات من سورة آل عمران حسبما ورد في سيرة ابن إسحق استيفاء ما وقع فيها، فلينظر هنالك، ولكن اللّه تدارك بفضله، وتلافى الوهي بلطفه، وأنزل في التسلية عن ذلك ما سبقت الإشارة إلى القصة. وكان النبي ﷺ يقول عند مواجهته العدو للقتال: «**اللهم بك أقاتل وبك أحاول وبك أصول**» خرجه البخاري في صحيحه. وما أنسب الدعاء الوارد في الكتاب العزيز لمحلّه المخصوص به من مواجهة العدو في القتال! وهو قوله: ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وما أعقب القائلين لذلك وهم طالوت ومن معه من

النصر على عدوهم، وهم جالوت وجنوده.

وقد سلّى اللّه الشهداء عن لاحقة الموت بقوله: ﴿**ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتاً**﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: ١٦٩]. ولهذا المعنى يقول ابن الرومي، واللّه أعلم:

عجباً لمن يلقى الحرو ... ب فلا يقاتل أو يجالد
لا سيما إن كان يوقن ... أنه إن مات عائد
خوفاً وإشفاقاً وأرصادُ ... الحتوف له رواصد
إن قال إن النفس واحدة ... فإن الموت واحد

ولحالة الاضطرار على الجملة في مواطن الشدة أثر عظيم في إجابة الدعاء وصرف البلاء لقوله تعالى: ﴿**أمّن يجيب المضطر إذا دعاه**﴾ [النمل: ٦٢]. ولقد وقع من ذلك عجب أتذكّره فأشاهد فيه جميل الصنع من اللّه تعالى وإنما نقلته لما لحقني فيه من الاضطرار، وذلك أنّي كنت في ذلك التمحيص الشديد والابتلاء العظيم الذي أدرك والدي، بحال مخافة عظيمة ورهبة كبيرة، فكنت أستخفي في المواضع المُغْفلة، والأماكن غير المطروقة، وكنت في بعض الأيام مع بعض الإخوان في اللّه الذين أفادتهم تلك النكبة، وفتح اللّه بلطفه في صحبتهم، فلم أشاهد أحداً قط كان أحفظ للسانه وسائر جوارحه من الإلمام بما لا يجوز له منه، فكنت أسكن معه في دار مصريّة، كانت مكتراه له بإزاء منزله، معدّة لإنزال الضيف، وما أشبه ذلك، فسكنت فيه لإغفالها، يتردد إليّ فيها بقوتي وبماء لوضوئي، إلى أن ورد عليه بعض العلماء ممن كان ينزله منزلة مشيخته، وكنت أنا أيضاً أثق به، وهو من شيوخي، فاتفق وإياي رأيه أن ينزل بالمصرية معي، وأنا على حال استخفائي معه، فاتفق لبعض الناس أن أضاف ذلك

الشيخ بطعام أتاه به، إلى حيث كان نزوله من هذه المصرية، وكنت أنا وصاحبي والشيخ نحذر جميعاً من اطلاعه عليّ هنالك، لما يُتوقّع من تساهل الناس في مثل هذا السر، فتلحقنا الإذاية باشتهاره، وكان فيها صورة مخدع صغير له غلق وما يفعل به، فاستخفيت هنالك، وأُذن للرجل الآتي بالضيافة في الدخول بهما، فدخل، وأقبلوا على الأكل منها، وأنا في ذلك الموضع لم يشعر بي. وفي أثناء إقامتي هنالك كنت أنسخ بعض كتب العلم، واعتراني شرق كبير سد مجرى النفس مني، فشاهدت الموت عياناً، ولم أستجز فضيحة صاحبي فيما كان لا يريد أن يُطلع ذلك الإنسان عليه، فعزمت على إيثار الموت دون أن يُسمع لي حسٌّ من سعال ولا غيره، وفي هذه اللحظة خطر على قلبي قوله تعالى: ﴿**أمّن يجيب المضطر إذا دعاه**﴾ فضرعت في قلبي إلى اللّه تعالى داعياً، إذ لم أكن أستطيع الكلام، فما هو إلا أن توجّهت إليه بالدعاء في تلك الحال، وإذا بتلك الغُصّة قد ذهبت، والشرق قد ارتفع كأني قد شربت قدحاً من الماء، حتى لم أجد لها أثراً، ولم أفتقر لما يقتضي سمع حسّي من سعال ولا من نحنحة ولاغيرها. فعجبت من ذلك غاية العجب.

وكثيراً ما يصدر ممن ابتلي بشيء من هذه الحوادث الواقعة والنوائب الطارقة ذمّ الدهر ونسبة الجور لحُكمه كقول أبي المظفّر الأبيوردي:

تنكّر لي دهري ولم يدر أنني ... أعز وأحداث الزمان تهون
فظل يريني الخطب كيف اعتزاؤه ... وظلت أريه الصبر كيف يكون

وهذا مما ينبغي أن يُجتنب، لقول النبي ﷺ: «**لا تسبّوا الدهر فإن اللّه هو الدهر**»[1] وقد يكلم الناس في هذا المعنى، وهو ظاهر، فإن تلك الأمور هي من

(١) أخرج البخاري (٦١٨١) ومسلم(٢٢٦٤) واللفظ له وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قبيل نسبتها للدهر لا تصحّ، ففي الواقع ما فيه من الكذب وقلّة الأدب، وفي هذا المعنى قال الخطيب أبو محمد عبد اللّه بن جُزّي رحمه اللّه:

نَذُمّ زماناً ما له من جناية ونشكوه لو يُغني عن المرء شكواه
ولا ذنب فيها للزمان وإنما جنينا فعوقبنا بما قد جنيناه
هو القدر الجاري على الكُرْه والرضا فصبراً وتسليماً لما قدّر اللّه

وشبيه بذمّ الزمان ذمّ أهله، وتبرئة النفس من النقص، ونسبته إليهم.

وما أعجب ما وصّى به رجل من الحكماء بنيه فقال: يا بَنِيَّ! أوصيكم: إياكم والجزع عند المصائب؛ فإنه مجلبة للهمّ، وسوء ظنّ بالربّ، وشماتة للعدو، وإياكم أن تكونوا للأحداث معترين ولها آمنين، فإني واللّه ما سخِرتُ من شيء إلا نزل بي مثله، فاحذروها وتوقّعوها، فإنما الإنسان في الدنيا غرض تتعاوره السهام، فمجاوز له ومقصر عنه وواقع عن يمينه وشماله حتى يصيبه بعضها، واعلموا أنّ لكل شيء جزاءً ولكل عمل ثواباً. وقد قالوا: كما تدين تُدان، ومن ير يوماً يُرى به. وقال الشاعر:

إذا ما الدهر جرّ على أُناس حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وللتحذير من معنى السخرية ونحوها قال ابن شرف في "سر البر": «وإياك وعادة الزراية، فإنها مجمعة العيوب، وذلك أن الزراية نتيجة التيه، والتيه نتيجة الكبر، والكبر نيتجة الإعجاب، والإعجاب نتيجة الجهل، وينبغي لمن وضع نفسه موضع الزراية بغيره أن ينظر إلى من ازدرى به، فإن كان ناقصاً نُقصاناً أوجب الازدراء به نظر إلى نفسه، فإن وجد فيها نقصاناً آخر ـ وأحرِ به أن يجرِّب ـ فالأولى به أن يدعوه إلى البكاء معه على ما بهما من نقص، فإن أهل

البلاء يتأسّى بعضهم ببعض، واعلم أن الازدراء لو كان له موضع أو وقت لم يجب أن يقع إلا ممن لا عيب فيه، فليذكر المرء عيب نفسه ويُعرض عن عيب غيره». انتهى. وذلك واضح.

وكما أن اجتناب الرذائل والزراية وما ترتب عليها واجب، فكذلك ارتكاب الفضائل وما قاد إليها لازم.

جلس سليمان بن عبد الملك ذات يوم مجلساً، فدعا بيزيد بن أبي مسلم، وكان صاحب أمر الحجاج، فلمّا دخل عليه وهو موثّق بالحديد مصفّداً، ازدراه حين رآه، ونبت عيناه عنه، فقال: ما رأيت كاليوم قط، لعن اللّه رجلاً أقادك رسنه وحكّمك في أمره، فقال له يزيد: لا تقُلْ هذا يا أمير المؤمنين، إنك رأيتني والأمر عني مدبر، وهو عليك مقبل، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل لاستعظمت مني ما استصغرت ولاستجللت ما استحقرت. قال سليمان: ثكلتك أمّك، اجلس. فجلس، فقال سليمان: عزمت بابن أبي مسلم لتخبرني عن الحجاج ما ظنّك به؟ أتراه يهوي في جهنم أو قد قاربها؟ قال: يا أمير المؤمنين: لا تقُلْ هذا للحجاج، وقد بذل النصيحة، وأخفر دونكم ذمّته، ووالى وليّكم، وأخاف عدوّكم وإنه يأتي يوم القيامة عن يمين عبدالملك ويسار الوليد ابن عبد الملك، فضعه حيث شئت. فصاح به: اخرج. ثم التفت إلى جلسائه، وقال: ثكلته أمّه ما أحسن ترضّيه لنفسه ولصاحبه! فلقد أحسن المكافأة بحسن الصنيعة، خلّوا سبيله. انتهى.

فقد استفاد هذا الرجل بوفائه لصاحبه ومكافأة أياديه قبله ما استفاد من رضا الخليفة عنه وتخليه سبيله من الاعتقال، ولا أحسب مثل هذا إلا من مواطن الصدق التي تكررت الإشارة إليها في مواضع كثيرة من هذا الموضوع.

يقول ابن شرف في "سر البر": اعلم أن الصدق أمانة وعزّ، والكذب مهانة وذلة، والصدق أنفة وقوة، والكذب ضعف وخِسةٍ. انتهى. وهذا كما قال.

وذكر عن محمد بن الحسن عن منارة اليزيدي، وكان مختصاً بخدمة الخلفاء المهدي والهادي والرشيد، قال: رفع إلى أمير المؤمنين الرشيد أن بدمشق رجلاً من بقايا بني أمية عظيم الجاه، واسع الدنيا، كثير المال والأملاك، مطاعاً في البلد، له عِدة أولاد ومماليك، يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة، وأنه لا يُؤمن منه، فتقٌ يتعذر رتقه. وكان وقوف الرشيد على هذا سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم وبايع لبنيه الأمين والمأمون والمؤتمن، وقد حلّ بالكوفة يريد مدينة السلام، فدعاني وهو خالٍ، فقال: إني دعوتك لأمر يهمني، وقد منعني النوم، فانظر كيف تعمل؟. ثم قصّ عليّ الخبر وقال: اخرج الساعة، فقد أعددت لك الجمازات[1]، وأكثرت لك من الزاد، وضممت إليك مائة غلام، فاسلك البرية، وهذا كتابي إلى أمير دمشق، فإذا دخلت فابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع فجئني به، بعد أن تقيده بهذه القيود ـ ودفعها إلي ـ وإلا فتوكل أنت ومن معك به حتى لا يفوت، وأنفذ الكتاب إلى صاحب دمشق، ليركب في جيشه ويقبض عليه ويسلّمه إليك لتجيء به، وقد أجّلت لك ستّاً لذهابك وستاً لعودك ويوماً لجلوسك، وهذا محمل تحمله في شقه وتقعد أنت في الشق الآخر، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك، وإذا دخلت داره فتفقّدها وجميع ما فيها وأهله وولده وحاشيته وغِلمانه وما يقولون، وقدر النعمة والحال والمحل، واحفظ ما يقول الرجل حرفاً حرفاً من

---

(١) إبل مدربة على العدو السريع.

يوم وقوع عينك عليه إلى أن توافينا به، وإياك أن يفوتك من أمره شيء. أفهمت؟ قلت: نعم. قال: انطلق. قال منارة: فودعته وانصرفت، فركبت الجمّازات وسرت أطوي المنازل، وأسير الليل والنهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين أو لحاجة، إلى أن وصلت دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب المدينة مغلقة، فنمت بظاهرها إلى أن فتح الباب، فدخلت على هيئتي، حتى أتيت باب دار الرجل، وعليه صُفف عظيمة وحاشية كبيرة، فلم أستأذن، ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً جلوساً، فظننت أن الرجل فيهم، فقاموا إليّ ورحّبوا بي وأكرموني. فقلت: أفيكم فلان؟ فقالوا: لا، نحن بنوه، وهو في الحمّام. قلت: فاستعجلوه. فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال، فوجدتها قد ماجت بأهلها موجاً شديداً، فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال، واستربت به، فرأيت شيخاً قد أقبل بزي الحمّام، يمشي في الصحن، وحوله جماعة شبّان وفتيان وأحداث، فعلمت انه الرجل ومن حوله بنوه وبنو بنيه وغلمانه، فجاء حتى سلّم سلاماً خفيّاً، وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة حضرته، فأخبرته بما وجب، فما وفّى كلامه حتى جيء بأطباق وفاكهة فقال: يا منارة كُلْ معنا. فقلت: ما لي إلى ذلك من حاجة. فلم يعاودني، وأقبل يأكل هو والحاضرون. ثم غسل يده ودعا بالطعام، فجاؤوه بمائدة عظيمة لم أر مثلها للخلفاء. فقال لي: يا منارة تقدّم فكل معنا فامتنعت فما عاودني، وأقبل يأكل هو وأولاده، وكانوا عشرة وجماعة كبيرة من أولادهم وقرابتهم وحاشيتهم. وتأمّلت أكله فإذا هو يأكل أكل الملوك. وتأمّلت ذلك الاضطراب الذي كان في الدار ـ وقد سكن ـ ووجدته لا يُرفع من بين يديه شيء كان على المائدة إلا تقسّمه الغلمان، وكنت لمّا نزلت أخذ غلمانه الجمازات وجميع غلماني فعدلوا بهم إلى دار له، فما أطاقوا ممانعتهم،

وبقيت وحدي ليس بين يدي إلا خمسة من العبيد أو ستة وقوف على رأسي، ففكرت وقلت في نفسي: هذا جبار عنيد، وإن امتنع من الشخوص لم أقدر على منازعته بمن معي ولا على الاحتفاظ به إلى أن يلحقني أمير البلد، وجزعت منه جزعاً شديداً مع استخفافه بأمري، وتهاونه بي، وأنه لا يدعوني إلا باسمي، ولا يفكر في امتناعي من الأكل والشرب، ولا يسألني عمّا جئت له، ويأكل مطمئناً، وأنا أفكر، حتى فرغ من طعامه، وغسل يده، واستدعى العود، وتبخر، وصلّى ركعتين، ثم قام فصلّى الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاة حسنة. فلما انفتل من المحراب أقبل عليّ وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فقلت: أمير المؤمنين، وأخرجت الكتاب ففضّه وقرأه، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته، فاجتمع منهم خلق كثير، فلم أشك أنه يريد الإيقاع بي، فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيماناً مغلّظة فيها الطلاق والعتاق والحج والصدقة ألا يجتمع منهم اثنان في موضع وأن يدخلوا منازلهم فلا يظهر منهم أحد إلى أن ينكشف لهم من أمره ما يعملون عليه. وقال لهم: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرني بالمسير إلى حضرته، ولست أقعد بعده ساعة، فاستوصوا بمن ورائي من الحُرم خيراً، وما بي حاجة أن يصحبني غلام، هات أقيادك يا منارة. فدعوت بها، وكانت في سفط، وأحضرت حدّاداً فمدّ رجليه وقُيِّد، وأمرت غلمانه بحمله حتى حصل في المحمل وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي بالرجل، ولم أر أمير البلد ولا غيره، وسرت به وليس معي أحد، فلما صرنا بظاهر دمشق ابتدأ فحدّثني بنشاط وانبساط، حتى انتهينا إلى بستان حسن فقال: هذا البستان لي وفيه غرائب من الأشجار كذا وكذا. ثم انتهينا إلى بستان آخر أحسن من الأول، فقال مثل ذلك، ثم إلى آخر وآخر. ثم انتهينا إلى قرى حسان ومزارع سرية، فأقبل يقول، هذا لي. ويصف كل شيء

من ذلك، فاشتد غيظي، قلت: وعلمت أنه شديد التعجب منك؟ وقال: ومن يتعجّب؟ فقلت: ألست تدري أن أمير المؤمنين أهمّه أمرك، حتى أرسل إليك من انتزعك من أهلك ومالك، وأخرجك وحيداً فريداً مُقيّداً لا تدري ما تصير إليه، وأنت فارغ القلب قليل الفكر؟ فقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، أخطأت فراستي فيك يا منارة، وظننتك رجلاً كامل العقل، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام وعقولهم، فأما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه لي وإخراجه إياي إلى حضرته هذه فإني على ثقة باللّه ﷻ الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك معه لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئته وإرادته، ولا ذنب في عند أمير المؤمنين أخاف من أجله، وبعد فإذا عرف أمري، وعلم سلامة جهتي، وأن الحسدة والأعداء رموني عنده بما لست في طريقه، وتقوّلوا علي الأباطيل، لم يستحلّ دمي، وتحرّج من إذايتي وإزعاجي، وردّني مُكرّماً وأقامني ببلدي، وإن كان سبق في علم اللّه ﷻ أنه تبدر لي منه بادرة سوء، وقد حضر أجلي، وحان سفك دمي على يديه، فلو اجتمعت الملائكة والإنس والجن على صرف ذلك عني ما استطاعوا، وأنّي أتعجّل الغمّ وأتسلّف الفكر بما قد فرغ اللّه منه؟! وأين موضع حسن الظن باللّه الذي خلق ورزق وفطر وأحسن وأجمل؟! وإن أجمل الأمور الصبر والرضا والتفويض والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة، وكنت أحسب أنك تعرف هذا، فإذا قد علمت مبلغ فهمك، فإني لا أكلمك حتى تفرّق حضرة أمير المؤمنين بيني وبينك إن شاء اللّه. ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة بغير القرآن والتسبيح إلا بطلب حاجة أو ما جرى مجراها. حتى شارفنا على الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، فإذا النُجب قد استقبلتني على فراسخ منها يتحسّسون خبري، فلما رأوني رجعوا متقدمين إلى أمير المؤمنين، فأتيت إليها آخر النهار، فحططت رحلي، ودخلت إلى الرشيد،

فقبّلت الأرض بين يديه، ووقفت فقال: هات ما عندك يا منارة، وإياك أن تغفل منه لفظة واحدة. فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور، وما حدّثت به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجهه، حتى انتهيت إلى فراغه من الصلاة والتفاته إليّ ومسألته عن أمير المؤمنين وعن سبب قدومي، ودفعي الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وحاشيته، ويمينه لا يتبعه منهم أحد وصرفه إياهم، ومدّه رجليه حتى قُيد، ووجه الرشيد يسفر، فلما انتهيت إلى مخاطبته لي وتوبيخه إلي لما صرنا بظاهر دمشق قال: صدق والله، ما هذا إلا رجل مكذوب عليه، ولعمري لقد آذيناه وأزعجناه وروّعنا أهله، فبادر بفك قيده وجئني به. فنزعت قيده وأدخلته إليه، فسلّم بالخلافة، فردّ عليه الرشيد ردّاً جميلاً، وأمره بالجلوس، فسأله عن حاله وقال: بلغنا عنك فضل هيبة وأمور أردنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك، فاذكر حوائجك. فشكره الأموي ودعا له وقال: أما حوائجي فما لي حاجة إلا أن يأمر أمير المؤمنين برجوعي إلى أهلي وولدي وبلدي. قال: نفعل إن شاء الله ذلك، ولكن سل حوائجك من صلاح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو من الاحتياج لمثل هذا. فقال: عُمّال أمير المؤمنين منصرفون لي، والعدل شامل في دولته، وأموري مستقيمة، وأحوالي منتظمة، وكذلك أحوال أهل بلدي، وقد استغنيت بعدل أمير المؤمنين عن مسألته شيئاً من ماله. فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك، واكتب إلينا بما يعنّ لك. فودّعه الأموي وولّى. فقال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك وسر به كما جئت حتى توصله إلى المجلس الذي سُقته منه. ففعلت ما أمرني به. ووصل الرجل إلى بلده مكرّماً وانصرفت إلى الحضرة. انتهت.

هذه الحكاية إذا تؤمِّلت بعين البصيرة، فقد تضمنت من لطف اللّه بهذا الرجل، التام العقل، الكامل الفضل، الظاهر الحصافة، الواضح المروءة، ما يطابق اعتقاده الكريم في فضل اللّه، ويوافق ما طوى عليه عقده من التفويض لحكمه والتسليم لأمره، وقد هيّأ اللّه له من انقلاب سطوة الرشيد رأفة، ونقمته رحمة، ما فيه تذكرة لمن غفل عن مشاهدة جميل الصنع من رب العزّة ـ عزّ وجهه.

ومن الحكايات الجامعة للابتلاء الواقع والمتوقع في النفس والمال، ما امتحن به القاضي أبو عمر بن يوسف من ولد حمّاد بن زيد، لما قام القوّاد على المقتدر القيْمة الأولى، مع محمد بن داود الوزير، وقتلوا وزيره العباس بن الحسين، ووجّه محمد بن داود إلى القاضي أبي عمر وصاحبه القاضي أبي المثنّى في جمع العدول بخلع المقتدر لصغر سنّه، ففعلوا وكتبوا فيه كتاباً، وشهدوا فيه وبايعوا لعبد اللّه ابن المعتز، فلما لم يتمّ ذلك، وقُتل ابن المعتز للحين، واستقلّ المقتدر، نُكب القاضي أبو عمر فيمن نُكب مع سائر آله، وقُبض عليه، وسُلِّم إلى مؤنس الخادم، واستُصفِيتْ جميع أمواله، وجرت عليه محنة عظيمة، فذكر عن القاضي أبي عمر قال: لمّا جرى من أمر عبد اللّه بن المعتز ما جرى، حُبستُ، وحبس معي أبو المثنّى القاضي ومحمد بن داود بن الجرّاح الوزير في دار واحدة، في ثلاثة أبيات متلاصقة، وكان بيتي وسطها، وما في وجهي طاقة بيضاء، وكنا آيسين من الحياة، فإذا أجنّنا الليل، حدّثت هذا تارة وهذا تارة، وحدّثاني من وراء الأبواب، ويوصي كل واحد منا الآخر بمن يخلفه، ونتوقع القتل في كل حين. فلمّا كان ذات ليلة، وقد غُلِّقت الأبواب، ونام الموكّلون، ونحن نتحدّث من بيوتنا، إذ أحسسنا فتح الأقفال، فارتعنا، ورجع كل منا إلى مكانه، ففُتح الباب على ابن الجرّاح، وأُخرج، وأُضجع ليُذبح، وهو يقول: يا قوم! ذبحاً كذبح الكبش؟! أين المصادرات؟! أين أنتم عن أموالي أفدي بها نفسي؟! فلا يُلتفت

إليه، وذُبح وأنا أراه من شِقِّ الباب، وقد صار الليل نهاراً من كثرة الشموع. وحملوا رأسه، وطُرحت جثته في بئر في الدار، وغُلِّقت الأبواب. وأيقنت بالقتل، وأقبلت على قراءة القرآن والدعاء والبكاء، فما مضت إلا ساعة يسيرة، حتى سمعت الأقفال تُفتح، فإذا بهم قد جاءوا إلى بيت أبي المثنّى القاضي، فقال له: يقول لك أمير المؤمنين: يا عدو الله! يا كذا، بما استحللت نكث بيعتي وخلع طاعتي؟! فقال: لأني علمت أنه لا يصلح للإمامة. فقالوا له: إن أمير المؤمنين قد أمرنا باستتابتك من هذا الكفر، فإن تبت رددناك إلى محبسك، وإلا قتلناك. فقال: أعوذ بالله من الكفر، ما أتيت ما يوجب كفراً. وأخذ يتهرّش معهم بمثل هذا ولا يرجع عنه. فلمّا يئسوا منه، مضى بعضهم وعاد، ثم أُضجع وذُبح وأنا أراه، وحملوا رأسه، وطرحوا جُثته في البئر. فذهب عليّ أمري، وأقبلت على التضرُّع والبكاء. فلما كان في وجه السحر، إذا بصوت الأقفال، فقلت: لم يبق غيري، وأنا مقتول. واستسلمت. وفتحوا الباب عليّ، وقاموا بي إلى الصحن، وقالوا: يقول لك أمير المؤمنين: يا فاعل، يا صانع، ما حملك على خلع بيعتي؟ فقلت: الخطأ وشقوة الجدِّ، وأنا تائب إلى الله من هذا الذنب. وأقبلت على شبه هذا من الكلام. فمضى بعضهم وعاد وقال: أجب. ثم أُشير إليّ وقال: لا بأس عليك، فقد تكلّم فيك الوزير - يعني ابن الفرات. فسكنت، فجاؤوني بخُفِّي وطيلساني وعمامتي، وجيء بي إلى دار ابن الفرات في دار الخليفة فلما رآني أقبل عليّ، فخاطبني، وهو يعظِّم جنايتي، وأنا أُقِرُّ بذلك، وأتنصَّلُ وأستقيل. فقال: قد وهب أمير المؤمنين دمك، وابتعت منه جُرمك بمائة ألف دينار، ألزمتك إيّاها. فقلت: والله أيها الوزير ما رأيت بعضها مستمتعاً. فغمزني بأن أسكت، وجذبني قوم من وجوه الكُتّاب من ورائي، فأسكتوني. فعلمت أنه أراد تخلّص دمي، فقلت: كلُّ ما يأمر به الوزير

- أعزّه اللّه - نمتثل. فقال: احملوه إلى داري. فحُملت، فقرر أمري على مائة ألف، منها النصف عاجلاً والنصف في حكم الباطل على رسم المصادرات. ووسّع عليّ في المطعم، وأُدخلت الحمّام ورفّهت. فلما خرجت من الحمّام رأيت وجهي في المرآة، فإذا طاقات شعر قد ابيضت في مقدم لحيتي، وقد شِبتُ في تلك الليلة. وأدّيت من المال نيفاً وثلاثين ألف دينار، ونظر لي ابن الفرات في الباقي، وصيّرني إلى منزله، وتخلّص دمي، فمكثت في بيتي سنتين، وبابي مسدود علي، لا أرى أحداً، ولا يراني أحد، إلا في الشاذ، وتوفّرت على درس الفقه، والنظر في العلم، إلى أن منّ اللّه بالفرج. انتهت.

فقد اشتملت هذه الحكاية من الابتلاء المتوقّع في المال والنفس على أعظم ما يكون من ذلك، كما اشتملت من الواقع فيها على الاعتقال والخوف العظيم، وعلى استصفاء المال، والمصادرة المسمّاة في العرف بالنزع. ولكن اللّه لطيف بعباده، فالفرج اللاحق لهذا الرجل من أعجب ما يكون منه موقعاً. لطف اللّه بنا، وجعل أجورنا تحت العافية.

الابتلاء بتسليط الحيوانات المؤذية

وإذا كان الابتلاء بتسليط بعض هذه الحيوانات المؤذيات، فلم يفقد المتعلّق بجناب اللّه رحمة اللّه تكفيه أذى مخلوقاته، وتدفع عنه النكاية من أصناف مؤذياته، لا سيّما إن خلص للّه في الأفعال قصده، وتعيّن لابتغاء مرضاة اللّه عمله، فإن اللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخيّب قصد من علّق باللّه أملا.

وقد يقع الابتلاء بأضعف الحيوانات قوة، وأقلّها قدرة، فيجعل اللّه عاديته عظيمة، وإذايته كبيرة، ليظهر عزُّ اللّه، وما لديه من الجنود، التي لا

يعلمها إلا هو، قال اللّه تعالى : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ [المدثر: ٣١]، وليرجع إليه بالضراعة والابتهال فيما تعجز عنه قوى البشر، من أثر قوي استكبره، أو ضعيف استحقره، ولا ملجأ ولا منجى من اللّه إلا إليه، والدعاء سلاح المؤمن.

قال مطرّف بن مصعب: دخلت على المنصور فرأيته مغموماً حزيناً قد امتنع من الكلام، لفقد بعض أحبته، فقال لي: يا مطرّف! ركبني من الهم ما لا يكشفه إلا اللّه الذي بلاني به، فهل من دعاء أدعو اللّه به، عسى يكشفه عني؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! حدّثني محمد بن ثابت عن عمرو بن ثابت المصري، قال: دخلت في أُذن رجل من أهل البصرة بعوضة حتى وصلت إلى صماخه، وأسهرته ليله ونهاره، فقال له رجل من أصحاب الحسن: ادع بدعاء العلاء بن الحضرمي صاحب النبي ﷺ الذي دعا به في المفازة، وفي البحر، وخلّصه اللّه سبحانه. فقال: وما هو رحمك الله؟ قلت: بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، فسلكوا مفازة، وعطشوا عطشاً شديداً، حتى خشوا الهلاك، فنزل فصلّى ركعتين، ثم قال: يا حكيم! يا عليم!، يا عليّ يا عظيم! اسقنا. فإذا نحن بسحابة كأنها جناح طائر، فنقعت علينا، فمطرت حتى ملأنا كل إناء وسقاء، ثم انطلقنا حتى أتينا على خليج من البحر، ما خيض قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعده، فلم نجد سفناً، فصلّى ركعتين ثم قال: يا حكيم ياعليم! يا عليّ يا عظيم! أجزنا. ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا باسم اللّه. قال أبو هريرة. فمشينا على الماء، فواللّه ما ابتل لنا قدم ولا خُف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف. قال: فدعا الرجل ـ فواللّه ما برحنا حتى خرجت من أُذنه، لها طنين حتى حكّت الحائط، وبرأ. فاستقبل المنصور القبلة، ودعا بهذا الدعاء ساعة، ثم انصرف

بوجهه إلي وقال: يا مطرف قد كشف اللّه عني ما كنت أجد من الهم. ودعا بالطعام، وأجلسني، وأكلت معه. انتهت.

وأنت ترى ما في هذه الحكاية من تفريج اللّه تعالى عن هذا الرجل المبتلى بهذا الحيوان الحقير، ببركة هذا الدعاء الكريم، وكذلك المنصور بعده، فيما كشف اللّه عنه من الهم الذي أهمه.

وقضية المنصور أنسب للصورة التي بعد هذا، ولن يستنكر هذا الفعل من هذا الحيوان الضعيف، فقد أهلك اللّه جبار إبراهيم الخليل به وهو المسمى نمروذ، حسبما حكاه أرباب الأخبار، والقوة للّه تعالى.

وقال ابن أبي زيد: دخلت علقة في فم صبي بدوي، فبذل أبوه للطبيب ابن البراء في إخراجها، فعاناها فما قدر، فلمّا أعياه قال له: هذه استطاعتي، فامض بابنك إلى السبئي لعله يدعو لك فيفرّج عنك. فسار إليه وأخبره بقصّته، والناس وراءه، ثم حرّك شفتيه وقال للفتى: تقدّم. وقرأ بيده على فمه وأومأ بيده إلى العلقة، فسقطت من فيه. انتهت. وهذا من نسبة ما تقدّم. وللّه صفوة يرحم بهم من عباده من يبتليه، فيجعل لهم الفرج بسبب دعائه.

اللهم بابك قصدنا، وقبولك أردنا، وعلى فضلك اعتمدنا، وإلى عزّك استندنا، وفي مرضاتك اجتهدنا، وبهدايتك استرشدنا، فلا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كله، اللهم إنا بك منتصرون، وبعزّك مستظهرون، ولغناك مفتقرون، ومن تقصيرنا معتذرون، ومن ذنوبنا مستغفرون، ولشمول عفوك منتظرون، وفي خفي ألطافك مستبصرون، ولعظيم انتقامك مستحضرون، ولعميم صفحك مستشعرون فآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وصلِّ اللهم على مولانا النبي الأمي القرشي الهاشمي وعلى آل محمد وصحبه وسلّم تسليما كثيراً فأنت اللطيف الخبير.

تتمـــــيم

قد بان بما سبق من التقرير كله ما يجب من موالاة حمد اللّه ومواصلته، وأن الجد في ذلك إلى الغاية لا يبلغ إلى معشار المعشار مما يلزم، فلله الحمد ثم للّه الحمد، بكل حمدٍ حمدَ به نفسه أو حمده به أحد من خلقه لا نُحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه.

الصورة السادسة

●أن يكون الابتلاء في النفوس وما معها واقعاً في الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال: كالموت والعمى والعور والشلل والخرس والصمم وسقوط السن وبطلان الشم، وما هو من الأمراض المزمنة المعذرة البُرْء: كقديم الجذام والبرص، وما أشبه هذا كله، من أنواع الابتلاء، الذي يتعذر زواله، أو يعْوِز إبلاله.

التّسليم والرضا وفي اللّه العوض

والمشروع هنا هو التفويض والتسليم والرضا بما يجري به حُكم العزيز الحكيم، والصبر والتسلّي، والعزاء والتأسي، والاسترجاع لقوله تعالى: **﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين۝ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا للّه وإنا إليه راجعون۝ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾** [البقرة:١٥٥-١٥٧]. فقد أخبرت هذه الآية الكريمة بوقوع الابتلاء الذي قسّمناه إلى واقع في الأنفس والمقتنيات العزيزة على الأنفس، ولا زائد على ذلك إلا المجموع منها، كما قرّر في هذه الآية.

فإن كان المفقود شيئاً لم يجعل اللّه منه عوضاً، ففي اللّه عوض من كل فائت. ومن أقوالهم المشهورة: ووواضح وضوح الشمس أن الإنسان في هذه

الدار غرض للنوائب، ورَمِيَّةٌ للحوادث، فإن سلم في نفسه أُصيب في أعضائه، وإن عوفي في أعضائه امتحن بفقد أحبّائه، وإن قُدِّرت له السلامة من ذلك فالهرم من ورائه. ولذلك قال الشيخ أبو جعفر أحمد بن خاتمة:

هو الدهر لا يبقي على عائذ به فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب في نفسه فمصابه بفقد أمانيه وفقد حبائبه

وصدق ـ رحمه الله ـ وكأنه نظم في ذلك معنى قول أبي الحسن علي بن محمد بن مسرور الدبّاغ فيما حكاه عنه بعضهم قال: سمعته يقول: إن طال عمرك فُجعت بأحبّائك وإن قصر عمرك فُجعت بنفسك. إلا أن ابن خاتمة زاد فوت الأماني. وقال مسلم بن الوليد:

دلّت على عيبها الدنيا وصدّقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني

وهذا ظاهر ، فإن الذي يسترجع الدهر هو الشباب، وهو شيء لا بدل فيه ولا عوض عنه، وإذا ذهب الشباب فعلى الدنيا العفاء، وقال النمر بن تولب:

يود الفتى طول السلامة جاهداً فكيف يرى طول السلامة تُفعلُ؟!

وقال لبيد بن ربيعة:

كانت قناتي لا تلين لعامرٍ فألانها الإصباح والإمساء
وسألت ربي في السلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داء

قول لبيد بن ربيعة في البيت الثاني وقول النمر بن تولب قبلهما من باب واحد، لأن السلامة التي سألها لبيد وودّها الفتى في بيت النمر تستلزم بلا شك وقوع الهرم، وهو داء لا دواء، وإنما يعقبه الموت بلا ارتياب.

وقال حميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصحّ وتسلما
ولن يلبث العصـــران يوم وليلة إذا طلبا أن يُدركا ما تيمـــّما

وذلك المعنى الذي تقدّم للنمر بن تولب ولبيد بن ربيعة هو الـذي قصـد حميد ابن ثور في أول بيتيه، ثم زاد بمعنى بيته الثـاني، وهـو حـق لا مرية فيـه. وذلك المعنى الذي اتفق عليه هؤلاء الشعراء الثلاثة هو الذي أجـاب بـه بعـض الزاهدين، وقد قيل له: كيـف حـالك؟ فقـال: كيـف حـال مـن يفنـى ببقائـه، ويسقم بصحته، ويؤخذ من مأمنه!. والإشارة في ذلك كله إلى عصـر المشـيب الذي هو النذير لما بعده مما لا بدّ منه من لقاء اللّه تعالى. ورحم اللّه القاضي أبا القاسم الشريف الحسني ورضي عن سلفه الطاهر، فلقد أجاد في أبياته:

تقضّى الشـــــباب وفي طيّ ما يجـــيء به الدهـــر حلـو ومـرّ
وقد مرّ أكثر عمــــري سُدىً وأوشك بســـــائره أن يمـــرّ
فدع ما تمنيك هذي الأمـــــاني فإن الأمـــــــاني آلٌ يغـــــرّ
ولا تلهُ بعد حلول المشــــيب لديك فلهوك شـــيء نكـــــر
إذا ما أضاء على العارضـــين ضحى الشيب فهو أصيل العمر

أبدع قاضي الجماعة ـ رحمه اللّه ـ في قوله: أصيل العمر، واليـوم إذا بلـغ الأصيل فلم يبق منه إلا القليل، فإن ادّعى الذي يبلغ الأصيل من عمره أنه يجـد في نفسه قوة فينبغي أن ينشد قول النقاش:

إذا وجد الشيخ في نفســـــه نشاطاً فذلك موت خفـــي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب قبـــل أن ينطــــفي

وما أطبع قول ديك الجن في طروق الحوادث علـى آمـن النـاس منهـا في هذا البيت:

يرقد الناس آمنين وريب الد هر يرعاهم بمقـــــلة لص

الاحتراز من النطق بالسوء والسخط

ومن آكد ما يُتحفّظ منه في هذا الباب المنطق السوء، فإن هذه الابتلاءات إذا وردت صادرة من عين القدرة، أو بسبب من الأسباب الداخلة تحت الاختيار لبني آدم، فليست الجُنّة الواقية منها إلا الصبر، ثم إن المبتلى بها يرى أنها تسليط من ربّه عليه، إما بواسطة من خلقه وإما بدونها، وهو لقصور نظره لا ينفك عن تعليق حقه في الأغلب ممن أصابه، وقد أُشير بذلك في غير هذا الموضع، ونُصّ على ما يجب في تلقي هذين القسمين وما يفضل به أحدهما الآخر، فإنْ وافق سابق القدر في ذلك منطق سوء من المبتلى يجريه الله على لسانه، فذلك أعظم لبلواه، وأصعب له في تقرير شكواه، وكثيراً ما يوهمه الشيطان أنه هو الذي جلب لنفسه هذا البلاء بكلام. ولا يبعد أن يكون سببه في مثل هذا دعاء يدعو به على نفسه، أو أجرى به مجرى يمين يقسم بها لمتطلّب رضاه، وما أشبه ذلك، حسبما حُكي عن المتوكل أنه دخل عليه عبد العزيز بن يحيى المكي فقال: يا أمير المؤمنين! ما أرى أعجب أمراً من الواثق قتل أحمد بن نصر[1] وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دُفن. قال: فوجد المتوكل من ذلك، وساءه ما سمعه في أخيه ثم إنه دخل عليه محمد بن عبدالملك الزيات فقال له: يا ابن عبدالملك! في قلبي من قتل أحمد بن نصر. فقال: يا أمير المؤمنين! أحرقني بالنار، إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً. ودخل عليه هرثمة، فقال: يا هرثمة! في قلبي من قتل أحمد بن نص. فقال: يا أمير المؤمنين!

---

(١) هو أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي المروزي البغدادي، يكنى أبا عبدالله، ضرب الواثق العباسي رأسه بالسيف بسبب إنكاره القول بأن القرآن مخلوق سنة ٢٣١هـ.

قطّعني اللّه إربْاً إربْاً إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً. قال: ودخل عليه ابن أبي دؤاد فقال: يا أحمد في قلبي من قتل أحمد ابن نصر. فقال: يا أمير المؤمنين! ضربني اللّه بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً. قال المتوكل: فأمّا ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة فإنه هرب وتبرأ واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل في الحي فقال: يا معشر خزاعة! هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد. فقطّعوه إربْاً إربّاً، وأما ابن أبي دؤاد فقد سجنه اللّه في جلده. انتهت.

فحقٌ أن يُجتنب مثل هذا أتمّ الاجتناب، ويُتحفظ من الولوج في هذا الباب، ويُسأل من اللّه العافية، والمعاملة بألطافه الخافية.

فإن قضى اللّه بالبلاء، فالصبر والاسترجاع، فقد قال النبي ﷺ: **«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره اللّه عز وجل به ﴿إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾ ، اللهم آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها. إلا أخلف اللّه له خيراً منها»**[1] . وقضية أم سلمة ـ رضي اللّه عنها ـ لمّا توفي عنها زوجها أبو سلمة رضي الله عنه فأمرها النبي ﷺ بالاسترجاع، فامتثلت، ثم قالت في نفسها: ومن خير من أبي سلمة؟! فخلف عليها سيد ولد آدم رسول اللّه ﷺ.

وقال اللّه تعالى: **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ۝ واصبر وما صبرك إلا باللّه ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ۝ إن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾** [النحل:١٢٦-١٢٨] نزلت هذه الآية في قضية حمزة عمّ النبي ﷺ حين قتل ومثّل به المشركون يوم أحد، وكان الذي تولّى قتله وحشي غلام جبير بن مطعم باستدعاء هند بنت

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٨) والنسائي (١٨٢٥) والترمذي (٩٧٧) وأبو داود (٣١١٩) وغيرهما عن أم سلمة.

عتبة إياه لذلك. وهي التي مثّلت بحمزة ﷺ، لأنه أجهز على أخيها الوليد حسبما روى البزار في مسنده، وأمرت ان يُخرج لها من كبد حمزة قطعة لاكتها بفيها، فلم تستطع ابتلاعها فلفظتها، وحين وقف النبي ﷺ على ما بحمزة من التمثيل غاظه ذلك، وعزم أن يمثّل بسبعين من المشركين إن أظفره اللّه بهم في موطن آخر. والقضية مشهورة في السير وغيرها، وإنما نقلتها بالمعنى فأمر اللّه تعالى بالعدل أو بالعقاب بمثله، لما قال النبي ﷺ: **«لأمثّلنّ بسبعين منهم»**، ثم أعلم بأن الصبر عن ذلك خير للصابرين، مؤكداً ذلك بالقسم عليه، حتى يكون لنفوسنا الضعيفة توثقة، ولقلوبنا الوجلة طمأنينة، ثم أمر سبحانه نبيه الكريم المنزلة لديه بالصبر، وفيه ﷺ أعظم الأسوة لأمته.

الصبر والتّسلي بفقد النبي ﷺ والأعزاء

وإذا كان الفقيد حمزة سيد الشهداء، والفاقد محمداً خاتم الأنبياء، والأمر بالصبر على هذه الرزية ربّ الأرض والسماء، فلن يعظم بعد ذلك مصاب هالك، ولا اعتبار بوجد متمم على مالك، فقد قال: النبي ﷺ: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حتى إن الرجل يبتلى على قيد دينه»**[1] وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا اللّه لعلكم تفلحون**﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله تعالى: ﴿**إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ [الزمر: ١٠] وما أشرف هذه الموعظة. ولقوله مخاطباً لنبيه الرفيع القدر لديه: ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**﴾ [الأحقاف: ٣٥] الذين هو منهم بالمنزلة العليّة من التخفيف من ثقل الصبر، والتسلية عمّا يلقى في ذلك

(١) بوب به البخاري فقال في كتاب المرضى باب أشد الناس بلاءً وذكره وأخرجه أحمد ١٧٢/١

من عظيم التحمّل له، ما يتحقق منه كريم العناية الربانية بجانب النبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**﴾ [الطور: ٤٨].

اليقين باللّه يخفف ثقل الصبر

وحقيق أن يخفّ على الموقن ثقل الصبر، إذا طوى عقده على أنه بعين اللّه. والشيء يذكر بالشيء، ويحكى أن ذا الوزارتين أبا عبد اللّه الخطيب ـ رحمه اللّه ـ كان قد شرع في بناء جنته المعروفة بالبستنة خارج غرناطة ينكشف منه على موضع جارٍ له ذاهلاً عن قبح ذلك، ومستخفاً به، وتردّد ذلك الجار برفع ظلامته للسلطان إذ ذاك، فلم يشكه لمحل ابن الخطيب منه، فلقي ذو الوزارتين المذكور ذلك الرجل عقب آخر رفع تظلّم فيه للسلطان منه، فلم يصدر عليه جواب، وهو ذاهب إلى موضعه ذلك المنكشف عليه فيه، فقال له ابن الخطيب كالمزدري به: هل رفعت فيّ؟ قال: نعم. قال: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم: ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**﴾ فصرخ الشيخ ابن الخطيب صرخة عظيمة وقال: حسبي اللّه. وثنى عنان دابّته راجعاً إلى بستنته، فلم يبرح منها حتى هدم ما كان قد انبنى، وعجب الصانع البناء ومن حضر منه.

فتأمّل هذا الجار المضطهد بالجاه كيف اجتنى ثمرة صبره سريعة، وحمد عاقبة ثقته باللّه عاجلة، وأذعن له من كان قد استخفّ به بجاهه، واستضعفه بقوته، وإنها للشيخ رحمه اللّه لمنقبة تدلُّ على أوبته للحق، واستمساكه منه بحظ وفي استحسان الصبر في موضعه يقول الشاعر:

ما أحسن الصبر في مواطنه — والصبر في كل موطن حسنُ
أحسن من فعله عواقبه — عاقبة الصبر ما لها ثمن

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : «الصبر مطية لا تكبو وسيف لا ينبو».
وقال ابن المعتز: «الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت بها».

وفي الصبر حيث لا يغني سواه يقول أبو العتاهية:

ليس لمن ليست له حيلة | موجودة خير من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا | واجر مع الدهر كما يجري
من سابق الدهر كبا كبوةً | لم يستقلها آخر الدهر

وقال بعض حكماء العرب : «المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان».

قال أكثم بن صيفي: «حيلة من لا حيلة له الصبر».

ومن أمثال العرب: «فقد الصبر أدهى المصيبتين». قال الميكالي في هذا المعنى:

يصاب الفتى في أهله برزية | وما بعدها منه أجل وأعظم
فإن يصطبر فيها فأجر موفّر | وإن يك مجزاعاً فوزر مقدّم

ما نزل بلاء إلا بذنب فالتوبة واجبة

ومن قدّر مغفرة اللّه قدرها، وتحقّق من نفسه الأمّارة ذنبها العظيم ووزرها، فحقٌّ عليه أن يلهج بمغفرة اللّه إذا ورد عليه سبب تحصيلها، وأن يوطن نفسه على الصبر طمعاً في تسويغ هذه المنة الجسيمة وتخويلها. وقال النبي ﷺ: **«الإيمان نصفان: نصف في الصبر ونصف في الشكر»**. وهذا ظاهر في صحة ذلك التقسيم الذي قسّمناه قبل، حيث جعل النبي ﷺ الصبر نصف الإيمان، لأن الإنسان لا يخلو من إحدى الحالتين، فحالة الابتلاء تطلبه بالصبر، وحالة العافيه تطلبه بالشكر، فوضح وجه ذلك التقسيم، وجريانه على الصراط المستقيم،

والحمد لله. وقال ﷺ: **«الإيمان هو الصبر والسماحة»**[(١)]. وهذا قريب مما سبق في قضية الصبر، وأما السماحة فهي ـ والله أعلم ـ مما عُبِّر فيه بلازم الشيء عنه، لأن حالة العافية التي تطلب الشكر تلزمها السماحة دائماً، والله أعلم.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول الله تعالى ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»**[(٢)] وهذه الموعدة من رب العزة كريمة، وهي على قدر هذه المشقة الفادحة التي سمّاها الله مصيبة.

وفي الحض على الصبر يقول الوزير أبو بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ـ رحمه الله ـ:

تصبّر إذا ما أدركتك مُلمـــّة ... فصنع إله العالمـــين عجيب

وما يدرك الإنسان عار بنكبة ... تنكب فيها صاحب وحبيب

وضاع لبعضهم ولد صغير ثلاثة أيام، فقيل له: لو سألت الله أن يردّه عليك! فقال: اعتراضي على الله فيما قضى أشد عليّ من ذهاب ولدي. انتهت. وهذا كله من باب واحد. ولمّا دخل الزنج البصرة، فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله دفعهم! فسكت، ثم قال: إن لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلته ولكن لا يفعلون. قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب الله. انتهت.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨٥، ٥/٣١٩.

(٢) البخاري (٦٤٢٤) وغيره.

وإلى هذا يرشد تغاضي النبي ﷺ عن قومه لمّا بعث اللّه له ملك الجبال مع جبريل عليه السلام ليطبق عليهم الأخشبين إن أراد ذلك، والقضية مشهورة. كما أن دعاءه على أهل القليب الذين قصمهم اللّه ببدر يشعر بخلاف ذلك، ولعل دعاءه على أولئك القوم كان لخاصّة فيهم من العتو والاستكبار، كدعاء نوح عليه السلام على قومه بقوله: ﴿ **ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً۝ إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً**﴾ [نوح:٢٦ ــ ٢٧] واللّه أعلم.

التعزي بمصاب المسلمين بالنبي ﷺ

ومما يرشد إلى التعزّي قول النبي ﷺ ليعزّي المسلمين في مصائبهم: «**المصيبة بي**» (١) وحقيق من نزلت به مصيبة من فقد من يعزّ عليه أن يتعزى بالمصيبة في النبي ﷺ، وإذا تأمّل ذلك حق التأمل، فإن مصيبته تخفّ عليه غاية الخفّة، وإلا فكم بين المصيبة بأكرم الخلق على ربّه، والرحمة المهداة إلى خلقه، الذي جعله اللّه للأنام هادياً، وإلى داره داعياً، وعلى نجاتنا حريصاً، وبنا رؤوفاً رحيماً، وفينا يوم القيامة شفيعاً، وإلى كافتنا بشيراً ونذيراً، فهدانا اللّه به إلى الحق، وأخذ بحجزنا عن النار، وبيّن لنا ما أحل اللّه لنا وما حرّم، وأرشدنا إلى التي هي أقوم، وخلّف فينا كتاب اللّه العزيز، وقرآنه المبين، نوراً فارقاً بين الحق والباطل، شاهداً بأنه مُنزّل من عند اللّه، صادعاً إلى اليوم بمعجزته العظمى ــ وبين المصيبة بولد أو زوج لعلّهما ممن قال اللّه فيهما: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم**﴾ [التغابن: ١٤] أو والد أو أمّ أو

---

(١) أخرجه مالك في موطئه مرسلاً (٥٥٧) عن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد وأخرجه ابن ماجة عن عائشة بسند فيه موسى بن عبيد (١٥٩٩).

أخ أو عمّ!. وإن كانت سبقتهم ما عسى أن تكون، والمصلحة فيهم ما عسى أن تفرض، والمحبة لهم ومنهم منتهية إلى الغاية القصوى، ومتطابقة منهم العلانية والنجوى! فكم جاءت من أمثال هؤلاء عظائم من الآفات! وكم انقلبت منهم إلى عكسها صحيح المودّات! وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو العباس بن العريف الصوفي رحمه الله:

إذا حلّت بساحتك الرزايا ... فلا تجزع لها جزع الصبي

فإن لكل حادثة عـــزاءً ... بما قد كان من فقد النبي

وقال ﷺ: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»[1]. وإن في فقد النبي ﷺ ابنه إبراهيم لسلوة عن كل مفقود، وإن في وجده به لغنىً عن كل موجود، ولنا فيه الأسوة الحسنة، ولنا به السنة التي تحط بها السيئة وتُضاعف الحسنة.

وقد عزّت المسلمين في النبي ﷺ الملائكة، فقالت: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركات».

ومما يؤثر من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ليست مع العزاء مصيبة».

وإن كان المفقود الوالدين فقد فقد هو ﷺ والديه في حال الطفولة، وكم منا من تمتع بهما إلى زمان الكهولة، وفي الله عوض من كل ذاهب، وما وهب الله من عظيم الأجر أفضل هبة من أكرم واهب، وقال ﷺ: « **إذا اشتد**

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) وغيرهما عن أنس رضي الله عنه.

حزن أحدكم على هالك فليذكرني». وهذا نحو ما سبق معناه، وتبين لفظه وفحواه وقال المتنبي:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب

وقال بعضهم:

لا بد من فقـــد ومن فاقـــد هيهات ما في الناس من خالد
كن المعـــزّي لا المُعـــزّى به إن كان لا بد مـن الواحـــد

وقال الأمير شمس المعالي: آخر الأحياء فناء، والجزع على الأموات غناء، وإذا كان ذلك كذلك، فلم الهالك على هالك.

وقال أبو نواس:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدو في ثياب صـديق

ولأبي العباس التطيلي:

توهّم كل شيء مستحـــيلاً وقد علّمتك الصبر الجمــيلا
وهل تصبو إلى قصر مشـيد إذا استشعرته طللا محـــيلا
تشيّع بالبـــكا ميـــتاً فميـــتاً ولا وأبيك ما يغني فتـــيلا
وقد أفني الحمام الدهر نوحاً ولكن سله هل رجع الهديلا

وإذا كان الخوف على النفس والإشفاق من الموت، فإن في توطين النفس على عموم هذا المخوف بجميع البرية، وشموله لكل ذي روح من الخليقة، ما يهوّن الخطب، ويسهّل الصعب، ثم إن العمر وإن طال، والحياة وإن لذّت، فإن الموت غاية كل حيٍّ، ومنتهى كلِّ نفسٍ، ويرحم اللّه أبا العتاهية، فقد أجاد في قوله:

المرء في تأخير مدّته   كالثوب يَخلق بعد جدّته
وحياته نفس يُعدُّ له   ووفاته استكمال عِدّته
ومصيره من بعد أُنسته   بالناس ظُلمة بيت وحدته
من مات مال ذوو مودّته   عنه وحالوا عن مودّته
عجباً لمنتبه يضيّع ما يحتاج   فيه ليوم رقدته
أزف الرحيل ونحن في لعب   ما نستعدُّ له بعُدّته
ولقلّما تُبقي الخطوب على   أثر الشباب وحرٍّ وقدته

وكتب شمس المعالي إلى الصاحب يعزيه: أطال اللّه بقاء الصاحب، طعمان حلو ومر، والأيام ضربان عسر ويسر، والخلق معروض على طوريه، ومقسوم الأحوال على دوْريْه، والصاحب من العلم يتلوّنه ما بين تخشّنه وتليّنه، على محلِّ السِماك، بل فلك الأفلاك، ممن تخوّله بالتبصير، وتناوله بالتصيير، إذا حزبته حازبة، أو نابته نائبة، كان كمن أمدّ النار بالشرر، وأهدى الضوء إلى القمر، وصبّ في البحر مرعه، وأعار سير الفلك سرعة، ولكن التسلية اسم متبع، وتصريف القول بها منتفع، ولا مسلاة لريب المنون، وشوب الدهر الجون، أبلغ من يقينه بأن الموت نقلان محتوم، وبه نفس كل إنسان مختوم، وعلى أنه يصلب عودا من أن تؤثر فيه أنياب النوائب (وأعلى) من أن يحمده انصباب المصائب، وأرزن من أن يتماسك بالتعزية، إذا ألّم به ألم المرزية، فالأولى بمعزّيه أن يميل إلى التخفيف والتقليل، ويجتنب الإكثار والتطويل، جعل اللّه هذا الرُزء لمصائبه فدا، ولا أطال للنوائب عليه يدا.

وقال صالح المرّي لرجل يعزّيه: إن لم تكن مصيبتك أحدثت لك في نفسك موعظة فمصيبتك بنفسك أعظم.

ومما يرشد إلى التأسي قوله تعالى: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ [الزمر:٣٠] فظاهر من هذه الآية الكريمة قصد التأسي في الموت، وأنه ليس ببدع في الوجود.

وما أطبع قول ابن سكرة الهاشمي:

والموت أنصف حين عدّل قِسمة   بين الخليفة والفقير البائس

وقوله تعالى: ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزي اللّه الشاكرين**﴾ [آل عمران: ١٤٤] وفي الآية الكريمة وفيما بعدها من هذا القصد ما لا يخفى وجهه، ولا يشكل معناه، وفي قوله تعالى: ﴿ **وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربّيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللّه وما ضعفوا وما استكانوا واللّه يحب الصابرين۝ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين۝ فآتاهم اللّه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة واللّه يحب المحسنين**﴾ [آل عمران:١٤٦ ـ ١٤٨] من التسلية عمّا وقع من كائنة أُحد، من التمحيص العظيم، ومن الإرشاد للتأسي بمن سبق من أتباع الأنبياء ـ صلوات اللّه عليهم ـ فيما ابتلاهم به، من مثل ذلك ما أخذه الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ مأخذه الذي قُصد به.

و لله در الخنساء في قولها:

ولولا كثرة الباكين حولي   على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن   أُعزّي النفس عنه بالتأسي

وقد زاد ابن الرومي في هذا المعنى واستحقه فقال:

رأيت الدهر يجرح ثم يأسى   أيؤسي أو يعوِّض أن ينسّي؟
أبت نفسي الهلاع لرُزء شيء   كفى شجوا لنفسي رزء نفسي

أجزع وجـــدة لفراق إلفٍ وقد بوأتها لحلـــول رمسي

وحكى يحيى بن سعيد الأنصاري قال: مات لنا شيخ ببغداد، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزّونه، فجاء أبو العتاهية إليه، وبه جزع شديد، فعزّاه، ثم أنشده:

لا تأمن الدهر والبس لكل حـــالٍ لباسا
ليدفـــــــننا أناس كما دفـــنّا أناسا

قال: فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبي العتاهية. أقول: ويحق أن يحفظ، فإن فيه إرشاد للتأسي.

وما أعجب رسالة الإسكندر إلى والدته في هذا الغرض، فذكروا أنه كتب إليها فيما كتب به أن قال: فكّري يا أمّ الإسكندر في أن ما تحت الكون والفساد داثر فانٍ، وإن ابنك لم يكن يرضى لنفسه بأخلاق الصغار من الملوك، فلا ترضي لنفسك بأخلاق الصغار من أمهات الملوك، ومُري ببناء مدينة عظيمة عند ورود الخبر عليك بموت الإسكندر ابنك، وابعثي في أن يُحشر إليك الناس من جميع بلاد لونيه واروقي وآسيه ليوم معلوم، فيكون ذلك اليوم جمعهم في تلك المدينة للطعام والشراب والسرور، ثم نادي فيهم ألاّ يوافيك فيها من أصابته مصيبة قط، ليكون ذلك مأتم ابنك الإسكندر بالسرور خلاف مآتم الناس بالحزن. فلما ورد عليها خبر موت الإسكندر أمرت بذلك، فلم يُوافها أحد للوقت الذي حدّت، فقالت: ما بال الناس تخلّفوا عنّا مع ما قدّمنا إليهم بالموافاة إلينا للتطاعم؟ فقيل لها: قد أمرت ألاّ يوافيك أحدٌ أصابته مصيبة، وكل الناس أصابتهم مصائب، فلذلك لم يوافك أحد. فقالت: يا

اسكندر! ما أشبه أواخرك بأوائلك! لقد أحببت أن تعزّيني عن المصيبة بالتعزية الكاملة، إذ ليست المصائب ببدع، ولا مخصوصة بنا دون أحد من البشر.

ومن كتاب الخطيب قال أبو العباس المبرّد: تُوفّيت والدة القاضي إسماعيل، فركبت إليه أعزّيه وأتوجّع له، فألفيت عنده الجُلّة من بني هاشم والفقهاء والعدول ومستوري بغداد، ورأيت من ولهه ما أبداه، ولم يقدر على ستره، وكل يعزّيه، وقد كاد لا يسلو، فلما رأيت ذلك منه ابتدأت بعد التسليم فأنشدته:

لعمري لئن غال ريب الزما ... ن فساء فقد غال نفساً حبيبة
ولكنّ علمي بما في الثوا ... ب عند المصيبة يُنسي المصيبة

فتفهّم كلامي واستحسنه ودعا بداوةٍ وكتبه، ورأيته بعد قد انبسط وجهه، وزال عنه ما كان فيه من تلك الكآبة وشدة الجزع، وأنشد القاضي إسماعيل:

لا تعتبنّ على النوائب ... فالدهر يُرغم كل عاتب
واصبر على جريانه ... إن الأمور لها عواقب
ولكل صافية قذىً ... ولكل خالصةٍ شوائب
كم فُرجةٍ مطويّةٍ ... لك بين أثناء النوائب

وكتب الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى أبي الفتح ذي الكفايتين ما نصّه: حشْوُ هذا الدهر الخؤون أحزان وهموم، وصفوه من غير كدر معدوم، والأستاذ ـ أدام اللّه عزته ـ يتأمّل صروفه وأيامه، ويستشف أحواله وأحكامه، فإن وجد أحداً سلم من فقد، أو عري من وجد، فقد لقي

خلاف المعهود، وحق له فرط الأسى على المفقود، وإن علم أن الباقي للماضي تبع، قدّم من السلوّ والصبر ما لا يُذمُّ المصير إليه آخر الدهر.

وكتب شمس المعالي أيضاً إلى محمد بن عبد اللّه بن شكّار في الغرض: الدنيا ـ أطال اللّه بقاء الشيخ ـ غُرّتها النوائب، وقصّة متضمنها العجائب، أولها رجاء كالسراب، وآخرها رداء من تراب، والأيام والليالي مطيّات البلايا، بتجدّدها تبلى الأجسام، وبتردّدها ترْدى الأنام، والدهر داء ليس له دواء، ولا حياء لديه ولا وفاء، قاصم الأصلاب، وقاسم الأسلاب، ما حمى أحداً إلا خذله، ولا ربّى ولداً إلا قتله، شيمته أن ينقل من محبوب الفِناء إلى مرهوب الفناء، ويبدّل لذّة الحياة بغُصّة الوفاة، والناس في أحلام غفلة وفي ظلام جهالة، يظنون أن كونهم في الدنيا ركون، وأن رحيلهم عنهم ما لا يكون، ولا يدرون أنهم أبداً راحلون، وعلى مناكب الليل والنهار سائرون، وأن ذلك أعمار لهم تمضي، وأنفاس تنقضي، ومن عرف هذه الأحوال معرفة الشيخ لبس الدهر على أخلاقه، ولم يجزع من مُرِّ مذاقه، وهان عليه ألم المصائب، وخفّ لديه ما ألّم به من النوائب، واكتفى من مخاطبة معزّيه بالنبذ اليسير، واستغنى بفضل علمه عن التذكير والتبصير.

وفيما يناسب ذلك من نوائب الدنيا يقول أبو العتاهية:

عجباً أعجب من ذي بصر يأمن الدنيا وقد أبصرها

إن للإنسان يوماً صرعةً ينبغي للمرء أن يحذرها

كم قرونٍ حضرتنا قد مضت ونسينا بعدها محضرها

صورٌ كانت أناساً قبلنا ثم أفناها الذي صوّرها

في سبيل اللّه ما أغفلنا نأمن الدنيا وما أغدرها

إنما الدنيا كفـــــيءٍ زائلٍ أحمــــد اللّـــه كذا قدّرها

ومن أمثال العرب: من حدّث نفسه بطول البقاء فليوطن نفسه على المصائب. ومن أمثالهم أيضاً: هوِّن عليك ولا تُولع بإشفاق.

وحكى الأصمعي قولهم: إن في الشر خياراً قال: ومعناه أن بعض الشر أهون من بعض.

وهذا كله من وجه التأسي، وقد نظمه أبو خراش فقال:

حمدت إلهي بعد عُروة إذ نجا خراشٌ وبعض الشر أهون من بعض
بلى إنها تعفو الكلـــوم وإنما يوكل بالأدني وإن جـــلّ ما يمضي

وقال أبو خراش يرثي أخاه عروة:

تقول أراه بعد عروة لاهـــياً وذلك رزء لو علـمت جليلُ
فلا تحسبي أني تناسيت عهده ولكن صـــبري يا أُميم جميل
ألم تعلمي أن قد تفرّق قبلنـا نديمـا صــفاء مالك وعقيل*

وقال العتّابي:

قلت للفرقدين والليل ملـــق سود أكنـــافه على الآفاق
ابقيا ما بقيتما ســوف يُرمى بين شخصيكما بسهم الفراق

وما يرشد إلى التأسي قوله تعالى: ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ۝ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون۝**﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥] لمواجهة النبي ﷺ. فهذا الخطاب من حُسن التسلية وفضل التلطّف ما دلّ على شرف المنزلة واعتلاء القدر وجلالة الرتبة واعتلاء الشأن. وقوله تعالى: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفّوْن أجوركم يوم**

---

* صفاء وعقيل: نديمان يضرب المثل فيهما بطول الألفة والتلازم.

القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [آل عمران: ١٨٥]. فتأمّل هذه القضية المسوّرة بـ " كل " في الآيتين الكريمتين، فإنها توقظ من الغفلة، وتنبّه لسلوك سبل السلوة، فإن البقاء في هذه الدار الفانية، إذا كان لا مطمع فيه لأحد، فعلام الجزع من شيء لا بد منه؟! وفي توطين النفس على ملاقاة الأمور التي لا انفكاك عنها تخفيض من المشقة الباهظة.

وفي قوله: ﴿ **وإنما توفَّوْن أجوركم يوم القيامة**﴾ إلى آخر الآية، إرشاد لما ينبغي أن يعلق القلب به، وتُخوّف النفس منه، فإن الآخرة التي منها يوم القيامة، الذي توفّى فيه الأجور، على طرف النقيض من الحياة الدنيا التي هي متاع الغرور. والفائز الذي أُدخل الجنة وزحزح عن النار، شاهدة بأن من كان على ضد حالته في غاية الخَسار، قال اللّه: ﴿ **الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين**﴾ [الزمر: ١٥].

وقال ابن مناذر:

وأرانا كالزرع يحصده الدهر ... فمن بين قائم وحصيد
وكأنّا للموت ركب مكِبّون ... سراعٌ لمنهل مورود

وقال:

نحن بنو الدنيا فما بالنا ... نعافُ ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوّه ... وهذه الأبدان من تُربه
يموت راعي الشاء في جهله ... ميتة جالينوس في طبِه

وحكى أبو العتاهية قال: ماتت بنت للمهدي، فحزن عليها حزناً شديداً، حتى امتنع من الطعام، فقلت أبياتاً أعزّيه فيها، فوافيته فيها، وقد سلا

وضحك وأكل وهو يقول: لا بد من الصبر على ما لا بد لنا منه، ولئن سلونا عمّن فقدناه ليسلونّ عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه. فلما سمعت ذلك منه قلت: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أنشدك؟ قال هات. فأنشدته.

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما | وكل غضٍّ جديدٍ فيهما بال؟!
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته | كم بعد موتك أيضاً عنك من سال؟!
فإن كل نعيم أنت ذائقه | من لذّة العيش يحكي لمعة الآلِ
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى | ما شئت من عِبرٍ فيها وأمثالِ
ما حيلة الموت إلا كل صالحة | أو لا فما حيلة فيها لمحتالِ

فقال لي: أحسنت ويحك، وأصبت ما في نفسي، وعظت وأوجزت. ثم أمر لي بكل بيت بألف درهم. انتهت.

وقال تاج الدين في حكمه: ليخفّف عنك البلاء علمك بأنه سبحانه هو المبتلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عوّدك حسن الاختيار.

وقال موسى الهادي لإبراهيم بن قتيبة، وقد توفّي له ابن، فجزع، وحزن عليه حزناً شديداً: يا إبراهيم! أسرك وهو عدو وفتنة، وأحزنك وهو صلاة ورحمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين! ما بقي مني جزء كان في حزن إلا قد امتلأ فرحاً، ولا عضو فيه ذل إلا وقد اكتسى بك عزاً.

ومثل ذلك ما كتب به رجل إلى بعض إخوانه يعزّيه بابنه: أمّا بعد.. فإن الولد على والده ما عاش حزن وفتنة، فإذا قدمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه، ولا تضيّع ما عوّضك اللّه من صلاته ورحمته.

وعزّى رجل رجلاً فقال: عليك بتقوى الله والصبر فيه، يأخذ المحتسب وإليه يرجع الجازع.

وعزّى رجل رجلاً فقال: أين من كان لك في الآخرة أجراً كبيراً ممن كان لك في الدنيا سروراً ؟!

ودخل بعض البلغاء على أحد الأمراء، وقد مات له ولد، وولد له آخر، فقال: أيها الأمير! سرّك الله فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعل ذلك للأجر وهذا للشكر.

وحكي أن الشافعي بلغه أن عبد الرحمن بن محمد - رحمه الله - مات له ابن فجزع عليه عبد الرحمن جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي: يا أخي! عزّ نفسك بما تعزّي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبح من فعل غيرك، واعلم أن بعض المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟! فتأمّل لحظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لك بالصبر أجراً. وكتب إليه:

إني معزّيك لا إني على ثقةٍ   من الخلود ولكن سنة الدين
فما المعزَّى بباقٍ بعد ميّته   ولا المعزِّي وإن عاشا إلى حين

وعن الحسن البصري - رحمه الله - أن رجلاً جزع على ولده، وشكا ذلك إليه فقال: كان ابنك يغيب عنك؟ قال: نعم. كانت غيبته أكثر من حضوره. قال: فأنزله غائباً، فإنه لم يغب عنك غيبة إلا أُجر لك فيها أعظم من هذه. فقال: يا أبا سعيد! هوّنت عليّ وجدي على ابني.

وقام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال: رحمك الله يا بنيّ، فقد كنت بارّاً مولوداً، وباراً ناشئاً، وما أُحبُّ أني دعوتك فأجبتني. وإن

في هذه القضية من التحقيق بالرضا، والتفويض للّه فيما قضى ما لا يصدر إلا عن مثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وعن مسلمة قال: لما مات عبد الملك بن عمر كشف أبوه عن وجهه وقال: رحمك اللّه يا بُني وقد سررت بك يوم بُشِّرت بك، ولقد غمرت سروراً بك، وما أتت عليّ ساعة أنا فيها أسرُّ من ساعتي هذه، لما رأيت إن كنت تدعو أباك إلى الجنة. انتهت.

وهذا نحو ما تقدّم عنه رضي الله عنه في النقل قبله من التسليم للّه في حكمه، والرضا بما سبق في علمه، والذكر، ليقيده بأشرف مناقبه، وأكرم محاسنه.

والشيء قد يُتذكر بنقيضه كما يُتذكر له بنظيره. مات للعُتبيّ ابن فجاءه بعض معاشريه يعزّيه فقال: رحم اللّه ابنك، فواللّه ما حبّس دوراً، ولا ردّ تحية، ولاتبرّم من رطل، ولا فرّ من دعوة، ولا سبق إلى جذر علام، ولا صغى في قمار، ولا عربد على جليس. فقال العتبي: واللّه لقد سلّيتني عنه. انتهت. ويحق أن يُتسلّى عمّن هذه صفته.

وحكي أن الفضل بن سهل أصيب بابن له يقال له العباس، فجزع عليه جزعاً شديداً وعزّاه الناس فيه فلم يتعزّ، فدخل عليه إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي فقال له لمّا مثل بين يديه:

خير من العباس أجرُك بعده والله خير منك للعباس

قال: صدقت. ووصله وتعزّى.

ولمّا ماتت دريرة جارية المعتضد، وكانت مكينة عنده، جزع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيد اللّه بن سليمان: مثلك يا أمير المؤمنين تهون عليه

المصائب، لأنك تجد من كل فقيد خلفا، وتنال جميع ما تريد من العوض، والعوض لا يوجد منك، فلا ابتلى اللّه الإسلام بفقدك، وعمره يطول ببقاء عمرك، وكأن الشاعر عنى أمير المؤمنين بقوله:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد   لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته.

وقيل لأعرابي: إنك تموت. فقال: إلى أين يُصار بي؟ قيل: إلى اللّه تعالى. قال: وما لي أكره من لم أر الخير قط إلا من عنده.

وقال عبد اللّه بن الزبير لمّا بلغه قتل أخيه المصعب: بعد حمد اللّه والثناء عليه والصلاة على نبيه ﷺ، إنه أتانا خبر قتل المصعب، فسررنا واكتأبنا، فأما السرور فلما قُدِّر له من الشهادة، وخيّر له من الثواب، وأما الكآبة فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه، فإنا واللّه ما نموت موتاً جبحاً، كميتة ابن أبي العاص، وإنما نموت قتلاً بالرماح، وقعصاً تحت ظلال السيوف، فإن هلك المصعب، فإن في آل الزبير خلفاً. انتهت.

والتجلّد في أمثال هذه النوائب من شيم الرجال وأوصاف الكمال، وبه تقلّ شماتة الأعداء وحسرة الأدواء. قال أبو ذؤيب الهذلي:

وتجلّدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغّبتها   وإذا تُردّ إلى قليل تقنع

وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقال بدر الكبير مولى المعتضد لمّا أرادوا قتله: ما أحد أعظم عندي من المكتفي، أما أبوه فألحقني بشرف الدنيا أما هو فأوجب لي الجنة. يريد أنه قتله بريئاً.

وفي الحكايات عمّن نزل به الموت فصبر، تثبيت للنفوس وتشجيع للقلوب. قال أبو العتاهية: حبسني الرشيد لما تركت قول الشعر ـ حسبما ثبت النقل عنه ـ قال: فأدخلت في السجن وأُغلق الباب عليّ، فدهشت كما يدهش مثلي لتلك الحال، فإذا أنا برجل جالس في جانب الحبس مقيّد، فجعلت أنظر إليه ساعة وهو ينظر إليّ، ثم تمثّل:

تعوّدت مسّ الضر حتى ألفته　　وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيّرني يأسي من الناس راجياً　　بحسن صنيع اللّه من حيث لا أدري

فقلت له: أعدْ أعزّك اللّه هذين البيتين. فقال: ويلك أبا العتاهية ما أسوأ أدبك، وأقلّ عقلك، دخلت عليّ السجن، فما سلّمت تسليم المسلم على المسلم، ولا سألت مسألة الحر للحر، ولا ترجعت ترجع المبتلى للمبتلى، حتى إذا سمعت شيئاً من الشعر، الذي لا فضل فيك غيره، ولم تصبر عن استعادتهما ولم تقدّم قبل مسألتنا عنهما عُذراً لنفسك في طلبهما!. فقلت: يا أخي! إني دهشت لهذا الحال، واعذرني متفضّلاً، بذلك. فقال: أنا واللّه أولى بالدهشة والحيرة منك، لأنك حبست أن تقول شعراً به ارتفعت وبلغت، فإذا قُلتَ أمنتَ، وأنا مأخوذ بأن أدلّ على ابن رسول اللّه ﷺ وابنه ليُقتل أو أُقتل دونه، واللّه لا أدلّ عليه أبداً، والساعة يُدعى بي فأُقتل، فأينا بالدهش أحق؟! فقلت: أنت واللّه ـ سلّمك اللّه وكفاك ـ ولو علمت أنّ هذه حالك ما سألتك. قال: فلا تبخل إذاً. ثم أعاد البيتين حتى حفظتهما. قال: فسألته من هو، فقال: أنا حاضر داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد. ولم نلبث أن سمعنا صوت الأقفال، فقام فسكب عليه ماء كان عنده في جرّة، ولبس ثوباً نظيفاً، ودخل الحرس والجند معهم الشمع، فُخرجنا جميعاً، وقُدِّم قبلي إلى الرشيد، فسأله عن أحمد

ابن عيسى، فقال: لا تسألني عنه واصنع ما أنت صانع، فلو أنه تحت ثوبي هذا ما كشفته عنه. فأمر بضرب عنقه، ثم قال: أظنك قد ارتعت يا إسماعيل؟ فقلت: دون ما رأيت تسيل منه النفوس. فقال: رُدّوه إلى محبسه. واستحسنت البيتين وزدت فيهما:

إذا أنا لم أقبل من الدهر كلما   تكرّهت منه طال عتبي على الدهر

فاعجبْ من جميل صبر هذا الرجل، ووفائه مع صاحبه، والموت لا بدّ منه.

ومن عجيب ما قيل في وصف الموت قول منصور الفقيه:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا: في الموت ألف فضيلة لا تُعرفُ
منها أمان لقائه بلقائه   وفراق كل معاشرٍ لا ينصفُ

وله أو لغيره في مثل ذلك:

جزى اللّه عنا الموت خيراً فإنه   أبرُّ بنا من والدينا وأرأف
يعجّل تخليص النفوس من الأذى   ويُدني من الدار التي هي أشرف

ولصالح بن شريف في الموت:

الموت سر اللّه في خلقه   وحكمة دلّت على قهره
ما أصعب الموت وما بعده   لو فكّر الإنسان في أمره
أيام طاعات الفتى وحدها   هي التي تُحسب من عمره
لا تُلْهك الدنيا ولذّاتها   عن نهي مولاك ولا أمره
وانظر إلى من ملك الأرض هل   صحّ له منها سوى قبره؟!

رؤية نعم اللّه الباقية من التسلي

فإن كان المفقود شيئاً جعل اللّه عنه عوضاً، وخلق له برحمته منه بدلاً، أحد المزدوجين، كالعينين مثلاً، أو اليدين، فإن الأمر في ذلك أخفّ، والأسف

بسبب ذلك العوض أقل.

ولما قطع عروة بن الزبير رجله من أكلة أصابته دخل عليه عيسى بن طلحة بن عبيد اللّه فقال له: واللّه ما كنّا نعدّك للصراع يا أبا عبد اللّه، ذهب أهونك علينا، وبقي أكثرك لنا، وأحبّك إلينا، أبقى اللّه سمعك وبصرك ولسانك وعقلك ويديك وإحدى رجليك. قال: يا عيسى! ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيتني به.

فإن كان إحدى العينين ففي الباقية غنىً عن الذاهبة، ولهذا يقول الحكماء: إن كون العينين مزدوجين، إنما هو لمعنى الاستظهار لما يطرق إحداهما من آفة، فيكون في السالمة خلف منها. ولهذا يقال في المثل: ومن للعمى بالعور. وربما حُسِّنت مصيبة فقدهما بمثل قول الشاعر:

وربّما اغتبط الأعمى بحالته لأنه قد نجا من طـــــرّة العور

وفي مثل هذا يقال: لكل مقام مقال. والتلافي في هذه الصورة من الندور، بحيث عُدّ للنبي ﷺ معجزة من الآيات التي أظهر اللّه تعالى على يديه في ردِّ عين قتادة ﷺ بعد أن سالت على خدِّه، فكانت أحسن عينيه. والقصة مشهورة.

فإن طرق مثل هذا في الأذنين، فالنعمة في الباقية أتمّ، والرحمة في ستر النقص أعمّ، لأن فقد السمع من إحدى الأذنين لا يشين، وليس في ذهابه منها ذهاب ما يزين.

فإن كان كالصمم ففي ما أبقي اللّه من البصر، على القول بأنه أشرف من السمع، تسلية، وفي ما يُدرك من النظر بالإشارة التي تُفهمه معنى ما فقد إحساسه غنىً، فإن منّ اللّه عليه بمعرفة القراءة فقد يُغنيه ذلك بعض الغناء، حتى

يمكنه تعرّف الأمور على وجه الإسرار الذي هو من أفضل حالات الإدراك السمعي.

فإن كان الابتلاء بمثل بطلان شمٍّ أو نقصان لمس أو سقوط سنّ، فالأمر أهون، واعتماد الصبر والتسلي أبين، وما بقى من الحواس، أنفع وأزين.

ولمّا شق على معاوية رضي الله عنه سقوط مقادم فيه، قال له يزيد بن معن السالمي: واللّه ما بلغ أحد سنّك إلا أبغض بعضه بعضاً، ففوك أهون عليك من سمعك وبصرك. فطابت نفسه.

وإذا كان الصبر والتسلّي مطلوباً ومُجدياً في فوت النفس الذي ليس منها عوض، فأحرى أن يكون ذلك آكد طلباً وأكثر فائدة، في فقد عضو من الأعضاء، وقوة من القوى، أو في المرض المزمن ما كان، لما في الباقي من بعد الذاهب من العوض عنه كالعمى مثلاً، فإن فيما أبقى اللّه من سمع ولمس وذوق وشمّ، إذا تؤمِّل بقاؤه ـ وقد كان من الممكن ذهابه كالعينين ـ وجد فيه من النعم ما لا يؤدي شكرها، ولا يُستطاع حصرها، وفوق الصبر وما بعده درجة الرضا.

يحكى أنه لّما قدم سعد بن أبي وقاص مكة، وقد كفّ بصره، أسرع إليه الناس يسألونه الدعاء، وكان مجاب الدعوة، فجعل يدعو لهذا ولهذا، فقيل له: أنت مجاب الدعوة، وأنت تدعو للناس، فلو دعوت لنفسك لردّ اللّه عليك بصرك ـ فتبسّم وقال: قضاء اللّه عندي أحسن من بصري. انتهت. ومن مثل سعد رضي الله عنه في هذا المقام الأشرف!.

وليتحفّظ المبتلى بشيء من هذه البلايا أن يتمنّى الموت بسبب ذلك، لما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«لا يتمنين أحدكم الموت من ضُرٍ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»**[1].

وللتأسي في ذلك قال بعض قريش، وكان أعمى:

وخير دائك داء لا تُسبُّ به ... ولا تبيت تمنّى لذَّةَ الوسن
داء كريم ولا عدوى فتحذره ... والحمد للّه ذي الآلاء والمنن

وقال بشّار بن برد:

قالوا: العمى منظر قبيح ... قلت: بفقدي لكم يهون
واللّه ما في البلاد شيء ... تأسى على فقده العيون

كأنه أخذ هذا المعنى من قول أوس بن حجر لابنه في وصية أوصاه بها: وذهاب البصر خير من شر النظر. ولبشّار أيضاً:

إذا ولد المولود أعمى وجدته ... وجدّك أهدى من بصير وأحولا
عميت جنيناً والذكاء من العمى ... يجيب عجيب الظنّ للعلم معقلا
وغاض ضياء العين للبّ واقداً ... وقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا

والتدارك أيضاً في هذه الصورة من الندور، وهي أنموذج من معجزات النبي ﷺ عند القائلين بها وهم الأكثر، كما حكى في تاريخ بغداد في اسم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه اللّه فإنه قال فيه: وذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صغره، فرأت والدته النبي ﷺ فقال: يا هذه! قد ردّ اللّه إلى ابنك

---

(١) البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠) وغيرهما.

بصره، لكثرة بكائك، ولكثرة دعائك. قال: فأصبح فردّ اللّه بصره عليه. وهذه كرامة ظاهرة. ومثل البخاري ﷺ يكرمه اللّه بهذا ليكون آية في الذبّ عن سُنّة رسول اللّه ﷺ. وقد لا يبعد وجود نوع من هذا لبعض الناس في هذه الأوقات. والغالب عليه ـ واللّه أعلم ـ أن يكون مرض المبتلى مما لم يستحكم جداً، كنزول الماء الأزرق، فيأتي اللّه بالشفاء بسبب من الأسباب الظاهرة أو دونه، فاللّه غالب على أمره. وإذا كان كذلك فهو مما يندرج تحت الصورة قبلها، فيكون ممكن الزوال. وتبقى مثل قضية البخاري متمكنة تحت هذه الصورة، واللّه أعلم.

رؤية نعمة العقل يتسلى بها عن فقد ما سواها

ثم يترقّى من ذلك إلى بقاء نعمة العقل، التي بها يتميّز الإنسان من سائر الحيوان، فإنها نعمة تفضلُ جميع الحواس إذا فُرض فقدها. قال بعضهم: ولولا العقل الذي بان به ذوو التمييز من ذوي الجهل لما كان بين الإنسان وبين سائر الحيوان فرق في تولّد ولا نموٍّ ولا حركة ولا هدي ولا أكل ولا شرب ولا تصرّف ولا تقلب، لأن البهائم شركاؤه في ذلك، فبالعقل تُنال الفضيلة، وهو عند اللّه أقرب الوسيلة، والعقل سرّ من اللّه في خليقته، ووديعته العظمى في بريته، والموهبة الجليلة من عنده، والمعنى الذي من أجله تولّى خلق آدم بيده، وأحمد الناس عند الحكماء أصحّهم عقلاً.

وقال أفلاطون: كل فضيلة إنما يُنتجها العقل، وكل رذيلة إنما يُنتجها الجهل، فانظروا مقدار هذه النعمة، وهل يعدلها مما فرض فقده شيء؟. قال اللّه تعالى: ﴿ **إن شرّ الدواب عند اللّه الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ [الأنفال:٢٢].
قال فيروز: إذا أراد اللّه أن يزيل عن عبده نعمة فأوّل ما يزيل عنه العقل.

ثم يترقّى من ذلك إلى بقاء نعمة الإسلام، فهنالك يخفّ كل ثقيل من الآلام، ويصغر كل عظيم من الأسقام، إذا كانت الحياة الدنيا زائلة مضمحلة وكل ما فيها من ألم وإن أوجع، أو رُزء وإن أفزع، فإن ذلك كله ينتهي إلى أمد قريب وأجل غير بعيد، وإنما الرزية، كل الرزية من سلب حلية الإيمان وكان ـ والعياذ بالله ـ على غير الإسلام، فإذا عظمت المصائب، وترادفت النوائب، فلن يوجد في التسلية عنها كالاستمساك من الإيمان بالعروة الوثقى، واللجأ من منةِ التوحيد إلى المعتصم الأوقى، لأن في فقده ـ العياذ بالله ـ الخيبة التي لا فوز فيها، والهلاك الذي لا منجاة وراءه، وفي طموس نوره الظلمة التي لا يعقبها صباح، والخسارة التي لا يمكن بعدها ربح. قال الله تعالى: ﴿ **وقد خاب من حمل ظلماً** ﴾ [طه: ١١١] مع قوله: ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ [الأنعام : ٢٦] وقال تعالى: ﴿**والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى: ﴿ **الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ [الزمر: ١٥].

فإن كان الابتلاء في الصحة بالمرض المُزمن وما أشبه ذلك، فالصحة إحدى النعمتين المغبون فيهما كثير من الناس، وما أعظمها من نعمة، وأجلّها من منّة، ولكنها إذا قويست بالأجر الموعود به، والمثوبة المرجوّة بفقدها، واستحضر فناء هذه الدار العاجلة، وبقاء تلك الدار الآجلة، فربّما يخفّ على المبتلى حاله، وتنبسط إلى ما عند الله آماله. قال سهل به هارون: التهنئة بآجل الثواب أولى من التعزية بعاجل المصيبة.

وفي قصد التسلّي عن المرض المزمن يقول جزء بن قيس لما شاع فيه البرص فقيل له: ما هذا؟ قال: سيف اللّه حلاّه. قال الجاحظ: هكذا يقول أهل الحجاز، ويقول أهل العراق: سيف اللّه جلاّه. بالجيم. وفي نحو من ذلك يقول ابن جبلة وكان أبرصاً:

والناس كالخيل إن ذُمُّوا وإن مُدحوا   وذو الشيات كذي الأوضاح في الناس

قال: يقولون فرس كريم، فرس جواد، فرس رائع، فرس عتيق، وليست هذه الأسماء الكريمة إلا للإنسان والفرس، وفي ذلك القصد يقول معاند بن الجد وكان أبرصاً:

وما أنا بالبهيم فتنكروني   ولا غفل الإهاب من الوشوم

وزعم أبو نواس أنهم كانوا يتبرّكون به.

ومن هذه الأمراض المزمنة ما يتدارك اللّه فيه بالفرج وفي ذكر ذلك راحة للمبتلين، لتأنس النفس بالرجاء في ذلك النادر الغريب، فعن بعضهم قال: كانت لي أمٌّ مقعدة نحو عشرين سنة، فقالت لي: اذهب إلى أحمد بن حنبل، فإنه يدعو اللّه لي، فوقفت على بابه، فقال: من هذا؟ قلت: رجل من ذلك الجانب، سألتني أمي، وهي زَمِنةٌ مُقعَدة، أن أسألك أن تدعو اللّه لها. فسمعت كلامه كلام رجل مغضب، وقال: نحن أحوج إلى أن تدعو اللّه لنا. فولّيت منصرفاً، فخرجت عجوز من داره، قالت: أنت الذي كلّمته؟ قلت: نعم. قالت: قد تركته يدعو اللّه لها. قال: فجئت من فوري، فدققت الباب، فخرجت على رجليها تمشي، وقالت: قد وهب اللّه لي العافية. انتهت.

وقد عدّد الشيخ عز الدين بن عبد السلام للمصائب والرزايا، والمحن والبلايا، جملة فوائد، أوصلها إلى نحو سبع عشرة فائدة، تشتمل من قصد

التسلية على ما لا إشكال فيه، جعل منها: معرفة عزّ الربوبية وقهرها، ومعرفة ذل العبودية وقسرها، والتضرع، والدعاء والإخلاص فيه، والحلم عمن صدرت عنه المصيبة، والعفو عن جانبها، والفرح بها لأجل فوائدها، والشكر عليها لما تضمنت من الفوائد، وتمحيصها للذنوب والخطايا، ورحمة أهل البلايا، ومساعدتهم على بلواهم، ومعرفة قدر العافية والشكر عليها، وثواب الآخرة على اختلاف مراتبه، وما في طيها من الفوائد الخفية، ومنعها من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر، والرضا الذي هو أفضل من الجنة وما فيها، لقوله ﷻ: ﴿ **ورضوان من اللّه أكبر** ﴾ [التوبة: ٧٢].

واستدل الشيخ رحمه اللّه على ما سطّر من هذه الفوائد بدلائل ظاهرة في جاري حكمه، وماضي قدره، ونافذ قضائه، والتفويض له فيما أراد، بعد التحقيق لقاعدة الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومرّه، وإنّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فإنّه إذا صحّ هذا العقد دون تردد فيه، ولا شك، لقول النبي ﷺ: « **ولا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدّر اللّه وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان** »[1] فمن تمام صحته أن يسلّم في كل ما وقع، ويفوّض إلى اللّه فيما به حكم، فإنه أيضاً إذا تأمّل أنّ ذلك الحادث الواقع به كان من اللّه، وأنه الذي قدّره وقضاه، وأنّه الجاري على وفق مشيئته، والمطابق لمقتضى إرادته، فإنْ كان بالنفس قوة لتحمّله على ما هو عليه، وتجرُّعه إن كان مرّاً على جنسيه، فذلك أولى ما يتلقّى به أمر مولاه، إذا أمّل في باطنه أمراً أو أموراً لو اطلع عليها لآثر مقتضى ما جرت به الأقدار، ولعلم أنها له حسن الاختيار.

(١) مسلم (٢٦٦٤) وابن ماجه (٧٩) وأحمد ٢/٣٦٦، ٣٧٠ عن أبي هريرة ﷺ.

كالذي يحكى في قضية الرجل الذي كان يقول في كل أمر يقع له: لعلها خيرة. واتّفق له موت الديك والكلب والحمار في ليلة واحدة، وفي موت كل واحد من هؤلاء الأشياء قال: لعلها خيرة. واتفق في تلك الليلة تبيّت[1] قرية سكناه، فاستدلّ على غيره بصوت كلّ ما فقده، وسلم هو وأهله لعدم صوت ما استدل به على غيره، وهذا مقتضى قوله: ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ [النساء: ١٩]. وفي هذا المعنى يقول أبو الصلت:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي ... طي الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرّني ما كنت أحذره ... وبما ساءني ما بت أرجوه

وفي هذا المعنى كتب الوزير الكاتب أبو القاسم بن الجد إلى الوزير أبي القاسم ابن الهوزني إثر قدومه من حضرة ابن تاشفين من رقعة نصها:

كم نعمة لا تستقل بشكرها ... لله في طي المكاره كامنة

لعل البلاء سبب خير لصاحبه

وقد يُجنى - أعزّك الله - من شجر المساءة ثمر المسرّة، ويُجتلى وجه المحبوب غبّ المكروه مشرق الأسِرّة، وربما تجهّم القدر وضميره مبتسم، وتصلّب الزمان وعقده محتشم، وإنما ننظر إلى مواقع الأقدار، في الإصدار، ونحمد مجاري الأعمال، عند المآل، وفي هذه المقدمة دلالة على النبوة التي ما اعتكر جنحها، إلا ريثما أسفر صبحها، ولا نعب بالبعد غرابها، حتى التفت إلى سانح السعد ركابها، ولا استطار لها في قلب الوليّ صدع، حتى اشتمل منها على أنف العدو جدع، وما ذاك إلا أن سلطان الحق أنجدك وأيّدك،

---

(١) بيّت العدو : أوقع بهم ليلاً. أي أغار عليهم العدو فكن يهلك أهل كل بيت يخرج منه صوت مثل صوت الديكة أو الكلاب أو الحمير لتوقع سُكن هذه البيوت.

وبرهان الفضل قام معك وأطال يدك، وحاشا للعلم أن يُلبس حامله خمولاً، أو يخب له نحو الإدالة حمولاً، يوشك إن ما استقلّت بك أيدي الإثار، في صدر العثار، وخاصمت عنك ألسن السنن، عوارض المحن، وما سرت إلا وظل الكرامة عليك ظليل، وصنع اللّه لك رسيل، وبك كفيل، فلئن أوحش مسيرك، لقد آنس ظهورك، ولئن سمح اغترابك، لقد حسن اقترابك، ولئن سخنت العين بعدك، لقد بيّن البين فقدك، والحمد للّه الذي أوشك مقدمك وأعلى قدمك، ورفع في كل مكرمة ومأثرة علَمَكَ، وإياه تعالى نسأل أن يُهنئك ويهنّئ بك عارفة السلامة، ويبقيك بعيد الصيت، رفيع القدر، وفي الظعن والإقامة، ولولا ترددي في عقابيل ربع لزمت جسمي شهوراً،، واتخذته ربعاً معموراً، لما استنبت في التهنئة خطاباً، ولحثثت نحوك ركاباً، وأنت بسروك توسع العذر قبولاً، وتقبله وجهاً جميلاً.

اللجوء إلى اللّه بالقلب والدعاء وسيلة النجاة للمبتلى

وإن لم يكن بالنفس قوة على تحمّله على ما هو عليه ولا تجرُّع مرارته على حسبها، وترجح عنده نظره لنفسه في كون هذا ابتلاء على الحقيقة، لا يستطيع استمرار حاله عليه، فالأولى أن يلجأ في صرفه عنه، إلى من حكم به عليه، ويتضرع في راحته منه إلى من أتى بمكروهه إليه، فمن العمل الذي ترجع إليه طبيعة من ابتُلي من الناس بضرب أو امتحان من مثله من أبناء جنسه، فإنه بالعادة إليه يخشع، ومنه يطلب، وإياه يستعطف في صرف ما أصابه من التعذيب عنه، ورفع ما نزل به من الضر منه، وكثيراً ما يعلم أنه لا يُغني عنه في ذلك لكونه مأموراً بغيره أو مصرّفيّاً لسواه.

والأولى لمن يعلم أن الذي أصابه إنما هو من اللّه أن يبتهل إليه في كشفه، ويتضرع إليه في صرفه، ومن المعلوم الذي لايتمارى فيه أحد، ولا يشك فيه إلا من لا يؤمن أن اللّه تعالى يجير ولا يجار عليه، وإذا أراد صرف الضر فلا يقدر غيره على أن يضرّ، وإذا أراد كشف السوء فلا يستطيع سواه أن يسوء، كما أنه إذا أراد بعبده خيراً، أو منحه عزّاً، فلا قدرة لأحد على إزالته، ولا تغيير حالته. قال اللّه تعالى: ﴿**وإن يمسسك اللّه بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ [يونس: ١٠٧].

والأولى لمن ينزل به تمحيص، أو يلحقه ابتلاء، أن يدعو اللّه تعالى بالأدعية الجامعة، التي لا تعيّن للعبد اختياراً، ولا تخصص له اقتراحاً، فقد تأتي الفائدة من قِبل المكروه، وقد تحصل الراحة بسبب التعب، والاستقراء في الدعوات النبوية يشهد لهذا المعنى كقوله: «**وأصلح لي شأني كله**»[(١)] وقوله: «**اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه محمد نبيك ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ وأنت المستعان وعليك التكلان** »[(٢)] وقوله: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»[(٣)] وقوله ﷺ : «**اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[(٤)]

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠) وأحمد ٤٢/٥، ٢٥٣ عن نفيع بن الحارث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤١) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠) وغيرهما عن أنس رضي الله عنه.

وقول اللّه تعالى: ﴿**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**﴾ [البقرة: ٢٠١].

فأنت ترى هذه الدعوات لم تتعرّض لتخيُّر وجه بعينه، ولا تطلب قصد بخصوصه، ما لم يتعيّن كون القصد المطلوب صرفه شراً محضاً، كقوله: ﴿**ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً**﴾ [الفرقان: ٦٥] وقوله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر والدين وغلبة الرجال**»(١) وقوله ﷺ: «**اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**»(٢) وكقوله : «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعوة لا يستجاب لها**»(٣) .

أو يكون القصد المطلوب خيراً محضاً، كقوله تعالى : ﴿**واجعلني من ورثة جنة النعيم**﴾ [الشعراء: ٨٥]. وأمثال ذلك في السنة كثير، وفيما ذكرته كفاية.

التسلّي بحاله بعد زوال الشباب

وليكن على بال ممن لحقه الابتلاء، أو أدركه التمحيص، أنه على فرض سلامته مما ابتُلِيَ به، ذاهب إلى الهرم، مرتحل مع الساعات إلى المشيب، فيخفض ذلك من ابتلائه، ويعلم أنه لو عوفي من هذا التمحيص، فإن نذير الشيب من ورائه، ولذلك قال علي بن جبلة في هذا المنحى:

وأرى الليالي ما طوت من شِدتي ردّته في عظتي وفي إفهامي
وعلمت أن المرء من ستر الردى حيث الرميّة من سهام الرامي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه البخاري (٦٣٤٧) ومسلم (٢٧٠٧) وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) مسلم (٢٧٢٢) والنسائي (٥٤٥٨) وغيرهما عن زيد بن أرقم ﷺ.

وإنما خلع المشيب صبغة الشباب ليكون النذير العريان بحلول الموت، وقد سمّى اللّه تعالى الموت مصيبة، فهي إذاً أعظم المصائب، وأوجع النوائب، ولا حيلة فيه إلا الصبر والاسترجاع، قال رسول اللّه ﷺ: **«ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمر اللّه به: إنا للّه وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره اللّه وأخلفه خيراً منها»**[1] .

على المبتلى عدم الشكوى إلا لربه

وعلى المبتلى بشيء من هذه التمحيصات الكتم لأمره وعدم الشكوى إلا لربه. ويشهد لذلك ما نُقل عن مالك رضي الله عنه قال الواقدي ومصعب بن عبد اللّه: كان مالك يحضر المسجد ويشهد الجمعات والجنائز، ويعود المرضى ويجيب الدعوة، ويقضي الحقوق، وربما ترك الجلوس في المسجد، وكان يصلّي وينصرف، ثم ترك عيادة المرضى وشهود الجنائز، وكان يأتي أصحابه فيعزّيهم، ثم ترك مجالسة الناس ومخالطتهم والصلاة في مسجد النبي ﷺ حتى الجمعة، ولا يعزّي أحداً ولا يقضي له حقاً، وكان يقال له في ذلك فيقول: ما يتهيّأ لكل أحد أن يذكر ما فيه. وفي بعض الروايات: أعذارٌ لا تُذكر. فاحتمل الناس له كل ذلك، وكانوا أرغب ما كانوا فيه وأشدّه تعظيماً له، حتى مات على ذلك. قال عتيق بن يعقوب ومصعب: فلما حضرته الوفاة سئل عن تخلّفه عن المسجد. قال يعقوب: وكان تخلّفه عنه قبل موته بسنتين، فقال: لولا أني في آخر يوم من الدنيا وأوله من الآخرة ما أخبرتكم، سلس بولي فكرهت أن آتي مسجد رسول اللّه ﷺ على غير طهارة استخفافاً برسول اللّه ﷺ وكرهت أن أذكر علّتي فأشكو ربي. انتهت.

---

(١) مسلم (٩١٨) والترمذي (٩٧٧) وغيرهما من حديث أم سلمة رضي اللّه عنها.

فتأمّل فقه مالك ﷺ في امتناعه من هذه الأمور المؤكدات، وعدم ذكره عُذره لما فيه من شكوى ربه، رحمه اللّه وقدّس ثراه.

الاستعانة بأصدقاء الصدق سلوى

ولاستعانة المبتلى على هذه التمحيصات كلها التي تضمنتها هذه الصور الست بأصدقاء الصدق وإخوان الوفاء أثر عظيم وراحة كبيرة ، وربما ألفى في هذا المعنى من نعمة اللّه تعالى ما يمنّ به من اهتمام أولي المِقة[1] والمودة ما لا يوجد له كفاء، وكثيراً ما يكون ذلك ممن لم يتقدّم للمبتلى به معرفة، ولا سبقت منه إليه وسيلة، وإنما تكون معرفته من جملة ألطاف اللّه الخافية، ومن مواهبه الجزيلة.

ومن ذلك أن اللّه قيّض لي في ذلك التمحيص الوارد على والدي - رحمه اللّه - رجلاً بهذه الصفة تحمّل عنّي من تلك النائبة، ما لا يحمله الأخ الشقيق عن أخيه، وساهمني فيها المساهمة التي لم يقع لي مثلها من أقرب القرابة، ثم إني استفدت منه أصحاباً كانوا على مثل صفته ديناً ومشاركة، فتحمّلوا أيضاً من أعباء تلك النكبة ما لا أستطيع له كفاء إلا أن يكافئهم عني من منحني ودهم، ووضع لي القبول عندهم، سبحانه لا إله إلا هو، فلقد كان منهم رجل من غير الحضرة، أقام معي سبعة أشهر يقوم بوظائفي، من نقل ماء لوضوئي وشُربي، ويتردد بطعمة لأكلي في أوقاتها، ونقل لأسبابي متى احتجت للانتقال، ثم إنه لم يسألني عن اسمي ولا عن معرفتي ولا علم ذلك، إلى أن منّ اللّه بتفريج تلك الأزمة، وانجلاء تلك الغمّة فلقيني في رحبة المسجد الجامع،

---

(١) المحبة.

وحمد اللّه على ما رحم به من ذهاب ذلك الكرب، وحينئذ سألني عن اسمي ومعرفتي، وكان لي منه صديق صدق لا يُعدل به أحدٌ متانة دين وعلم وحصافة عقل وكمال خيرية، رحمه اللّه وأرضاه.

وإذا كان الصديق بهذه الصفة فهو في القرب بنفسه مواس، وهو في البعد لك غير ناسٍ. وفيمن هذه صفته يقول الميكالي:

وأخٍ إذا ما شطّ عني رحلُه ... أدنى إليّ على النوى معروفهِ
كالكرم لم يمنعه بعد عريشه ... عن أن يُقرِّب للجُناة قطوفه

كما أنه لا يُستبعد أن يخون من تعرفه، ويُسلمك من تثق به، بل لا تأتيك المضرّة في الأغلب إلا من تلقاء من تُعدّه للمنفعة، ولا تلحقك المساءة إلا من قبل من ترتجي من لدنه المسرّة من قريب أو حبيب، وعلى ذلك يتنزل قول عبد اللّه بن المعتز:

بلوت أخلاء هذا الزمان ... فأقللت بالجهر منهم نصيبي
فكلّهم إن تأمّلته ... صديق العيان عدو المغيب

وفي تقرير المخشيّ من ذلك يقول أبو محمد الحسن المهذّب رحمه اللّه:

ومن نكد الأيام أبقي كما ترى ... أكابد عيشاً مثل عيشي أنكدا
أمنت عُداتي ثم خفت أحبتي ... لقد صدقوا إنّ الثقات هم العدا

وعسى أن يكون صدق في هذا القول وفي تقسيمه البريّة إلى قسمين شبّههم فيه بالأرض في انقسامها إلى بقعتين مُعدّتيْن للخبث والعبادة، يقول أيضاً:

لا تنكرنّ من الأنام تفاوتاً ... إذ كان ذا عبداً وهذا سيدا
فالناس مثل الأرض منها بُقعة ... تلقى بها خبثاً وأُخرى مسجدا

قال بعض العلماء: الإخوان ثلاثة مواسٍ بماله، ومواسٍ بنفسه فذلك الصديق في إخائه، وآخر يأخذ منك البُلغة ويريدك لبعض اللذّة فلا تعُدن ذلك من أهل الثقة، وثالث إخاؤه البشاشة ومودّته التسليم فرضاه منك ورضاك منه قليل. وقد جاء في وجود المرغوب فيه، من مثل من قدّمنا صفته، والمرغوب عنه ممن أخرناها، أقاويل وأشعار تنطق بأنّ برهان الوجود يشهد لهم بهذا المعنى، فمن ذلك قول بعضهم:

أعاذلتي كم من أخٍ لي يودُّني   عزيز عليّ لم يلدني والده
وآخر أصلي في المناسب أصله   يباعدني في رأيه وأُباعده
تمّنى لي الموت المعجل حاسدٌ   ولا خير فيمن ليس يُعرف حاسده

يقال إن كسرى سأل بزرجمهر عن أربع مسائل فقال: أيُّ شيء أضيع؟ قال: وُدٌّ مضروب إلى غير من يستحقه. قال: لمن أنت أشد رحمة؟ قال: لعالم يجوز عليه حكم جاهل. قال: كيف كتمانك السر؟ قال: جنباي قبره. قال: لمن أنت أشد حباً لأخيك أو لصديقك؟ قال: إنما أحب إذا كان صديقي.

وقال بعض الحكماء: القرابة تحتاج إلى المودة والمودة لا تحتاج إلى القرابة.

قال الشاعر:

ليس الشقيق صديقاً   بل الصديق الشقيق

وقال الحكماء: المودة أسبك الأنساب، والعلم أشرف الأحساب. وقال الشاعر في معناه:

ولقد بلوت الناس ثم خبرتهم   فعلمت ما فيهم من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقرِّبُ قاطعاً   وإذا المودّة أقرب الأنساب

ومما يسطر في المعنى قول الآخر:

صاف الكرام إذا أردت إخاءهم واعلم بأن أخا الحفاظ أخوك

كم إخوة لك لم يلدك أبوهم وكأنما آباؤهم ولدوك

وقال بعض الفرس: لا قرابة أقرب من مودةٍ ونصيحة، ولا بُعد أبعد من غشٍّ وعداوة. والسر في هذا ـ واللّه أعلم ـ أن الشدائد بطبعها مهروب منها، ومنفور عنها، فإذا وقعت أو قاربت الوقوع، استنكرها المشاهد لها، واستعظمها المعاين لأزمتها، فنفرت نفسه، وانقبض انبساطه، توهّماً منه أن ذلك الابتلاء الذي لحق سواه، مما يتسبب به، أو يصل له ضرر بسببه، إلا من كان من حيلته من المساهمة، وفي طبيعته من المشاركة، ما يحمله على اطّراح هذا الوهم، واستحقار هذا التخيّل. وفي مثله يقول أبو العتاهية:

إن أخاك الحق من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدّعك شتت شمل نفسه ليجمعك

فإن قيل فما بال هذه المساهمة توجد في الأغلب فيمن لم يسبق له بالمبتلى معرفة، ولا تقدّمت بينهما صحبة، حسبما أشرت إليه؟! فالجواب ـ واللّه أعلم ـ أن ذلك لحق هذا الصنف عن الحسد، الذي يمكن أن يكون هو في الصنف الذي سبقت منه المعرفة عاضداً لما نشأ له من الوهم، ومثوياً لما عرض له من التخيّل، كما أن خلوَّ من لا تعرفه من داء الحسد موجب لوجود رفقة بك، ويمكن عطفه عليك، وفي هذا المعنى ينشد بعضهم:

إذا ضاق مال المرء ضاقت مذاهبه وضنّت عليه بالنوال أقاربه

وما الناس إلا حافظ لمضيّع وما العيش إلا ما تطيب عواقبه

يخونك ذو القربى مراراً وربما وفّى لك عند الجهد من لا تناسبه

وروي عن العتابي أنه كتب إلى طوق بن مالك:

أما بعد، فاعلم أن عشيرتك من أحسن عشرتك، وابن عمك من عمّك نفعه، وقريبك من قرب منك خيره، وأن أحب الناس إليك أجداهم بالنفع عليك.

ولأبي فراس الحمداني:

أراني وقومي فرّقتنا مذاهب ... وإن جمعتنا في الأصول المناسب
فأقصاهم أقصاهم في مساءتي ... وأقربهم مما كرهت الأقارب
غريب وأهلي حيث ما كان ناظري ... وحيد وحولي من رجالي عصائب
نسيبك من ناسبت بالود قلبه ... وجارك من صافيته لا المصاقب
وأعظم من عاديت غير مكاشفٍ ... وأهون من عاديته من تحارب
ومن كان غير السيف كافل رزقه ... فللذل منه لا محالة جانب

وهؤلاء الأصدقاء الصادقون على قلّتهم، والإخوان الأوفياء على ندورهم، مما يعتري الغلط في عدّ من يستظهر بزخرف المودة، ويستشهد بزبرج المحبة على أنه منهم، وليس كذلك، وإنّما معيار معرفتهم طرق الابتلاء وحدوث التمحيص، ولذلك قيل لبعض الأدباء: كم لك من صديق؟ قال: لا أدري، لأن الدنيا عليّ مقبلة، وكل من يلقاني يظهر لي الصداقة، وإنما أحسبهم إذا أدبرت عني. انتهى. وصدق هذا القائل ـ رحمه الله ـ فإذا لم تتغير حالة الصديق في ذلك، أو كانت استفادته من هذا الوقت، فذلك الذي ينبغي أن تشدّ يد الضنّة على صداقته. وهذا المعنى الذي قررته هو الذي قصده القاضي يحيى بن سعيد في أبيات:

إني لفي زمن تكدّر صفوه ... وأمرّ أحلاه وأحزن سهله
نُسي الوفاء فليس يُعرف ما اسمه ... وعفا الوداد فلا تبين محله
ولقد بلوت الناس في أخلاقهم ... فوجدت خيرهم الذي لم أبله

أردت البيت الأخير من القطعة، الذي تضمّن صفة من حمدته من صنف الصديق، وأمّا مَن سواه فلا عبرة به.

ولقد وقفت من ذلك بالتجربة على ما لو صرّحت بأعيان الوقائع، وسمّيت من بلوت منه الخيانة من الأقارب، وأشرت لمن علمت منه عدم الوفاء من جنس الصديق الملاطف، لقضى منه العجب سامعه، وشاهد منه الغريب قارئه، حتى لا يُستبعد قول من قال: إن الصديق الموثوق بمودّته قد قلّ حتى صار اسماً لغير موجود ولفظاً لمعنىً مفقود. فهو كما قال الشاعر:

وقالوا: هل وجدت صديق صدقٍ معيناً في الزمـــان على الزمان؟!
فقلت: نعـــم. إذا نِلتُ الثـــريّا وصافحـــني هناك الفرقدان
متى أبصـــرتم شيئاً محـــالاً يعـــود على الحقيقة كالعيان؟!

وعلى ما بلوته من ذلك بالاختبارِ التامِ، والتجربة الكاملة، يصدق قول الشاعر، ويصحّ عندي:

أنست بوحدتي حتـــى لو أنّي دعاني الأنس لا ستوحشت منه
ولم تدع التجارب لي صـديقاً أمـــيل إلـيه إلا مـلت عـنه

وقال عبد اللّه بن المعتز:

لم يبق شيء فاتني كسبه إلا أخٌ يســـلم لي قلـــبه
ينأى فلا يُفسده نأيه عنـ ـي ولا يصلحـــه قُـــربه
يكون حسبي من جميع الورى في كل حـــال وأنا حســـبه

ويحكى عن الكندي أنه قال: قلت لبعض الرهبان: من أبعد الناس سفراً؟ قال: المسافر في طلب الأخ الصالح.

وكان عليٌّ بن أبي طالب ﷺ كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات وهي:

صُنْ النفس واحملها على ما يزينها تعشْ سالماً والقول فيك جميل
ولا تُرينّ الناس إلا تجمّلاً نبا بك دهر أو جفاك خليل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ عسى نكبات الدهر عنك تزول
يعزّ الغنيُّ النفس إن قلّ ماله ويغني الفقير النفس وهو ذليل
وما أكثر الإخوان حين تعُدُّهم ولكنّهم في النائبات قليل

وصدق أبو بكر بن هاشم الخالدي:

وأخٍ رخصت عليه حتى ملّني والشيء مملول إذا ما يرخص
يا ليته إذ باع وُدّي باعه ممن يزيد عليه لا من يُنقص
ما في زمانك ما يعز وجوده إن رُمته إلا صديق مخلص

ونحو من ذلك ما قاله بعض شعراء القلائد:

وأجلُّ مفقود شباب ذاهب وأعزّ موجود حبيب ممحض
والناس أغربة إذا فتّشتهم وأخو المصافاة الغراب الأبيض

وقال صالح بن عبد القدوس:

ليس من كان في الرخاء صديقاً وعدو الصديق بعد الرخاء
عدّة في إخائه لصديق إنما ذاك عدّة الأعداء
لو ظفرنا بذي إخاء أمين لا تخذنا إخاءه للدواء

ومما يشبه انقلاب الصديق عدواً كونه يصيّر العدو صديقاً، وذلك من فساد الضمير، واستبطان الحقد، فيوالي العدوّ اقتناعاً منه بما يتوهّم منه من إذاية صديقه المجفوّ، ويتخيّل منه من مضرّة صاحبه المهجور.

قال أحمد بن برغاش في بيتيه:

وكم صاحبٍ نالته مني رفعة وحظي الذي أدركت منه خمول

ومن شمّ ورداً يستفد منه نضرة ولكنّ حظ الـــورد منه ذبول

وهذا كثير سيّما إذا لم تُراع شروط الصداقة أولاً، ولذلك يقول القاضي ناصح الدين أبو بكر الأرجاني:

تخيّر من تصاحبه فكـــم مـــن وثوق عـــــاد آخره وثاقا

إذا خطب الصداقة منك كفءٌ فلا تطلب سوى صدق صداقا

وفي قلة الصديق الصادق قال أبو العباس الناشئ:

طفت البـــــلاد مشرِّقاً ومغرِّباً لأنال خِلاً بالوفـــاء خليـــقا

ورجعت عمّا كنت قد حاولت إذ لم تصادف همّـــتي توفيقا

فلقلّ يوم ظل عنّي ماضـــــياً لم أشكُ فيه إلى العدو صديقا

وهذا من أعظم ما يكون من الابتلاء.

وفي التشكّي إلى من ليس بصحيح الود، فضلاً عن العدو، يقول القاضي أبو القاسم بن حاتم ـ رحمه الله ـ:

شكوت بما دهاك وكان سرّاً لمن ليست مودّته صحيـــــحة

فتلك مصيبة عـــــادت ثلاثاً لصحبتها الشماتة والفضيـــحة

هـذا شـكواه بسـرّه لغير ذي المـودّة الصحيحـة، فكيـف بمـا بينـه وبـين الصديق المحقق الصداقـة للسـر ومعلـوم العـداوة، فكيـف لا يكـون مـن أعظـم الابتلاء؟!.

وبسبب قلّة الأخ الصالح قال المأمون: إن غلب شـيء علـى حـبّ المـال والولد فالأخ الصالح. وقال صالح بن جناح:

من فاته ودّ أخٍ صــــــالحٍ فذلك المحـــــرم حقّاً يقين

ما ذاقت النفس على شهوة ألذّ من ودّ صــــديق أمين

وهذا الذي قاله حق، ولسنا ننكره بتّاً، ولكنّا نقطع بندوره، واختلاط حقيقته الصادقة بزوره، وفي ذلك قال الآخر:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً   فلا تأمن خليلك أن يخونا
وليس يخون ذو ودٍّ أمينٌ   ولكن قلَّ ما تلْقى الأمينا

وعلى ذلك فمن كفاك من الأصدقاء شرّه على شكره، وقلبك منطوياً على برّه. وفي نحو منه يقول الأحنف: الكامل من عُدّت هفواته. وفي هذا المعنى يقول محمد بن يزيد المهلّبي:

هل الثكل إلا حسن ظنّ بصاحب   خؤون إذا ما الدهر نابت نوائبه
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معائبه

ولا سيّما إن وقف الصديق موقف الاعتذار، وتبرّأ بظاهره عمّا قرفه به من سيئ الاختبار، وفي ذلك المعنى يقول البحتري:

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً   إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أجلّك من يعصيك مستترا

وأنت ترى ما في هذا من الغدر الذي لا يحمله العقلاء، وما فيه من الأخلاق الذميمة التي يتنزّه عنها الفضلاء، إلا أن يعتمد ذلك بما تعلّل به القائل:

إذا ما خليلي رابني بعض خُلقه   ولم يك عمّا ساءني بمفيق
صبرت على أشياء منه تريبني   مخافة أن أبقى بغير صديق

ولعمري إن البقاء بلا صديق أحسن من الأخ غير الوفيّ، والصديق غير المخلص، واللّه أعلم. وفي هذا المعنى الذي ذكرته قال القائل:

برمت من الناس وأخلاقهم   فصرت أستأنس بالوحدة

ما أكثر الإخوان فيها ومـا أقلّهم في منتهى الشـــدة

وفي التبرّم من صاحب له يقول أبو عبد اللّه الشرّان ـ رحمه اللّه ـ:

وصاحب لي مُبرم مـن رأى صبري على صحّـته استغربا
قال أنا كالعود إن شئـــته أورق وانشــــقّ أو أطربا
فقلت بل كالعود محتاج أن يُقشـــر أو يحرق أو يُضربا

وصاحب الرئيس أبي عبد اللّه قد أوضح له سبيله، واستقام على رتبته في الأصدقاء دليله، فرجح اطّراحه لديه، وتبيّن ثقل صُحبته عليه.

ومن هذا الصنف من تختفي أحوالـه وتختلـف أفعالـه وأقوالـه. وفي ذلـك يقول أبو الحسين بن الحاج ـ رحمه اللّه ـ:

لي صاحب عميت علي شؤونه حركاته مجهـــولة وسكـونه
نرتاب في الأمر الجليّ توهّـماً فإذا تبيّن نازعته ظنـــــونه
ما زلت أحفظه على شرقي به كالشيب تكرهه وأنت تصونه

وقد تخفى بالمداخلة من الصديق صفات،، وتنحجب بالملابسة من وجوه ودّه سمات، وربما تظهر عند الافـتراق، وتنجلـي عقـب الانقطـاع والتـلاق، وفي التحفّظ من ذلك يقول صالح بن شريف الرندي رحمه اللّه تعالى:

اصحب الخلّ بالتحـــرّز منه واكتم السر عن أخيك وصُنْه
رُبّ عيب غطّى الوصال عليه يتبدّى عند انفصــــالك عنه

وإذا تعيّن من ندوره، واختلاط ظلمته بنوره، فلـن ينبغـي أن يعتـب علـى كل جفوة، ولا أن يؤنب على كل هفوة، كما قال أبو فراس بن حمدان:

لم أؤاخذك بالجـفاء لأنّي واثق منك بالإخاء الصحيح
فجميل العدوّ غـير جميل وقبيح الصـــديق غير قبيح

وإنما هذا كله حيث لم ينقلب الصديق عدواً، ولم يسع في إضرارك أصيلاً وغدوّاً، ففي الخوف من هذا قال ابن وكيع:

احذر عدوك مـــــرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انعكس الصـــديق فكان أبصـــر بالمضـــرة

وقد كان ابن المعتزّ بسط هذا المعنى في أبياته التي يقول فيها:

عجبت من الصديق يريك ودّاً وباطـــنه بنيّـته الطـــريق
وما خـــوفي إذا ما ناب أمر من الأعــداء خوفي من صديق
عدّوي قد طويت السـر عنه ولم أعــدده يومـاً للحقــوق
وما أنا من صديق مستفـــادٍ على ثقـــة ولا عهـــد وثـيق
حذار من الصديق ومن شقيق فكم دُهي الشقيق من الشقـيق

وفيما يقع من تلّون الصديق يقول ابـن الرومـي ـ وقـد أبـدع في تشـبيهه بالقوس صديقه الذي انقلب عليه بالسهم:

رأيتك بينا أنت خِلّ وصاحب إذا أنت قد ولّيتنا ثانياً عطفا
وإنك إن أجني حنوّك مـوجب بعاداً لمن باذلته الودّ واللطـفا
لكالقوس أحنى ما تكون إذا انحنت على السهم أنأى ما تكون له قذفا

ويُحكى أن كسرى جمع مرازبته، وعيون أصحابه، فقال: علـى أي شـيء أنتم أشدُّ ندامة؟ قالوا: على وضع المعروف في غير أهله، وطلـب الشـكر ممـن لا شكر له. قال: فمن أي شيء أنتم أشدّ حذراً ؟ قالوا: من الصديق الغادر والعدو الفاجر. انتهى.

وقد جعل ابن الرومي أن العدو مستفاد من الصديق في قوله:

عدوك من صديقك مستفـــاد فلا تستكثرنّ من الصحــاب
فإن الداء أكـــــثر ما تراه يكون من الطعـــام والشراب

فلو كان الكثير يطيب كانت | مصاحبة الكثـير من الصواب
ولكن قلّ ما استكـثرت إلا | وقعت على ذئاب في ثياب
فدعْ عنك الكثير فكم كثير | يُعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمرويات | ويُلفى الريُّ في النُطف العذاب
إذا انقلب الصديق غدا عدواً | مبيناً والأمور إلى انقلاب

وقال ابن وكيع لأمه:

ليس بالمنكر انقلاب صديق | ربّما غصّ شارب بالشراب
وتلافي الأمور بعد فساد | كتلافي الأعداء بعد ضراب
لا تضيّع مودّة من صديق | وانقلاب الصديق شرّ انقلاب

وقد قالت الحكماء: ما كنت كاتمه من عدوك، فلا تُطلعنّ عليه صديقك، فيوشك أن يصير عدوّك فيذيعه. ومن هؤلاء حذّر منصور الفقيه:

احذر إخاء مماذق | مزج المرارة بالحلاوة
يحصي الذنوب عليك | أيام الصداقة للعداوة

وهذا الصنف المماذق من جنس الصديق الذي يضمر خلاف ما يظهر لا قصد لنا في تتبع ما قيل فيه، إذ الباب في ذلك متسع جداً، ومن علم منه هذا الخلق الذميم، فلا وجه لعدّه من الأصدقاء،، وهو أقرب أن يُحسب من الأعداء، كما تتنزّل عليه أبيات صالح بن عبد القدوس:

وكم ذاكرٍ وُدّاً وحفظاً وإنني | لأعلم أن الحق في غير ما ذكرْ
إذا ما رآني قال اهلاً ومرحباً | وفي قلبه غير الذي منه قد ظهر
فإن قال لي إني أودّك لم أقل | صدقت لأني لست آمن ما ستر

وقد سمّى الناس قديماً وحديثاً مثل هذا من جنس الابتلاء المستخف وهو على النفس أثقل من الجبل، وفيما يقرب من ذلك يقول عبد اللّه بن المعتزّ:

أخ لي يعطيني الرضا في دُنوِّه ويمنعني بعض الرضا وهو بائن
إذا ما رآني سرّني وهو ظاهر وإن غاب عنّي ساءني وهو باطن
وما لي ذنب غير أن مساوئاً له علّمتني كيف تبدو المحاسن

وقد قسّم المأمون الأصدقاء تقسيماً صحيحاً بقوله: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه أبداً وهو إخوان الصفا، وإخوان كالدواء يحتاج إليهم في بعض الأوقات، وإخوان كالداء لا يحتاج إليهم أبداً وهم المنافقون من الإخوان. انتهى التقسيم، ولكنّ القسم الأول هو المفقود على شدة الحاجة إليه، ولعلّه في هذا الزمان غير موجود، وعلى ذلك يتنزّل قول أبي سعيد البرهوني في قوله:

قد لزمت السكوت من غير عيّ ولزمت الفراش من غير علّة
وهجرت الإخوان لمّا أتتني عنهم كل خصلة مضمحلة
فعلى أهل ذا الزمان جميعاً ضعف قطر السماء من لعنة اللّه

تتميم

قد جعل اللّه الحمد خاتمة دعوى أهل أصطفائه، الحالّين محل الكرامة من جنات النعيم، وإن ذلك لما أذهب اللّه عنهم من الحزن، حسبما تشهد بذلك الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿**وقالوا الحمد للّه الذي أذهب عنّا الحزن إن ربنا لغفور شكور ۝ الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب**﴾. [فاطر: ٣٤-٣٥]

وهذه الصورة السادسة أحقُّ بحمد اللّه من جميع المواطن التي تقدّمتها، وسنوضح وجه ذلك إن شاء اللّه، وهو أن الابتلاء في هذه الصورة السادسة هو أعظم الابتلاءات، فمن لحقه منه شيء يحقّ عليه حمد اللّـه، لما دفع اللّه عنه مما هو أعظم من الابتلاء الـذي لحقـه، فلـن يعـرض في الدنيـا ابتـلاء إلا ويصحبه من لطف اللّه ما لو عري عنه لما أطاقه الظن، فما الظن بالذي هـو أعظم منه أو أعمّ منه تمحيصاً وابتلاء أو من سلم منه وعوفي عنه، فمن أحقّ بالحمد منه! وهو المعافى في موضع تراكم الابتلاء، والممنون عليـه بالسـلامة مما لحق سواه من التمحيص.

فلله الحمد حمداً يبلغنا رضاه، ويتكفّل لنا بجميـل صنعـه، والحمـد للّـه حمداً يخوّلنا رحمته، ويهيئ لنا رشداً من الأمر، والحمد للّه بجميع المحامد الـتي يحمده بها الأولون والآخرون، والحمد للّه بالمحامد الـتي يحمـده بهـا ملائكـة قدسه، والحمد للّه بالمحامد التي يُثني بها على نفسه، والحمـد للّه بكـل حمـد يليق بجلاله، ويوافق مقتضى كماله، ويتسنى به للحامد منتهى آماله، وصلّى اللّه على محمد وعلى آله وسلّم تسليما كثيراً.

المحتويات

الموضوع	الصفحة